

الدُّكُورُ بَشَارِعُ أَدَمَ مَعْرُوفٍ

التَّزِينَةُ التَّعَلِيمِيَّةُ فِي الْعِرَاقِ حَتَّى نِهَآيَةِ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ

مَكْتَبَةُ الْإِسْلَامِ الْبَحْرِيَّةُ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ



التربية والتعلم في العراق
حتى نهاية العصر العباسي

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التربية والتجربة في العراق

حتى نهاية العصر العباسي

الدكتور بشار عواد معروف

الباحث الرئيس في عمادة البحث العلمي
بجامعة الأردن

مكتبة النديم البخاري للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٣٨٦٦ / ١٤ - ١٢ - ٢٠١٠ م

ISBN

978- 977- 481- 056- 5

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

معروف ، بشار عواد .

الثروة والتعليم في العراق حتى نهاية العصر العباسي / بشار عواد معروف . - ط ١ . -
القاهرة : مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، ٢٠١٠ .

٢٢٤ ص ٢٤٤ سم .

تدليك ٥ ٥٦ ٤٨١ ٩٧٧ ٩٧٨

١- التعليم - تاريخ - العراق أ . العنوان

٣٧٩,٥٦٧

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

القاهرة : ٣ رسالته الك . خلف الجامع الأزهر - ت ٢٠١٤ - ٧٣

مجان ٢٦٧٧٧٧ / ١٤ - ١٠ / ٩١٨٦١١٤



المحتويات

١٣ مقدمة
١٥ الفصل الأول : أسس الفكر التربوي
١٧ المبحث الأول : بناء الإنسان الجديد
٢٥ المبحث الثاني : فضل العلم ومنزلة العلماء
٢٨ المبحث الثالث : تطور حركة التربية والتعليم
٣١ الفصل الثاني : تربية الأطفال وتعليمهم
٣٣ المبحث الأول : تربية الأطفال
٣٨ المبحث الثاني : تعليم الأطفال
٤٥ المبحث الثالث : تعليم البنات
٤٩ الفصل الثالث : المؤسسات التعليمية
٥١ تمهيد
٥٤ المبحث الأول : التعليم في الجوامع والمساجد
٧٤ المبحث الثاني : أماكن دراسة العلوم الصرفة
٧٧ المبحث الثالث : ظهور المدارس المستقلة
٨٦ المبحث الرابع : خصائص المدارس ونظمها
٩٠ المبحث الخامس : أهمية المدارس
٩٥ الفصل الرابع : مدارس العراق في العصر العباسي
٩٧ تمهيد
٩٨ المبحث الأول : مدارس بغداد
٩٨ ١- مدرسة مشهد أبي حنيفة ٤٥٩ هـ - ١٠٦٧ م
١٠٠ ٢- للمدرسة النظامية ٤٥٩ هـ - ١٠٦٧ م
 ٣- مدرسة فخر الإسلام الشاشي بفراح ظفر : قبل سنة ٤٨٢ هـ -
١٠٢ ١٠٨٩ م
١٠٢ ٤- المدرسة الشاذلية : ٤٨٢ هـ - ١٠٨٩ م

- ١٠٤ - مدرسة ثركان خاتون : قبل سنة ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م
- ١٠٥ - مدرسة الأمير سعادة الرسائلي : قبل سنة ٥٠٠ هـ - ١١٠٦ م
- ١٠٦ - المدرسة النشئية : قبل سنة ٥٠٨ هـ - ١١١٤ م
- ٨ - مدرسة الخنزمي (مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلاني) : قبل ٥١٣ هـ
- ١٠٧ - ١١١٩ م
- ١٠٨ - مدرسة أبي شجاع البئيج : قبل ٥٢٠ هـ - ١١٢٦ م
- ١٠٩ - ١٠ - المدرسة الموقفية سنة ٥٢٢ هـ - ١١٢٨ م
- ١١١ - ١١ - المدرسة المغشية : قبل ٥٢٥ هـ - ١١٣١ م
- ١١٣ - ١٢ - مدرسة ابن الأبرادي : قبل سنة ٥٣١ هـ - ١١٣٧ م
- ١١٤ - ١٣ - المدرسة الكمالية : سنة ٥٣٥ هـ - ١١٤١ م
- ١١٧ - ١٤ - المدرسة الثغنية : سنة ٥٤٠ هـ - ١١٤٥ م
- ١٢١ - ١٥ - مدرسة أبي النجيب الشهرزوري : قبل سنة ٥٤٥ هـ - ١١٥٠ م
- ١٢٤ - ١٦ - مدرسة أبي حكيم الشهرزوري : قبل ٥٥٦ هـ - ١١٦١ م
- ١٢٥ - ١٧ - مدرسة ابن الشمحل ٥٥٦ هـ - ١١٦١ م
- ١٢٦ - ١٨ - مدرسة ابن هيرة : ٥٥٧ هـ - ١١٦٢ م
- ١٢٨ - ١٩ - مدرسة ابن الليل : قبل ٥٦٠ هـ - ١١٦٥ م
- ١٣٠ - ٢٠ - المدرسة البهائية : قبل سنة ٥٦٣ هـ - ١١٦٨ م
- ١٣٣ - ٢١ - مدرسة الطيورين : قبل سنة ٥٦٣ هـ - ١١٦٨ م
- ١٣٣ - ٢٢ - المدرسة الفخرية : ٥٦٨ هـ - ١١٧٢ م
- ١٣٧ - ٢٣ - مدرسة ابن الجوزي بدرب دينار : ٥٧٠ هـ - ١١٧٤ م
- ١٣٨ - ٢٤ - مدرسة بنقشا : ٥٧٠ هـ - ١١٧٤ م
- ١٤٠ - ٢٥ - مدرسة زرك : قبل سنة ٥٧٣ هـ - ١١٧٧ م
- ١٤١ - ٢٦ - مدرسة ابن بكروس : قبل ٥٧٣ هـ - ١١٧٧ م
- ١٤٤ - ٢٧ - المدرسة القيصرية : قبل سنة ٥٨٩ هـ - ١١٩٣ م
- ١٤٥ - ٢٨ - مدرسة زمرد خاتون : ٥٨٩ هـ - ١١٩٣ م

- ٢٩ - مدرسة ابن العطار : قبل سنة ٥٩٥ هـ - ١١٩٩ م ١٤٩
- ٣٠ - المدرسة الشاطئية باب الشعير : قبل سنة ٥٩٨ هـ - ١٢٠١ م ١٥٠
- ٣١ - المدرسة الأسبانية : قبل سنة ٦٠٤ هـ - ١٢٠٧ م ١٥١
- ٣٢ - المدرسة الشراية : ٦٢٨ هـ - ١٢٣١ م ١٥٣
- ٣٣ - المدرسة المجاهدية : ٦٣٧ هـ - ١٢٣٩ - ١٢٤٠ م ١٥٥
- ٣٤ - المدرسة المستنصرية : ٦٣١ هـ - ١٢٣٤ م ١٥٧
- ٣٥ - المدرسة البشيرية : ٦٥٣ هـ - ١٢٥٥ م ١٦٤
- المبحث الثاني : مدارس البصرة ١٧٠
- ١ - المدرسة النظامية : بعد ٤٥٩ هـ - ١٠٦٧ م ١٧١
- ٢ - مدرسة أبي العباسي الخزرجاني : قبل سنة ٤٨٢ هـ - ١٠٨٩ م ١٧١
- ٣ - مدرسة أبي الفرج البصري : قبل سنة ٤٩٩ هـ - ١١٠٥ م ١٧٢
- ٤ - مدرسة أبي المظفر باتكين : قبل سنة ٦٣٠ هـ - ١٢٣٣ م .. ١٧٢
- ٥ - مدرسة أبي المظفر باتكين للطب : قبل ٦٣٠ هـ - ١٢٣٣ م ١٧٢
- ٦ - مدرسة ابن دؤيرة : قبل ٦٥٢ هـ - ١٢٥٤ م ١٧٣
- المبحث الثالث : مدارس الكوفة ١٧٤
- المبحث الرابع : مدارس واسط ١٧٥
- ١ - مدرسة أبي علي الفارقي قبل ٥٢٨ هـ - ١١٣٣ م ١٧٦
- ٢ - مدرسة ابن القارئ قبل سنة ٥٣٩ - ١١٤٤ م ١٧٦
- ٣ - مدرسة خطيرس : قبل سنة ٥٦١ هـ - ١١٦٦ م ١٧٦
- ٤ - مدرسة الفزوني : قبل سنة ٥٦٣ هـ - ١١٦٨ م ١٧٧
- ٥ - مدرسة ابن ورام : قبل سنة ٥٧٣ هـ - ١١٧٨ م ١٧٧
- ٦ - مدرسة ابن الكيال : قبل سنة ٥٧٥ هـ - ١١٧٩ م ١٧٨
- ٧ - المدرسة الشراية : ٦٣٢ هـ - ١٢٣٥ م ١٨٠
- المبحث الخامس : مدارس الموصل ١٨٢
- ١ - المدرسة النظامية : بعد ٤٥٩ هـ - ١٠٦٧ م ١٨٣

- ٢ - المدرسة الأتابكية العتيقة : قبل سنة ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م .. ١٨٣
- ٣ - المدرسة المهاجرة : قبل سنة ٥٨٥ هـ - ١١٨٩ م ١٨٥
- ٤ - المدرسة الزينية : قبل سنة ٥٦٣ هـ - ١١٦٨ م ١٨٧
- ٥ - المدرسة الكتاتبية القُصُوية : قبل سنة ٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م .. ١٨٨
- ٦ - المدرسة المجاهدية بعد سنة ٥٧٦ هـ - ١١٨٠ م ١٨٩
- ٧ - المدرسة العزية : بين ٥٧٦ و ٥٨٩ هـ - ١١٨٠ و ١١٩٣ م .. ١٩٠
- ٨ - مدرسة أم الملك الصالح : بعد سنة ٥٧٧ هـ - ١١٨١ م .. ١٩١
- ٩ - المدرسة الثورية : بين سنة ٥٨٩ و ٦٠٧ هـ - ١١٩٣ و ١٢١١ م ١٩١
- ١٠ - المدرسة البقشبية : قبل سنة ٦٠٨ هـ - ١٢١١ م ١٩٢
- ١١ - المدرسة العلانية : قبل سنة ٦٠٨ هـ - ١٢١١ م ١٩٣
- ١٢ - المدرسة البهريّة : قبل سنة ٦١٥ هـ - ١٢١٨ م ١٩٣
- ١٣ - المدرسة القاهرية : قبل سنة ٦١٥ هـ - ١٢١٨ م ١٩٤
- ١٤ - المدرسة الصارمية : قبل سنة ٦٢٣ هـ - ١٢٢٦ م ١٩٥
- ١٥ - المدرسة اليوسفية : قبل ٦٥٤ هـ - ١٢٥٦ م ١٩٥
- المبحث السادس : مدارس أزيل ١٩٦
- ١ - مدرسة القلعة ٥٣٣ هـ - ١١٣٩ م ١٩٦
- ٢ - المدرسة العقيلية : قبل سنة ٥٦٧ هـ - ١١٧٢ م ١٩٧
- ٣ - المدرسة المجاهدية : قبل سنة ٥٧١ هـ - ١١٧٥ م ١٩٩
- ٤ - المدرسة المظفرية : قبل سنة ٦٠٨ هـ - ١٢١١ م ٢٠٠
- ٥ - المدرسة الفقيرة : قبل سنة ٦١٨ هـ - ١٢٢١ م ٢٠١
- المبحث السابع : مدارس أخرى ٢٠٣
- ١ - المدرسة المجاهدية : (بيشجار) في حدود سنة ٥٩٤ هـ - ١١٩٧ م ٢٠٣
- ٢ - المدرسة النمامية بكنكرت : قبل سنة ٥٧٨ هـ - ١١٨٢ م .. ٢٠٣
- المصادر والمراجع ٢٠٥

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا وإمامنا وقودتنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه أجمعين ، وبعد :
فهذا كتاب نافع إن شاء الله ، وأعوذ بالله من علم لا ينفع ، تناولت فيه بإيجاز غير مخل الملامح العامة لنظام التربية والتعليم في العراق حتى نهاية العصر العباسي ، جعلته في أربعة فصول :

• تناول الفصل الأول « أسس الفكر التربوي » عند العرب المسلمين ، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في ثلاثة مباحث :

أولها « بناء الإنسان الجديد » بعد أن هيا الله تعالى الأمة العربية المسلمة لمهمة حمل الرسالة الإسلامية الخالدة وتبليغها للعالمين ما بين مشرق للشمس ومغيب ، وذلك بتربية الإنسان منذ ولادته إلى حين وفاته ورعايته طفلاً وشاباً وكهلاً وشيخاً ، ووضع القواعد المؤدية إلى هذا الهدف العظيم ليكون عنصراً قادراً على تحمل الأمانة وأداء الرسالة ، بانثيا كل ذلك على ترابط عضوي بين العلم والعمل ، مرسخاً جملة من المبادئ التربوية المؤدية إلى خلق مواطن مؤمن تقي مستقيم صادق صبور رحيم متسامح بار يأمر بالعدل والإحسان ويسعى إلى إحقاق الحق وإشاعة المعروف وإماتة المنكر .

أما المبحث الثاني فتناول فضل العلم ومنزلة العلماء في الإسلام ، وما يحتله العلماء من المنزلة الرفيعة والتقدير والاحترام بما لا نجده في أمة أخرى ، فقد أكد القرآن الكريم في مئات الآيات على ذلك ، وخصصت كتب الحديث أبواباً خاصة في فضل العلم والتعليم ، فضلاً عما شهده التاريخ من تقدير منقطع النظر للعلماء ووضعهم في منزلة كان الملوك وأرباب السلطان يتمنون التطاول

إليها ، فحللت مئات الكتب تراجمهم وسيرهم على مدى التاريخ من غير نظر إلى أصلهم النُسبي أو مركزهم المالي أو سلطانهم السياسي .

وعُني المبحث الثالث من هذا الفصل بتطور حركة التربية والتعليم في العراق بعد أن حُزّره الإسلام من طغيان الفرس المجوس على عهد أمير المؤمنين عمر الفاروق « رضي الله عنه » في معارك الإسلام الخالدة : القادسية وجلولاء وبهاوند ، وتمصير البصرة والكوفة اللتين سرعان ما أصبحتا قاعدتين عظيمتين من قواعد الحركة الفكرية في علوم الإسلام من عناية بعلوم القرآن والسنة والفقه والعربية والشعر ، ثم جاء إنشاء بغداد في عصر أبي جعفر المصور واتساع عمرانها وازدهار الحركة الفكرية فيها حينما صارت عاصمة الدنيا العربية الإسلامية خمس مئتين من السنين ويريد احتلت الريادة والسيادة العلمية فيها .

وعُنت في الفصل الثاني بدراسة سبل « تربية الأطفال وتعليمهم » ، فجاء هذا الفصل في ثلاثة مباحث ، تناول الأول منها تربية الأطفال وعناية المسلمين بغرس المثل العليا والقيم الأصيلة فيهم وتفننهم في ذلك وإبداعهم فيه ، وعانيتهم بتأليف الكتب الباحثة في أصول التربية السليمة القويمة التي تتفق في كثير من أسسها مع أحدث النظريات التربوية الحديثة كما يظهر في كتابات عدد من علماء العراق أمثال الجاحظ والحطيب البغدادي وأبي حامد الغزالي .

أما المبحث الثاني فُعني بتعليم الأطفال في الكتاتيب ، وانتشارها في العراق انتشاراً واسعاً ، وتناول أحوال العاملين في هذه المؤسسة من مُعلمين ومُساعدين ، وما يتعين توفره في المعلم من شروط ، فضلاً عما تناوله من دراسة لطبيعة الكتاتيب من حيث إقامتها والإنفاق عليها ، وما يتعلمه الطفل فيها . كما تناول المبحث أحوال « المؤدبين » الذين يَعْلَمُونَ أولاد الحنفاء والأمراء والنباتات

وكيف كان يتم اختيارهم من بين العلماء الباهيين .

وتُخصّص المبحث الثالث لتعليم البنات وانتشاره ، والرد على من زعم أنّ البنات لم تلتحق بالكتاب صبية ولم تجلس في حلقة الرجال شابة ، وكان الغالب أن تتعلم في المنزل عن طريق أحد أقاربها أو بمؤدب يُدعى لها ، فبينما فساد هذا القول وأنه لم يَقم على استقرار تام للنصوص وتتبع لطبيعة الحركة الفكرية العربية الإسلامية ، وأثبتنا بالأدلة ما يدحضه ويبين أن المرأة قد نالت من التعليم قسطًا غير قليل إذا ما قيسَت بظظراتها عند الأمم الأخرى ، بظهور مئآت العالَمات في شتى صنوف العلم .

• وتناول الفصل الثالث المؤسسات التعليمية ، واقتضت طبيعته أن يكون في تمهيد وخمسة مباحث :

أشرنا في التمهيد إلى أن الأصل في الحركة التعليمية في العصور الإسلامية عامة والعراق خاصة هو الأستاذ والكتاب .

وعني المبحث الأول بدراسة التعليم في الجوامع والمساجد التي قامت بوظيفتها كمؤسسات تعليمية منذ نشوئها إلى جانب وظيفتها الأساسية كأماكن للعبادة ، واختصاصها بالدراسات الدينية وما يتصل بها من علوم العربية . وتناول طبيعة الدراسة في المساجد الجامعة وطريقتها واحتوائها على « الحلقات » العلمية . أما المساجد فكانت تحتص عادة في علم واحد من العلوم الدينية أو ما يتصل بها ، فكان بعضها يختص بعلوم القرآن أو رواية الحديث أو اللغة ، أو تدريس الفقه على مذهب معين وهي السمة الغالبة عليها ، حيث كان لكل مذهب فقهي مدرس خاص في مسجد معين . وعني هذا المبحث بتتبع طبيعة التعليم في المساجد والمدة التي يستغرقها الطالب في الدراسة والعمر

الذي يلتحق فيه ، والمادة التي يُعني بدراستها ، وخلصتُ إلى أنَّ الدراسة الفقهية المسجدية تعدل في عصرنا الدراسة الجامعية الأولية (البكالوريوس) . أما المبحث الثاني فتناول أماكن دراسة العلوم الصرفة ، بيّنت فيه خطأ من ذهب إلى أن بيوت الحكمة ودور العلم وأسواق الوراقين كانت معاهد لتدريس هذه العلوم ، وتوصلت إلى أن الأستاذ والكتاب هما أداة العلم في هذه العلوم في تلك الأعصر .

وعني المبحث الثالث بظهور المدارس المستقلة ومحاولة معرفة الأسباب التي أدت إلى قيامها بعد أن اردهر التعليم مدة تزيد على أربعة قرون من غيرها ، وبيّنت أن السبب الرئيس في ذلك هو محاولة السلطة كسب العلماء وإزالة الجفاء المستديم بينهما ، فضلاً عن الأهداف السامية في البر .

وتناول المبحث الرابع خصائص المدارس ونظمها ، فبيّنت أن اسم « مدرسة » غالباً ما كان يعني مدرسة لتدريس الفقه ، وأن كل مدرسة كانت تحتوي على إيوان (قاعة محاضرات) لمدارس الفقه في المدرسة الأحادية أو عدة أروابن على حسب عدد المذاهب التي تدرس فيها ، وغالباً ما تلحق بها خزانة كتب ، وأن الذي يُنشئ المدرسة خليفة أو أمير أو أحد المياسير ويوقف عليها الوقوف الدارة القادرة على إدامتها ، ومن ثم فهو الذي يعين المدرسين والموظفين ويعزلهم .

وعُني المبحث الأخير بدراسة أهمية المدارس ودورها في الحركة الفكرية إيجاباً وسلباً .

• وكان الفصل الرابع من هذه الدراسة أطول الفصول حينما تناول مدارس العراق في العصر العباسي ، وجاء في سبعة مباحث تناول كل مبحث

مها المدارس في مدينة من مدنه الرئيسة ، وفي مقدمتها بغداد عاصمة الدنيا العربية الإسلامية ، ثم البصرة ، والكوفة ، وواسط ، والموصل ، وأربيل ، ومدارس أخرى . وقد غُنيت باستقصاء جميع مدارس العراق على وجه الاختصار استنادًا إلى تسلسلها الزمني في كل مدينة منها ، فذكرنا لبغداد (٣٥) مدرسة ، وللبصرة (٦) مدارس ، ولواسط (٧) مدارس ، وللموصل (١٥) مدرسة ، ولأربيل (٥) مدارس ، ومدرستين إحداهما بسنجار والأخرى بتكريت . أما الكوفة فعلى الرغم من وجود حركة فكرية شطة فيها ، لكننا لم نقف على مدرسة فيها .

ولا يسعني في ختام هذه المقدمة الوجيزة إلا أن أتقدم بالشكر والتقدير للجامعة الأردنية ورئيسها ، ولعمادة البحث العلمي وعميدها الذين هياؤا الأجواء العلمية لإنجاز هذا البحث ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المؤلف

الفصل الأول

أُسُسُ الْفِكْرِ التَّربَوِيِّ

المبحث الأول

بناء الإنسان الجديد

غني العرب قبل الإسلام ببناء الإنسان وتشعبته النشأة التي تنمق وقيمهم السامية ونخوتهم العربية التي تأصلت فيها طبائع الخير على مدى التاريخ ، ولهم فيما أثر من آدابهم وما خفلت به شواهد التاريخ أمثلة رائعة لا تحصى على كل دارس ومتتبع لتاريخهم وبيئتهم ، ومبنى ذلك على أخلاقهم « وهي العرائز المخلوقة في النفس وغرائزهم أطوع للخير من غيرهم فهم أقرب للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء وغير ذلك من الأخلاق المحمودة » (١) .

ولكن الظروف التي مرت بعرب ما قبل الإسلام جعلتهم يتعدون عن فطرتهم الحيرة التي فطرهم الله عليها فدخلتهم بعض العادات والتقاليد مما لم يكن يتلاءم وطبيعتهم فجاء الإسلام ليزيل تلك الزيون عن قلوبهم . على أن الذي لا ينبغي أن يشك فيه مسلم أن الله الحكيم ما أحتار خاتم رسله من العرب إلا لأنهم كانوا أبعد أهل الأرض عن الفساد التام والانحلال التام الذي عم المجتمع الإنساني آنذاك ، فلقد كن العرب مع ما تداخلهم من جنس شرك وثنية قبل الإسلام أحفظ أهل الأرض لصفات الرجولة لما اقتضته حياتهم من الوضوح والصراحة والبعد عن الالتواء والعقد العسية .

ولما بعث الله سبحانه محمداً ﷺ بالهدى وحمل العرب مسؤولية نشر الرسالة وخصهم بتلك الفضيلة العظمى دون سائر خلقه تلقوا عنه ذلك الهدى العظيم واستنارت به نفوسهم وأحدوه بفطرتهم الجيدة إذ « كانوا قبل الإسلام

(١) ابن تيمية اقتضاء الصراط المستقيم ١٦٠ .

طبيعةً قابلةً للخير معطلة عن فعله»^(١) ، يقول شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية : « واجتمع لهم الكمال بالقوة المحنوقة فيهم والكمال الذي أركله الله إليهم بمسرة أرض جديدة في نفسها لكن هي معطلة عن الخبز أو قد نبت فيها شجر القضاة والعوسج وصارت مأوى الخنازير والسباع ، فإذا طهرت عن المؤذي من الشجر والدواب وازدرع فيها أفضل الخبثوب والثمار جاء فيها من الخبز ما لا يوصف مثله فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل خلق الله بعد الأنبياء»^(٢) وهم صفوة العرب آنذاك .

وقد غني الإسلام بمثل العرب الأصيلة وقيمهم النبيلة فأدخلها في إطاره الجديد ، فهو لم يتسح كل ما كان عند العرب قبل الإسلام بل إن سكوت النبي ﷺ عن إنكار قول أو فعل يدل على جواز الفعل وإباحته ، لأنه ﷺ لا يسكت عن باطل أبداً . وقد أقر رسول الله ﷺ كثيراً من الحسن النافع من عادات العرب وأخلاقهم وعذّل البعض الآخر منها وصقله وهذبه ، ثم جاء الإسلام بمبادئ جديدة في بناء الشخصية الجديدة ، وبذلك راعى الإسلام كثيراً من عادات العرب وتقاليدهم ، وعمل الإسلام على ترسيخ المبادئ التي تؤدي إلى بناء الإنسان الجديد بما يؤهله لحمل العبء الثقيل الملقى على عاتقه والرؤساء الخطيرة التي حملها الله سبحانه للأمة العربية دون غيرها .

وكان من أول ما قصده إبادة الشرك وانقضاء عليه وترسيخ التوحيد المطلق والإيمان بالله ورؤسله وكتبه واليوم الآخر ، وهو امتداداً لما جاء به الأنبياء من قبل ، وعودةً إلى الطريق القويم ، قال تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ ،

(١) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ١٦٠

(٢) المصدر نفسه ١٦١ - ١٦٢ .

نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْنَا ﴿[النورى . ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنْهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الانباء : ٢٥٠] ، فالله سبحانه وتعالى بعث نبيه محمداً ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق التي جاء بها الأنبياء قبله ، وأن هذا الدين إنما جاء لهداية الإنسان وإسعاده ، وهو مصدرٌ حير ودعوةٌ للصلاح والتأحي بما يقوي أصرة التعاون والتضامن في المجتمع الإنساني ويعبد الإنسانية إلى تكويها الفطري الأول لرعاية بعضها رِجَمَ بعض ، قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء . ١] .

ثم عُيِي الإسلام بتربية الإنسان منذ ولادته إلى حين وفاته ، ورعاه طفلاً وشاباً وكهلاً وشيخاً ، ووضع القواعد لتربيته وتنشئته وتوجيهه نحو الخير ، ليكون عنصراً نافعا في الحياة ؛ لأنه غده سيد العالم وأشرف المخلوقات وأفضلها ، فثني بعقله ومعرفته ونهديه .

والعقل هو أساس التفكير وعماد الحياة والركيزة التي يُبْنَى بها الإنسان القويم ، يقول ابن قيم الجوزية يرحمه الله : « وضع الله سبحانه في العقول والفطر استحيان الصدق والعدل والإحسان والبر والعفة والشجاعة ومكارم الأخلاق وأداء الأمانات وصلة الأرحام ونصيحة الخلق والوفاء بالعهد وحفظ الجوار وبصر المظلوم والإعانة على نوائب الحق وقرى الضيف وحمل الكل ونحو ذلك ، ووضع في العقول والفطر استقباح أصداد ذلك »^(١) .

(١) ابن قيم الجوزية : إعانة اللهناء ٢ / ١٣٨ (دار السعرة ط ٢ ، بيروت ١٩٧٥ م)

وقدّر الإسلام العقل وأعلى منزلته وجعله من صفات المؤمنين ، وسلبه عن الكفار إذ لم يكونوا من أهل البصيرة والإيمان ، قال تعالى في حق الكفار ﴿ صُمُّ بَكْمٌ عُصِيَّ فُهُم لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٠] .

وقد جاء ذكر العقل ومشتقاته في القرآن في نحو من خمسين آية دعا فيها الله سبحانه إلى التأمل والتفكير والتدبر وشحذ الذهن لمعرفة الحقائق وذم أولئك الذين لا يفكرون ولا يعقلون في العديد منها .

ورسّخ الإسلام جملةً من المبادئ التربوية المؤدية إلى خلق مواطن مؤمن تقي مستقيم صادق صبور رحيم متسامح بار ، يأمر بالعدل والإحسان ، ويسعى إلى إحقاق الحق وإشاعة المعروف وإماتة المنكر ليقوم بدوره المطلوب في هذه الحياة على وفق الأسس الأخلاقية العربية الإسلامية المشيئة على صروح من الإيمان بالتعاون وتقديس الحرية والأخذ بمبدأ المساواة في الحقوق والواجبات ، وبني كل ذلك على ترابط عضوي بين العلم والعقل .

فقد دعا الإسلام الناس كافة إلى إصلاح نفوسهم بتقوى الله من أجل صلاح حالهم في الدنيا والآخرة ، فكرر القرآن الكريم لفظة التقوى ومشتقاتها في (٢٤٢) موضعاً ، وقرن بالتقوى كثيراً من الأمور الأخلاقية كالاستقامة والصدق والعدل والعفو والبر والوفاء ، ودعاهم إلى الاستقامة في الحياة وإصلاح النفس والسمو بها على الرذائل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَتَرَلَّ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ بِالْحَقِّ أَلَيْسَ كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [صافات : ٣٠] .

ولما كان الصدق في القول والعمل وتحبب الكذب من أسمى الصفات التي يبغى على الإنسان التحلي بها فقد كرّر القرآن الكريم الصدق ومشتقاته في

عشرات الآيات ، قال تعالى ﴿ لِيَحْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٢٤] وفي الحديث الصحيح : قال رسول الله ﷺ « إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَصْدُقَ حَتَّى يَكُونَ صَدِيقًا ، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَأَنَّ الرَّجُلَ لِيَكْذِبَ حَتَّى يَكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا » (١) .

أما الصُّبْر فهو من أهم الفضائل التي تشد من عزم الإنسان للوقوف أمام الشدائد والمصائب ، ويقوي النفس الإنسانية على احتمال ما يحتمله الإنسان من أجل مبادئه وقيمه ، قال تعالى ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [النمل : ١٧٠] وقال سبحانه ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاضِعُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

والرحمة من الصفات التي كرسها الإسلام في الإنسان المؤمن الجديد فتكررت في القرآن مئات المرات ووصف الله سبحانه نفسه بأنه الرحمن الرحيم ، وقال تعالى : ﴿ تَحْمَدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] وفي الحديث الشريف : « الراحمون يرحمهم الرحمن أرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » (٢) .

وطالب الدين الجديد المسلم أن يكون متسامحاً صفوحاً ، قال تعالى ﴿ وَأَنْ تَقُومُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [البقرة : ٢٣٧] . وظهر أثر هذا البناء التربوي وتأكدت مصداقيته في تساهل العرب المسلمين مع أصحاب الديانات الأخرى

(١) أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود (٦٠٩٤) واللفظه ، ومسلم (٢٦٠٧) (١٠٤)

(٢) حديث صحيح ، أخرجه أحمد ١٦٠ / ٢ ، والحميدي (٥٩١) و (٥٩٢) ، وابن أبي شيبة ٥٢٦ / ٨ ، وأبو داود (٤٩٤١) ، والترمذي (١٩٢٤) وقال : حسن صحيح

حين لم يكرهوا أي فرد أو جماعة على الدخول في دينهم في جميع عصور الإسلام قال تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، وقد نزلت هذه الآية في قوم من الأنصار - أو في رجل منهم - كان لهم أولاد هودوهم أو نصرورهم فلما جاء الله بالإسلام أرادوا إكراههم عليه ، فهاهم الله عن ذلك حتى يكونوا هم يختارون الدخول في الإسلام ، ثم صار هذا الحكم عامًا في كل ما جانس المعنى الذي أنزلت فيه (١) .

وحث الإسلام على أعمال البر ودعا إلى التعاون عليها للقضاء على الفوارق الطبقية في المجتمع ؛ مثل نشر التعليم ، وإيفاق الأموال لمساعدة المحتاجين ، ومعالجة المرضى ، والجهاد في سبيل الله . وعدّ من أعمال البر كل المساعدات التي يقوم بها الإنسان تجاه أخيه الإنسان ، وأن يكون الإيفاق من أعرز الأموال التي يمتلكها المرء ، قال تعالى ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا يُحِبُّونَ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

كما حثّ على إشاعة العدل وعده من أهدافه الكبرى التي حض على تحقيقها في المجتمع الجديد ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل : ٩٠] وقال : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاكُنْ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة : ٨] ، ودعا إلى إمامة الظلم ، ففي الحديث الصحيح الذي رواه أبو ذر الغفاري عن الرسول ﷺ عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » (٢) وفي الحديث الذي رواه جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا الظلم فإن الظلم

(١) تفسير الطبري من كتابه جامع البيان ٢ / ١٣٢ - ١٣٤ .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) .

ظلمات يوم القيامة»^(١) وقال ﷺ «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلَمُه ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربةً فرّج الله عنه بها كربةً من كُرْب يوم القيامة ، ومن سترَ مسلماً ستره الله يوم القيامة»^(٢) .

إنَّ المثل الأخلاقية الراقية التي دعا الإسلام إليها كثيرة فلما ترك شيئاً منها ، وقد هدف من كل ذلك إلى تربية جيل قوي متماسك خَيْر يُصبح مثلاً يُقتَدَى به على تعاقب الأزمان ومختلف البيئات من أجل بناء مجتمع سليم متلاحم يقوم على التعاون يشدُّ بعضه بعضاً ، ففي الحديث الصحيح «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(٣) و «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالشَّهْرِ وَالْحُمَى»^(٤) . وجعل الإسلام المودة بين أفراد المجتمع من الإيمان ، ففي الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يَوْمُنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »^(٥) .

ومن المعلوم الواضح عند كل ذي بصيرة أنَّ التربية السليمة الصحيحة لا تحصل إلا بتركية النفس وتطهيرها من الأدناس الطبيعية والأخلاق البهيمية وذلك منحصر في أمرين لا ثالث لهما وهما : العلم النافع ، والعمل الصالح .

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٢) و (٦٩٥١) ، ومسلم (٢٥٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه البخاري (٤٨١) و (٢٤٤٦) و (٦٠٢٦) ، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى الأشعري .

(٤) أخرجه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦) من حديث العمام بن بشير

(٥) البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٤) .

وقد عَدَّ الإسلام العمل من الدين وفتح أبواب العمل لكل إنسان وطلب إليه أن يعمل لدُنياه ولآخِرته ، ولم يفرق بين العبادة وبين العمل الصالح الذي يقوم به ، بل قرنه بالإيمان السليم ، قال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : ١٠] وقال عز من قائل : ﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] . ولم يساو الإسلام بين العاملين والقاعدين بل فصل العاملين من الرجال والنساء ووعد من يعمل منهم بأن لهم أعلى الدرجات وأحسن الجزاء في الدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَصْنَعْ عَمَلًا عَمِلَ فِيكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] وقال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧] .

وحثَّ الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة على العمل ، ووضع القواعد الضابطة له ، ودعا إلى عدم الزهد في الدنيا أو التفریط فيها ، وطلب من المسلم السعي لكسب المال الصالح والتسابق في ذلك لما له من أهمية في بناء المجتمع الجديد القوي .

ومن أجل غرس هذه المبادئ العربية الإسلامية التي دعا الإسلام إلى تكريسها في عقول الناشئة اتجه المجتمع العربي الإسلامي نحو تهيئة السبل الكفيلة بتحقيق مجتمع يقوم على هذين المبدأين العظيمين : العمل الصالح والعلم النافع ، فكان من أول ما عُثِرَ به إشاعة العلم والتعليم وتطوير مؤسساته في العصور المتعاقبة ابتداء من عهد المعلم الأول رسول الله ﷺ الذي عزَّز هذا المبدأ وحضَّ عليه ودعا إليه بالقول والعمل .

المبحث الثاني

فَضْلُ الْعِلْمِ وَمَنْزِلَةُ الْعُلَمَاءِ

احتل العلم منزلة رفيعة في الإسلام وبال العلماء من المكانة والتقدير ما لم يبلغوه في أمة أخرى ، فقد أقسم الله تعالى بالقلم وما يسطرون ؛ لأن الإنسان بالقلم تعلم ما لم يعلم ، وقَرَنَ الله عز وجل أهل العلم به وبملائكته ، فقال
 عر من قائل : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَابِئًا بِالنَّفْسِ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

وذكر العلم والعلماء في مئات من الآيات ، فرفع الله الدين أوتوا العلم درجات :
 ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة ١١]
 وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩٠] ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [طه : ٢٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] ،
 وقوله سبحانه : ﴿ فَتَنَّاوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء ٧ والنحل ٤٣]
 وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ ءَانَتْ يَتْنٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت : ٤٩]
 وليس المقصود من العلم في هذه الآيات هو علم الدين فحسب بل هو كل علم نافع يرفع من قدر الإنسان وينمي عقله ويجعله أكثر خبرة بالحياة واطلاعا على أحوالها .

وخصصت كتب الحديث أبوابا خاصة في فضل العلم والتعلم أوردت فيها ما أثر عن رسول الله ﷺ في فضل العلم والعلماء ، ففي صحيح البخاري « أن العلم قبل القول والعمل لقوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد ١٩] فبدأ بالعلم ، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء ورثوا العلم ، مَنْ أَحَدَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ ، وَمَنْ

سلك طريقاً يطلب به علماً سهلاً الله له طريقاً إلى الجنة ... وقال النبي ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين »^(١) ثم ساق العديد من الأحاديث منها حديث معاوية رضي الله عنه : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين »^(٢) ، كما يؤب للاختياط في العلم والحكمة ، وساق فيه حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها »^(٣) .

والأحاديث النبوية الشريفة في فضل العلم والتعلم كثيرة . كما وردت آثار جلية عن عناية الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة والتابعين بالعلم والتعليم والحض على الدرس وتوجب العلم كل مسلم ومسلمة ، فقال الإمام علي رضي الله عنه : « العلم خير من المال ، لأن المال يحرسه والعلم يحرسك ، والمال تفنيه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، مات خزائن المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وآثارهم في القلوب موجودة »^(٤) .

وقد نال العالم في تاريخ العرب منزلة لم يلها كثير من الناس ، فرفع العلم قدره ووضعه في منزلة كان الملوك وأرباب السلطان يتمنون التطاول إليها ، فخلدت مئات الكتب التي ألفها المؤلفون سير العلماء وأخبارهم وتراجمهم

(١) البخاري ١ : ٢٦ - ٢٧ .

(٢) البخاري (٧١) .

(٣) البخاري (٧٣) .

(٤) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله : ٥٧ .

وأقوالهم من غير نظير إلى أصل اجتماعي أو مركز مالي أو سلطان سياسي .
ومن المعلوم أنَّ هذا التقدير الذي حظي به العلم والعلماء إنما جاء أولاً
بسبب علاقته المباشرة بالدين ، فالإسلام لا يترشح إلا بالتعليم ، ثم صار بعد
ذلك منهاجاً وشريعةً وأساساً في المجتمع العربي الإسلامي ، فانسحب على
العلوم غير الدينية والمعنيين بها .

• • •

المبحث الثالث

تطور حركة التربية والتعليم

حينما تحرر العرب المسلمون العراق من الاحتلال الفارسي المحوسي البغيض مَصْرَ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب البصرة والكوفة لتكونا قاعدتين للمقاتلة العرب وعيالاتهم ومركزين لإدارة الأقاليم ، وقد قام أهل البصرة والكوفة بدخول الجيوش الفارسية الكبرى ، وتصفية الحكم الساساني تصفية نهائية ، فاستقرت الدولة العربية وبدأت تُشود في هدين المصريين حياة السلم والاستقرار ، فغني أهلها بتوسيع قاعدة التعليم وازدادت عنايتهم بالحركة الفكرية المتصلة بعلوم العروبة والإسلام كدراسة القرآن الكريم ورواية الحديث ، واستبطاء الآراء الفقهية ، والعناية بالعربية وتعليمها .

وقد غني أهل الكوفة بالقرآن الكريم وكان عدد القراء بها في صدر الإسلام يزيد على أية مدينة أخرى ومنها مكة والمدينة . كما غني الكوفيون برواية حديث رسول الله ﷺ ودراسته ، ويذكر محمد بن سيرين أنه قديم الكوفة قبل الجماجم سنة (٨٢ هـ / ٧٠١ م) فرأى فيها أربعة آلاف يظلمون الحديث (١) . واجتهد الكوفيون بجمع الشعر وروايته فكانوا « أعلم بالشعر من أهل البصرة » (٢) . ويذكر أن « الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة » (٣) وبرز الكوفيون بدراساتهم الفقهية المتطورة التي حاولت إيجاد حلول لمشاكل

(١) الراهمري : المحدث الماصل ٦٥ .

(٢) ابن جني : الخصائص ١ / ٣٨٧ .

(٣) السيوطي : المرهر ٢ / ٢٥٤ .

المجتمع الجديد المتطور فبرز فيهم أعظم الفقهاء مثل : عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) ، وعلقمة بن قيس النخعي (ت ٦٢ هـ) ، وإبراهيم بن يزيد النخعي (ت ٩٦ هـ) ، وحماد بن أبي سليمان (ت ١٢٧ هـ) ، وأبو حنيفة (ت ١٥٠ هـ) ، وغيرهم ، وهو ما عُرف عند الفقهاء بعقبة العراق .

واشتهرت البصرة بعلمائها الفائقة بعلم العربية في لغتها وبحوها ، يقول النديم : « علم العربية عنهم أخذ »^(١) . وقد عَمَّ الأسلوب الذي اخترعه البصريون في نَقْط القرآن وأخذ العالم الإسلامي بأجمعه عنهم ، واشتهرت البصرة بظهور حركات الرُّهْد والاعتزال التي انتشرت منها إلى بقاع الأرض . وفي أوائل العصر العباسي أُسِّسَتْ بغداد ، واتسع عمرانها ، وأصبحت عاصمة الدولة العربية الإسلامية الكبرى الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً إلى حدود الصين شرقاً ، وتطورت فيها الحياة الحضريّة ، وازدهر اقتصادها ، فنمت الحركة الفكرية فيها نموّاً مضطرباً مما جعلها تحتل الريادة والسيادة في العلم أكثر من خمسة قرون .

وقد أسهم العرب في العراق في تطوير حركة التربية والتعليم إسهاماً رائعاً ، فكانوا رواداً في كثير من الأمور المتصلة بهذا الشأن ، وكانت المساجد والجوامع والأسواق وحزائن الكُتُب ودور العلم والمدارس في حواضر العراق تعج بطلبة العلم من أهلها والواردين عليها . وألف علماء العراق المؤلفات الباحثة في التربية والتعليم ، وبحثوا في الوسائل التعليمية وناقشوا الأسس التربوية الهادفة إلى ترسيخ القيم النبيلة وتربية الإنسان الجديد الذي دعا الإسلام إلى بنائه .

(١) النديم المعهرت ١ / ١٩١ (ط . العلامة أيمن مؤاد السيد) .

وسنحاول في بحثنا هذا تبيان المسالك التي سلكها العلماء العراقيون للوصول إلى هذه الأهداف ، فنتناول جهودهم في تربية الأطفال وتعليمهم والمبادئ التربوية والتعليمية الهادفة إلى تعليم جيد راسخ يحقق مع جودته الاقتصاد في الوقت والجهد ، ويُنْتَفَع به في مواقف الحياة المختلفة .

ثم نتناول المؤسسات التعليمية فيبحث في المؤسسات التي سبقت تأسيس المدارس سواء أكان منها ما غُني بالعلوم الإسلامية كالمساجد والجوامع وما إليها ، أم تلك المؤسسات التي ظلَّ البعض أنها غُنيت بالعلوم العامة مثل دور العلم وخزائن الكتب والمستشفيات ونحوها ، ثم نتبع نشأة المدارس والأسس التي قامت عليها والمناهج التي اتبعتها وما أصابها من تطور وتطرق إلى أحوال المدرسين والطلبة .

ولما كان الموضوع واسعاً متشعباً فإننا سنكتفي بإيراد الملامح العامة التي تظهر التطور الحضاري الذي شهده هذا المجال الحيوي من مجالات الحضارة الإنسانية .

• • •

الفصل الثاني

تربية الأطفال وتعليمهم

المبحث الأول

تربية الأطفال

عُنيَ العرب قبل الإسلام بأطفالهم عناية خاصة ، فكانوا يغرسون فيهم المثل العربية الأصيلة كالكرم والنحو والشجاعة والعروعة ومساعدة الضعيف . وكان أهل الحواضر يرسلون أطفالهم إلى البادية ليتلقوا هذه المبادئ من معينها الصافي ويتعلمون ، إضافة إلى ذلك ، الفصاحة ويمتلكون الجسم السليم الصحيح المُعافي بما توفره أجواء البادية من مناخ سليم .

وحينما حرر العرب العراق ومَضَروا الأمصار وعَمَّ القَطَر الأمن والاستقرار اعتنى المسلمون عناية بالغة بتربية أطفالهم التربية العربية الإسلامية الكفيلة بتحقيق المثل العليا والقيم الأصيلة ، وتفننوا في ذلك وأبدعوا فيه ، وألّفوا في عصور الازدهار الكتب الباحثة في أصول التربية السليمة القويمة التي تتفق في كثير من أسسها مع أحدث النظريات التربوية الحديثة كما يظهر ذلك في كتابات عدد من العلماء العراقيين أمثال الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) والخطيب البعدادي (ت ٤٦٣ هـ) والغزالي (ت ٥٠٥ هـ) وغيرهم .

وقد ضمن الغزالي كتابه القيم « إحياء علوم الدين » وكتبه النفيس « أيها الولد » الكثير من الآراء التربوية التي تمثل في حقيقتها صدًى لما كان شائعاً من أفكار تربوية في العراق في عصره والعصور السابقة فاستحقت لأجل ذلك أن نتبين مساراتها العامة .

يَرى الغزالي أنَّ الطفل أمانة عند والديه عليهما أن يسعيا إلى تنشئة النشأة الصحيحة ويطبعا بطابع المثل العليا ، لأنه في جوهره خلق قابلاً للحير والشر

جميعاً وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين فالخير إنما يكتسب بالتربية والشر كذلك يكتسب بالتربية فعلى الأبوين أن يُحسنوا تأديب ولديهما^(١). ولما كانت الأسرة هي الأساس في تربية الطفل فقد طالب الغزالي أن يكون الأبوان مثلاً يُقتدى في تصرفاتهما وأفعالهما، وكذلك كل من يربي، لما عُرف عن الطفل من ظاهرة التقليد والمحاكاة، يقول الغزالي: «فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قراء الحير وإخوان الصلاح إذ الطبع من الطبع يسرق الشر والخير جميعاً»^(٢).

وهو يعتقد أن التربية ضرورة فردية للإنسان مهما ارتقى، كما أنها ضرورة اجتماعية لا بد منها في تكوين المجتمع الإسلامي، ويورد في هذا المضمار قول الحسن البصري: «لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم» أي إنهم بالتعليم يُخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسية^(٣).

ويبين الغزالي حقوق كل فرد وواجباته المترتبة عليها ويسمّيها الآداب، فيرى ضرورة الأخذ بها في كل تصرف من التصرفات: في البيت، وفي المدرسة، وعلى مائدة الطعام، وفي المجالس، وعند الحديث، فيبين أن من واجب الوالد أن يفرس في نفس ولده حب الاعتدال في الاتفاق «فلا يعودده التمتع ولا يُحبِّب إليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عُمره في طلبها»^(٤)، وعلى الأب أن يعود ولده

(١) إحياء علوم الدين: ٣ / ٧٢ (ط - دار المعرفة، بيروت).

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ٥٢.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ١١.

(٤) المصدر نفسه: ٣ / ٧٢.

بين آوانة وأخرى على « الخشونة في المفرش والملبس والمطعم »^(١) بحدود مقبولة ومعقولة لتستبين للولد قيم الأشياء . ويرى ضرورة تعليم الطفل وتربيته على آداب المائدة فعليه أن : « لا يأخذ الطعام إلا يمينه ، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه ، وأن يأكل مما يليه ، وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره ، وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل ، وأن لا يسرع في الأكل ، وأن يجيد المصغ ، وأن لا يوالى بين اللقم ، ولا يلطخ يده ولا ثوبه ، وأن يعوّد الخبز القفار في بعض الأوقات ... ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم »^(٢) .

أما الآداب الاجتماعية في المجلس فيجدر بالطفل أن يتعودها كأن : « لا يصق في مجلسه ، ولا يمتخط ، ولا يتشاءب بحضرة غيره ، ولا يستدير غيره ، ولا يضع رجلا على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يعمد رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل ، ويُتَلَم كيفية الجلوس ، ويمنع كثرة الكلام ، وبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللئام ، ويمنع اليمين رأسا صادقا أو كاذبا حتى لا يعتاد ذلك في الصغر ، ويُمنع أن يبتدئ بالكلام ، ويعوّد لأن لا يتكلم إلا جوابا وبقدر السؤال ، وأن يُحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا ، وأن يقوم لمن فوقه ، ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ، ويمنع من لغو الكلام وفحشه »^(٣) . كما « ينبغي أن يُتَلَم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سنا من قريب أو أجنبي ، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم »^(٤) .

(١) إحياء علوم الدين : ٣ / ٧٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٣ / ٧٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٣ / ٧٣ .

(٤) المصدر نفسه : ٣ / ٧٣ .

لقد تناول الغزالي التربية من جوانبها المتعددة : جسمية وأسرية واجتماعية . وأكد في كل مناسبة أهمية البناء الأخلاقي ، لما للأخلاق من أثر في تكوين الشخصية السالحة ، وعلى والد الطفل أن ينتبه الانتباه كله فيراقب ولده من أول أمره « فإن الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوئه خرج في الأغلب رديء الأخلاق كذائباً حسوذاً سزوقاً نكافاً لحوجاً ذا فضول وضحك وكباد ومجانة » (١) .

ويبني للوالد أن يرسل ولده إلى أماكن التعليم ليتعلم : « القرآن وأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار وأحوالهم » مما يهذب نفسه ويصقلها ويؤهلها لتلقي العلم المتخصص مستقبلاً . وفي المدرسة ينبغي أن يُتَعلَّم بأن « لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على المعلم بل يلقي إليه زمامة الكُليّة في كل تفصيل ، ويدعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق » (٢) . ويتعين على الطفل أن يتعلم في مكان التعليم ، وهو يقضي الوقت الطويل بين زملائه الطلبة ، أسلوب التعايش معهم بما يعوّده الحياة الفضلى في المجتمع عند دخوله خضم الحياة فيحسن به أن لا « يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه أو بشيء من مطاعمه وملابسه أو لوجه أو ذواته بل يُعوّد التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً » (٣) .

لقد أدرك الغزالي معنى التربية على أنها : توجيه وإرشاد واصطفاء وانتقاء ، وأدرك أن الأسلوب غير المباشر في التربية ضروري في بادئ الأمر ، وإذا ما أخفق لجأ إلى التربية المباشرة ، فمن أمثلة الأسلوب غير المباشر أن يذم المرءي

(١) إحياء علوم الدين : ٣ / ٧٢ .

(٢) المصدر نفسه ١٠ / ٥٠ .

(٣) المصدر نفسه : ٣ / ٧٣ .

بين يدي الولد المراد تربيته : « الصبي الذي يُكثر الأكل ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل »^(١) كما قدمنا قبل قليل .

كما أكد الغزالي أهمية الرياضة بفروعها المختلفة من حركة ومشى ولعب وضرورتها في تربية الطفل ونشاطه العام ، فطالب بأن « يُعَوَّد في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل »^(٢) .

ويقول أيضًا : « ويتنبهى أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب ؛ فإن منع الصبي اللعب وإرهاقه إلى التعليم دائماً يميّت قلبه ويُظِل ذكائه »^(٣) .

وفي الوقت الذي نجد فيه المدرسة التقليدية في عصرنا تهدف إلى أن يكتسب الطفل قبضة من المعارف والمعلومات نجد الغزالي وبقية التربويين العرب في العصر العباسي قد ذهبوا إلى ما ذهبت إليه أحدث النظريات الحديثة فيرون ضرورة ارتباط العلم بالعمل ، ويرون أن السعادة لا تُنال إلا بالعلم والعمل . وقد أوضحنا فيما سبق أن التربية العربية الإسلامية إنما قامت على دعائمين رئيسيتين مترابطتين ترابطاً عضوياً هما : العلم النافع والعمل الصالح وأن عاية العلم النافع هو الوصول إلى العمل الصالح .

(١) إحياء علوم الدين : ٣ / ٧٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣ / ٧٣ .

(٣) المصدر نفسه .

المبحث الثامن

تعليم الأطفال

أما تعليم الأطفال فقد كان معروفاً على نطاق ضيق عند عرب ما قبل الإسلام ولا سيما في الحواضر العربية المشهورة مثل مكة ويثرب .
ومر بنا أن الإسلام والنظام السياسي الذي نشأ في أحضانه شجعا على طلب العلم الذي يعتمد على أدائه : القراءة والكتابة .

وترجم الرسول ﷺ أهمية إشاعة التعليم إلى واقع عملي حينما طَلَبَ من بعض مُشركي قُرَيْش ممن وقعوا في الأسر في موقعة بدر أن يفتدوا أنفسهم بتعليم القراءة والكتابة عدداً من أبناء المسلمين . وقد عُرف المكان الذي يتعلم فيه الأطفال باسم (الكُتَّاب) وجمعها (كُتَاتِيب) ، وهو مُشتق من التكتيب وتعليم الكتابة^(١) ، وهي المهمة التي اضطلع بها أصلاً . وتشير النصوص التاريخية إلى وجود الكُتَاتِيب على عهد رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين^(٢) . وانتشرت الكُتَاتِيب في العراق بعد تحرره انتشاراً واسعاً بحيث يشير الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) إلى انتشارها في القرى إضافة إلى المدن^(٣) .

ولم تكن الدولة تتدخل في إنشاء هذه الكُتَاتِيب أو الإشراف عليها ، بل كانت مؤسسات خاصة تعود إلى أصحابها وهم المعلمون ، فالرقابة متروكة لدين المعلم ووجدانه وتُخلقه ، لذلك كان الناس يتخيرون المعلمين أو

(١) تنظر لفظة « كُتَب » في لسان العرب .

(٢) تنظر لفظة « أبجد » في تاج العروس للسيد الزبيدي .

(٣) البيان والتبيين ١ / ٢٥١ .

الكتاتيب التي تحقق طموحاتهم في تعليم أولادهم وتربيتهم .

ويشير الجاحظ إلى اختلاف كبير في مستوى المعلمين لاسيما بين مُعلمي المدن ومُعلمي القرى . والظاهر أنَّ مُعلمي الكتاتيب العادية كانوا قليلي الثقافة ولاسيما أولئك الذين يعملون في القرى والأرياف ، قال الجاحظ : « ومن أمثال العامة : أحقق من معلم كتاب . وقد ذكرهم صقلاب ، فقال : وكيف يُرجى الرأي والعقل عند من يَروح على اثني ويغدو على طفل ، وفي قول بعض الحكماء : لا تستشيروا معلماً ولا راعي غَنَم ولا كثير القعود مع النساء ... والمعلمون عندي على ضَرَبَين : منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الحاضرة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الحاضرة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة ، فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل علي بن حمزة الكِسائي ومحمد بن المُستير الذي يقال له قُطْرُب وأشباه هؤلاء يقال لهم حَقِيق ؟ ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم ، فإن ذهبوا إلى مُعلمي كتاتيب القرى فإن لكل قوم حاشية ومِغْلَة فما هم في ذلك إلا كغيرهم ، وكيف نقول مثل ذلك في هؤلاء وفيهم الفقهاء والشُعراء والخطباء مثل الكُميت بن زيد وعبد الحميد الكاتب وقيس بن سعد وعطاء بن أبي رباح ، ومثل عبد الكريم بن أبي أمية وحُسين المُعَلَّم وأبي سعيد المُعَلَّم ... وما كان عندنا بالبصرة رجلاً أرَوى لصنوف العلم ولا أحسن بياناً من أبي الوزير وأبي عدنان المُعَلَّمين وحالهما من أول ما أذكر من أيام الصبا ^(١) .

ومهما يكن من أمر فإنَّ المعنيين بالتربية الإسلامية كانوا يرون أنَّ معلم الكتاب يكفيه قدر محدود من الثقافة العامة ، لكنهم شددوا على ضرورة معرفته

(١) البيان والتبيين ١ / ٢٤٨ - ٢٥٢ .

بطرق سياسة الأطفال وسر نفسياتهم ، وأن يكون دينًا ورعًا متزوجًا ، لأنهم لم يجيزوا للشبان المراهقين مزاوله هذه المهنة ، ورأوا أن المعلم الجيد ينبغي أن تتوفر فيه جملة شروط من أبرزها :

١- أن يقصد من عمله التربوي والتعليمي وجه الله تعالى فيعمل على إصلاح ناشئة المسلمين لا طمعًا في مال أو جاه .

٢- أن يكون مثلاً يُحتذى في قوة اليقين بالله وإقامة شعائر الدين ، والتخلق بمحاسن الأخلاق ، والاعتناء بنظافة جسمه وثيابه ، ويتشبه بأهل الفضل والدين من معلمي الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الفضلاء ، وبذلك يؤدب طلابه بسيرته وعمله قبل تأديهم بقوله وموعظته .

٣- أن يحب تلاميذه ، ويصونهم عن الأذى ما استطاع ، ويرحب بهم عند حضورهم ، ويسأل عنهم إذا غابوا عنه ، ويغفر لهم خطاياهم ، ويعذرهم على هفواتهم ، فإن أراد تنبيههم على دنوبهم أديهم أولاً بالتلميح ، فإن لم يتعظوا صرّح لهم ، فإن لم يفهم ذلك وبّحهم .

٤- وعليه مراعاة مستوى فهم طلابه فيخاطبهم على قدر فهمهم وإدراكهم ، فلا يعلم أحدًا ما لا يحتمله ذهنه أو سنه ، ويعرض طلابه على الاجتهاد ، ويطالبهم بإعادة محفوظاتهم ، فمن وجده حافظًا أثنى عليه ، ومن وجده مقصرًا عثمه ، وأن يطرح عليهم أسئلة يختبر بها أفهامهم ، ويأمرهم بالاعتدال في الدراسة إذا ما أسرفوا فيها وظهر ذلك على أجسامهم وفي وجوههم ، وإذا ما رأى من أحد ضجرًا أو نحوه أوصاه بالراحة والاستجمام^(١) .

(١) ينظر : إحياء علوم الدين ١ / ٤٧ فما بعد ، ورسالة الأدب في الدين للغزالي ٤٣ ، وتذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ، وتعليم المتعلم للزرنوجي ٢٢ وغيرها

وكان يعاون المعلم في مهمته شخص يدعى (نقيب) يكون عادة أقل مرتبة من المعلم اشترط فيه أن يكون فطناً كيثاً ذرياً يرتب الأطفال على أقدارهم ، ويبيته الغافل منهم ، ويأمرهم بحسن الاستماع والانتباه ، وغالباً ما يتولى معاونة المعلم في تلقين الأطفال وإعادة ما حفظوه .

وكانت الكتاتيب تتكون من بناء بسيطة غالباً ما تكون إلى جانب المساجد ونادراً ما تكون فيها لعدم تحرز الأطفال من الوساخنة والضوضاء ، وربما كانت في بيت المعلم في بعض الأحيان ، وهي لا تعدو في أغلب الأحيان حجرة أو حجرتين متواضعة الفُرْش والأثاث تتناسب مع عدد الأطفال^(١) .

يذهب الطفل إلى الكتاب عادة عند السنة الخامسة أو السادسة من عمره ويبقى فيه خمسة أعوام أو ستة على الأكثر . ويكون دوامه عادة من الصباح الباكر إلى وقت الظهر ثم يعود إلى بيته للعداء أو يتغذي في الكتاب ، ثم يبدأ دراسته ثانية بعد صلاة الظهر حتى العصر^(٢) .

وكان أولياء أمر الطلبة يتفقون مع المعلمين على الأجور ويشارطونهم على مقدارها أسبوعياً أو شهرياً أو مساهمة ، ولم تكن هذه الأجور مرتفعة بل كانت ضئيلة جداً مما جعل مستوى معلمي الكتاتيب المعاشي محققاً .

ويذكر أن ابن السكيت كان في مبدأ أمره يُعلم مع أبيه صبيان العامة ببغداد ، ففشل أن يحصل من ذلك على رزق مناسب مما دفعه إلى تعلم النحو^(٣) . ومع أن المدرسين المسلمين لم يقبلوا في الغالب أجراً على تدريسهم

(١) الشيزري : نهاية الرتبة ١٠٣ ، وابن عبد البر : جامع بياض العلم ٩٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٦ / ٣٩٨ .

(٣) الأهماني : التعليم في رأي القايي ١٧٧ .

لاسيما في المدة التي سبقت قيام المدارس ، كما سيأتي بيانه ، فإنَّ مُعلّمي الكُتّاب كانوا يمتحنون التعليم ويتعيشون منه بسبب قضائهم الوقت الطويل مع الأطفال وملازمتهم معظم الوقت مما لا يتيح لهم إيجاد مصدر آخر للرزق . وقد دفع هذا الأمر بعض المياسير إلى إقامة الكتاتيب المجانية التي توفر التعليم إلى غير القادرين من الأطفال ، ولاسيما الأيتام .

وكان من أبرز ما يتعلمه الطفل في الكتاب هو القرآن الكريم ، فكانت العناية به جد شديدة ، وكانوا يبدأون في إلقاء الطفل القرآن بهجملته قراءة درج ، ثم يعمدون إلى تحفيظه إياه كله أو ما تيسر منه . وقد يبدأ المعلم بإعراب بعض آياته وتفسير غريبه تفسيراً وجيزاً وطريقة ترتيبه وتجويده . كما يعلمهم مبادئ العلوم والآداب التي تعينهم على تفهم معاني كتاب الله . على أن المهمة الرئيسة للكتاب هي ، إضافة لما ذكرنا ، تعليم القراءة والكتابة . ويشير الجاحظ في رسالته عن المعلمين إلى ما ينبغي أن يتعلمه الطفل في الكتاب فيقول : « وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه وشعر إن أشدّه وشيء إن وصفه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ، ومذهل عما هو أرد عليه من رواية المثل والشاهد ، والخبر الصادق والمعنى البارع »^(١) ويشير الغزالي إلى ضرورة تعلم الطفل في المكتب : القرآن ، وأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار وأحوالهم ، ثم بعض الأحكام الدينية ، فالشعر على أن يحفظ الطفل من الأشعار التي ليس فيها ذكر العشق وأهله^(٢) .

(١) الجاحظ . رسالة في المعلمين (ضمن رسائل الجاحظ) ٣٣ (ط . العلمية) .

(٢) إحياء علوم الدين : ٣ / ٧٣ .

أما الخلفاء والأمراء والمياسير فكانوا يستقدمون المعلمين إلى قصورهم لتأديب أولادهم وتعليمهم وتهياتهم لما ينتظرهم من مهام جسيمة ، ويسمى من يقوم بذلك (المؤدّب) ، يقول الجاحظ : « وقد اشتق اسم المؤدّب من الأدب ... والأدب إما خلق وإما رواية ، وقد أطلقوا اسم المؤدّب على العموم »^(١) .

وكان المؤدّبون يُختارون من بين العلماء النابهين حسب قدرة ولي أمر الطفل ، لذلك نعم المؤدّبون بالغنى والرخاء إذ كانت تدفع لهم المبالغ الضخمة . وكان الأب يُشارك عادة في وضع المنهاج الذي يلائم ولده وما يتغنيه له من مستقبل ، لذلك كان ولي الأمر يوصي المؤدّب بما ينبغي أن يتلقاه الطفل . وقد حفظت لنا كتب الأدب كثيراً من هذه الوصايا التي تشير إلى المناهج التي اتبعت في تربية هؤلاء الأطفال وتعليمهم ، فمن ذلك وصية الرشيد لعلي بن المبارك الأحمر مؤدّب ولده الأمين وفيها يقول : « إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مُهجة نفسه وثمرة قلبه ، فصَيِّر يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن وعرفه الأخبار ، ورزّه الأشعار ، وعَلِّمه الشنن ، وبَصِّرْه بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضججك إلا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد ، إذا حضروا مجلسه ، ولا تَمُرَّنْ بك ساعة إلا وأنت محتسب فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تُثَمِّنْ في مُسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والمُلاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والعلظة »^(٢) .

(١) رسالة في المعلمين ٢٩ .

(٢) البيهقي : المحاسن والمساوي ٦١٧ .

ولقد انتشر التعليم في العراق انتشاراً عظيماً ولا سيما مبادئه الأولى من معرفة القراءة والكتابة ، فكان كل رب أسرة يُفنى بتعليم أولاده بنفسه ، أو يستقدم لهم المؤدّين ، أو يرسلهم إلى الكتّاب ، ولا أدل على ذلك من انتشار الكتاتيب في القرى والأرياف وكثرتها . ومع أنّ القرآن الكريم والسنة النبوية لم يصا على إلزامية التعليم لكن الإسلام دعا إليه وحضّ عليه . وناقش الفقهاء منذ زمن مبكر في حكم التعليم بصورة عامة هل هو مُباح أو واجب ، فإذا كان واجباً فمن هو المكلف به وما هو نوع التعليم الذي يجب أن يكلف به . على أنهم أجمعوا أنّ معرفة القرآن واجبة لضرورتها في الصلاة وأنّ الوالد مكلف بتعليم ابنه القرآن والصلاة ، فإذا لم يتيسر للوالد أن يعلم أبنائه بنفسه فعليه أن يرسلهم إلى الكتّاب لتلقي العلم بالأجر ، فتعليم الضروريات من الدين أمرٌ لا يختلف عليه اثنان . ومعلوم أنه لا يتوصل إلى تعليم تلك الضروريات الدينية إلا بتعلم مبادئ القراءة والكتابة في الأغلب ، وتعلم تلك المبادئ ودراسة القرآن يخرج المرء من الأمية ، فهذا هو الذي يفسر لنا سعة انتشار الكتاتيب ذلك الانتشار الكبير .

المبحث الثالث

تعليم البنات

ذكر المؤرخون بجمهرة صالحة من نساء العرب ممن عرفن القراءة والكتابة عند ظهور الإسلام ، منهن : عائشة بنت سعد بن أبي وقاص ، وأم كلثوم بنت عُقبة ، وهند بنت أبي سفيان ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب ، وكريمة بنت الحقداد ، والشفاء بنت عبد الله العدوية ، وغيرهن (١) .

وقد عني رسول الله ﷺ بتعليم النساء وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري : « قالت النساء للنبي ﷺ : عَلِّمْنَا عَلَيْكَ الرِّجَالَ فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِثْلَ يَوْمِ نَفْسِكَ ، فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ فَوَعَطَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ » (٢) .

وأشار القابسي في رسالته عن التعليم أن « من حُسن النَّظَرِ ألا يُخلط بين الذَّكَرَانِ وَالْإِنَاثِ ، وقد قال سَخْنُونُ : أكره أن يُعَلَّمَ الجَوَارِي (وهن البنات) وَيُخْلَطُنَّ مَعَ الْغُلَّامَانِ لِأَن ذلِكَ فساد لهن » (٣) ، فهذا النص يشير صراحة إلى تعلم البنات منذ زمن مبكر وأنهن كن يقصدن الكتاتيب في بعض الأحيان ، وإشارة سَخْنُونُ والقابسي إلى ضرورة الفصل بين البنات والبنين تشير إلى انتشار عناية المسلمين بتعليم البنات .

وقال الجاحظ : « وكان يقال : لا تعلموا بناتكم الكتاب ، ولا تروهن الشعر ،

(١) البلاذري : فتوح البلدان ٤٥٨ .

(٢) البخاري (١٠١) .

(٣) التعليم في رأي القابسي ٣١٤ .

وعلموه القرآن ، ومن القرآن سورة البقرة^(١) . وهذا النص على الرغم من سلبه الظاهرة فإنه يدعو إلى إزالة شيء موجود منتشر فضلاً عن أنه دعا إلى تعليم البت القرآن الكريم . وقال القاسبي : وأما تعليم الأنثى القرآن والعلم فهو حسن ومن مصالحها ، فأما أن تعلم الترمز والشعر وأشبهه فهو مخوف عليها^(٢) .

ولعل الخشية على البنات من فساد أخلاقهن ، ومن معلمي السوء ، هي التي جعلت كثيرًا من الناس يحجمون عن تعليم بناتهم مع الصبيان . والظاهر أنه كانت هناك كتابات خاصة بالبنات ، فضلاً عن أن الآباء وأولياء أمورهن كانوا يعنون بهن فيعلموهن في بيوتهم .

ويزعم الدكتور أحمد شلبي أن البنت لم تلتحق بالكتاب صبية ، ولم تجلس في حلقة الرجال شابة ، وكان الغالب أن تتعلم في المنزل عن طريق أحد أقاربها ، أو بمؤدب يدعى لها^(٣) . وأقل ما يقال عن هذا القول أنه حكم عجل لم يعم على استقراء للنصوص وتتبع لطبيعة الحركة الفكرية العربية الإسلامية ، فقد يينا قبل قليل أن الإمامين سحنون والقاسبي طالبا بفصل البنات عن البنين عند التعليم مما يدل على وجود ظاهرة حاولا علاجها . ثم إن الإسلام لم يمنع تعليم المرأة أو عدم حضورها الدروس حتى مع الرجال ، بل حض على تعليمها لمعرفة دينها وصلاح حياتها . وقد احتل النساء في كتب الرجال والتراجم حيزًا جيدًا قلما خلا منهن كتاب ، فقد خصص ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ) مجلدًا خاصًا للنساء من كتابه « الطبقات الكبرى » ، وخصصت الكتب المؤلفة في

(١) البيان والتبيين : ٢ / ١٨٠ .

(٢) التعليم في رأي القاسبي : ٢٩٢ .

(٣) التربية الإسلامية ٣٣٢ (ط ٧ ، ١٩٨٢) .

علماء بغداد وأعيانها قسمًا خاصًا بالنساء مثل تاريخ الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) والذيل عليه لابن السمعاني (ت ٥٦٢ هـ) والذيل على تاريخ ابن السمعاني لابن الدبيشي (ت ٦٣٧ هـ) و « التاريخ المجدد لمدينة السلام » لابن النجار البغدادي (ت ٦٤٣ هـ) وغيرها . وقد أشارت هذه الكتب إلى قراءة مئات النسوة على عدد كبير من العلماء ومتعيني الرواة مما لا نجد مجالاً للتفصيل فيه .

ويكفي لرد هذا الرأي الإشارة إلى عشرات من طباق السماعات التي دونها القلماء على الكتب التي درسوها وسجلوا فيها أسماء الدارسين وبينهم أسماء عدد كبير من النساء^(١) . فهذا دليل لا يقبل الشك يؤكد حضور النساء مجالس العلم مع الرجال لسماع الحديث والأدب والتاريخ وغيره .

ثم نجد لوحة رسمها الفنان العراقي يحيى الواسطي المتوفى سنة ٦٣٤ هـ موجودة في نسخة شيفر من مقامات الحريري المحفوظة بباريس تظهر إحدى النساء المسلمات في أواخر الدولة العباسية وكأنها تعظ الناس أو تلقي محاضرة على بعض الفقهاء والفقيهاة في أحد الجوامع في خلافة المستنصر بالله العباسي^(٢) . ويلاحظ بعد ذلك أن كتب التراجم أشارت إلى حضور عدد من النسوة مجالس الحديث ، وسماعهن على الشيوخ ، وعُيِّن عن تحملهن العلم بلفظة « حدثنا » ، وهي لفظة تدل على الحضور والمشافهة ، فمن ذلك مثلاً لا حصراً ما ذكره الخطيب ، قال : « خديجة أم محمد كانت تغشى أبا عبد الله أحمد بن

(١) تنظر مقدمتي تهذيب الكمال ، ولتاريخ مدينة السلام للخطيب .

(٢) نشرها أستاذنا العلامة الدكتور ناجي معروف يرحمه الله في آخر كتابه عن « علماء المستنصرية » .

حنبل وتسمع منه ، وحدثت عن يزيد بن هارون ، وإسحاق بن يوسف الأزرق ، وأبي النضر هاشم بن القاسم . روى عنها عبد الله بن أحمد بن حنبل ^(١) .

ثم روى الحطيب بسنده إلى عبد الله بن أحمد قال : « حدثني خديجة أم محمد سنة ست وعشرين وميتين وكانت تجيء إلى أبي تسمع منه ويُحدثها » ^(٢) .

فأين صلة القرابة بين هذه العائلة وبين من روت عنهم ؟ .

نعم ، لم يكن انتشار التعليم والعلم بين النساء كما هو انتشاره بين الرجال ، وهو أمر طبيعي في مجتمع ذلك الزمان ، لكننا لو قارنا نسبة المتعلمات في العراق حتى نهاية العصر العباسي بأية دولة من دول العالم آنذاك لما وجدنا بلداً بلغ ما بلغه العراق في تعليم المرأة ، وظهور مئات العالمات في شتى صوف العلم . ويكفي أن نذكر هنا طالبا قديماً من الإسكندرية للدراسة في بغداد ، هو وجيه الدين أبو المظفر مصور بن سليم الهمداني الإسكندراني المتوفى سنة (٦٧٣ هـ) فمكث فيها ست سنوات كرس خلالها على أكثر من عشرين عالمة بغدادية ذكر دراسته عليهن في كتابه الذي ذيل به على كتاب « إكمال الإكمال » لابن نُقطة البغدادي ^(٣) .



(١) تاريخ مدينة السلام : ١٦ / ٦٢٢ (بتحقيقنا) .

(٢) المصدر نفسه : ١٦ / ٦٢٣ .

(٣) طبع كتابه باسم « دليل تكملة الإكمال » بتحقيق الدكتور عبد القيوم عبد رب السبي ، ونشرته جامعة أم القرى بمكة المكرمة سنة ١٤١٩ هـ ، وكنت قد أفدت من نسخته الخطية في تحقيقي لكتاب « التكملة » للحافظ المنذري سنة ١٣٨٥ هـ ، وعلى النسخة التي جلبتها من القاهرة آنذاك كتب عنه حمي العلامة الدكتور ناجي معروف برحمه الله كتابه : عالمات بغداديات .

الفصل الثالث

المؤسسات التعليمية

تجهيد

مرت المؤسسات التعليمية في العراق بمرحلتين رئيسيتين ، أولاهما : المؤسسات التي سبقت المدارس ، وتمثلت المرحلة الثانية بتأسيس المدارس في منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) .

ويلاحظ أثر ذي أثر أن كثيراً من العلماء كانوا يستقبلون الطلبة في منازلهم ، ولديها من الأخبار ما يشير إلى أن بيت العالم كان من أكثر الأمكنة التي يعقد فيها العالم مجالسه العلمية ، حيث يشير عدد من أسانيد الروايات وطباق السماعيات إلى هذا الأمر سواء أكان ذلك قبل تأسيس المدارس أم بعدها ، فكان طالب العلم يتبع العالم أينما كان في البيت ، أو السوق أو في محل عمله ، أو في أي مكان يتواجد فيه . وهذا في رأينا هو أصل نظام التعليم في العراق وغيره ، وهو مبحث متشعب لكنه يوضح من غير شك كيف أن العديد من العلماء قد درس عليهم عشرات الطلبة وتخرجوا بهم ولم يدرسوا في أية مؤسسة تعليمية ، يظهر ذلك من الإحصائيات التي - كن إجراؤها على الأماكن التي تلقى فيها الطلبة علومهم ، وقد جربنا ذلك على بعض الكتب التي تناولت تواريخ العلماء حتى بعد قيام المدارس فكانت النتيجة مصداق هذا الرأي . ومع أن المؤرخين لم يذكروا دائماً الأماكن التي أخذ فيها الطالب علمه عن أستاذه لكن مئات النصوص تشير إلى ما ذهبنا إليه ، فقد كان محمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩ هـ) : « إذا حدثهم عن مالك امتلأ منزله وكثر الناس عليه حتى يضيق عليهم الموضع »^(١) ، وقال الخطيب في ترجمة محمد بن الحسين

(١) الخطيب : تاريخ مدينة السلام ٢ / ٥٦٢ .

الشياني العطار المعروف بقطيط (ت ٤٣٤ هـ) : « سمعتُ منه في دار أبي القاسم الأزهرى »^(١) ، وقال أيضًا : « أخبرنا أبو يَغْلَى محمد بن الحسن البصري في دار القاضي أبي القاسم التنوخي »^(٢) ، وقال : « كتبتُ عنه في سوق السَّقَط »^(٣) ، وروى بسنده إلى إسماعيل بن محمد الصَّفَّار ، قال : « أبانا محمد بن إدريس أبو بكر الشَّقراني شيخُ كتبتُ عنه في دُكَّان أبي العباس بن إسحاق »^(٤) وقال محمد بن بشار البصري المعروف ببُئْدار : « قد كتبتُ عني خمسة قُرُون وسألوني الحديث وأنا ابن ثمان عشرة فأستحييت أن أحدثهم في المدينة فأخرجتهم إلى البُستان وأطعمتهم الرُّطْب وحدثتهم »^(٥) وقال الخطيب في ترجمة محمد بن حمدان بن صالح الصَّبِي : « روى عنه أبو القاسم ابن التَّلاج عن الحسن بن عَزَفة حديثين مُنكرين وذكر أنه حدثه بهما من حفظه في بُستان حفص »^(٦) ، وقال أبو العباس أحمد بن محمد بن القاسم ابن مُحَرِّز : « سألت يحيى بن معين عن أبي بلال شيخ كان ببغداد كتبنا عنه في طريق باب الأنبار .. »^(٧) ، وأخرج الخطيب في ترجمة محمد بن إسماعيل البخاري أنَّ حاشد بن إسماعيل قال : « وكان أهل المعرفة من أهل البصرة

(١) تاريخ مدينة السلام : ٥٠ / ٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٦٢٩ / ٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٦٣٢ / ٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٤٢٢ / ٢ .

(٥) المصدر نفسه : ٤٥٩ / ٢ .

(٦) المصدر نفسه : ١٠٢ / ٣ - ١٠٣ .

(٧) سؤالات ابن مُحَرِّز (٢٥٢) ، وتاريخ الخطيب ٤٥٤ / ٢ .

يَقْدُون خلفه في طلب الحديث وهو شاب حتى يعلبوه على نفسه ويجلسونه في بعض الطريق فيجتمع عليه ألوف أكثرهم ممن يكتب عنه ، قال : وكان أبو عبد الله عند ذلك شاباً لم يخرج وجهه ^(١) . قال علي بن محمد بن سعيد الرزاز : « حدثنا أبو حنيفة محمد بن حنيفة بن ماهان القُصَبي إماماً في سنة سبع وتسعين ومئتين ببغداد في دُزب الدفح ^(٢) » وقال ابن الدُّبَيْثي في ترجمة أبي الفرج محمد بن عُمر بن مكي : « وفي المحرم سنة سبع عشرة وخمس مئة خرج الإمام المُشترشد بالله أبو منصور الفُضْل متوجهاً لحرب دُيس بن صدقة الأسدي فاستؤذن لأبي الفرج هذا في قراءة أحاديث الحسن بن عرفة عليه بسماعه من أبي القاسم بن بيان ، فأذن ، فقرأ عليه وهو سائر بقُرب المدائن ، وسمع بقراءته أبو الفتوح حمزة بن علي صاحب المَخْزَن وأبو علي بن المطلب وغيرهم من الخدم والحواشي ^(٣) » .

(١) الخطيب : تاريخ ٢ / ٣٣٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٣ / ١١٦ .

(٣) ابن الدبشي : ذيل تاريخ مدينة السلام ١ / ٤٦٠ - ٤٦١ (بتحقيقاً)

المبحث الأول

التعليم في الجوامع والمساجد

يطلق لفظ « المسجد » على المكان الذي تقام فيه الصلوات الخمس ، فإذا أُقيمت صلاة الجمعة في أحدها أطلق عليه « مسجد جامع » ، وربما قيل « الجامع » بحذف كلمة « مسجد » للتخفيف . وقد أقام المسلمون آلاف المساجد فكانت مدينة بغداد وحدها تضم في القرن الخامس الهجري ثلاثة آلاف مسجد تقريباً . أما « المساجد الجامعة » فكان من المفروض أن لا يكون في المدينة الواحدة أكثر من « مسجد جامع » واحد لأن من غاياتها الاجتماع واتفاق الكلمة واستظهار النفوس ، فلم يجز الفقهاء الأولون التعدد عند الزحام بل سعوا إلى التوسع دون التعدد . ولم يختلف الناس أن الجماعة لم تكن تُصلى في عهد النبي ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين إلا في مسجد واحد ، فحينما يقال : مسجد الكوفة أو مسجد البصرة أو نحو ذلك فإنما يراد به « المسجد الجامع » دون المساجد الأخرى .

وحينما أنشأ المنصور مدينة بغداد جعل مسجدها الجامع ملاصقاً لقصره المعروف بقصر الذهب ، وكانت مساحته أربعة آلاف ذراع مربع ، ثم جددّه الرشيد سنة ١٩٢ هـ - ١٩٣ هـ ، ووسع مُفلح التُّركي المصلي سنة ٢٦٠ هـ ، ثم أضاف إليه المعتضد سنة ٢٨٠ هـ قصر المنصور ، وراد بدر مولى المعتضد من قصر المنصور المُستَقَطات المعروفة بالبدرية في ذلك الوقت .

وكان المهدي قد بني في الجانب الشرقي جامع الرصافة سنة ١٥٩ هـ ، فكانت الجماعة تقام في بغداد في جامع المنصور الذي يُعرف بهجامع المدينة ، وجامع المهدي الذي يُعرف أيضاً بهجامع الرصافة ، واستمر ذلك إلى وقت خلافة المعتضد .

وقد جوز العلماء ذلك حينما عُدُّوا الجانين الغربي والشرقي مدينتين مستقلتين . إلا أنَّ توسع بغداد العمراني ، وازدحامها بالسكان ، وتنتقل الماطق المردحمة بالسكان ، جعل من الصعوبة الاستمرار في إقامة الجمعة في هذين الجامعين فقط . فلما أعاد المعتضد الخلافة إلى بغداد اتخذ مقامه في الجانب الشرقي وأمر بعمارة القصر المعروف بالحنيني على دجلة في سنة ٢٨٠ هـ ، وهو القصر الموسوم بدار الخلافة ، وأمر ببناء مطامير في القصر وجعلها محابس للأعداء ، وكان الناس يصلون الجمعة في الدار وليس هناك رسم لمسجد ، وإنما يؤذن للناس في الدخول وقت الصلاة ويخرجون عند انقضائها . فلما استخلف المكنفي في سنة ٢٨٩ هـ أمر بهدم المطامير التي كان المعتضد بناها وأمر أن يُجعل موضعها مسجد جامع في داره يصلي فيه الناس ، فعمل ذلك ، وصار الناس يَكْرُونَ إلى المسجد الجامع في الدار فلا يُمنعون من دخوله . وعرف هذا الجامع بجامع القصر . فاستقرت صلاة الجمعة ببغداد في المساجد الجامعة الثلاثة المذكورة إلى وقت حلافة المتقي الذي أقام صلاة الجمعة في جامع بَرَاثَا سنة ٣٢٩ هـ . كما وَشَّعَ أبو أحمد الموسوي سنة ٣٧٩ هـ مسجداً صغيراً بقطيعة أم جعفر المعروفة بالزُّبَيْدِيَّة التي كانت تقع شمالي المدينة المدورة وراء خَنْدَق طاهر ، واستأذن الطائع لله في أن يجعله مسجداً يُصَلِّي فيه في أيام الجمعات ، واحتج بأنه من وراء خندق يقطع بينه وبين البلد ، فيصير ذلك الموضع بَلَدًا آخر ، فَأَذِنَ في ذلك ، وأُقيمت فيه الجمعة . وبنى أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد العزيز الهاشمي مسجداً بالحرية في أيام المطيع لله ليكون جامعاً ، فمنع المطيع ذلك ، ثم وافق القادر سنة ٣٨٣ هـ على إقامة الجمعة فيه بعد أن استفتي الفقهاء ، قال الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ :

« فأدركت صلاة الجمعة وهي تقام ببغداد في مسجد المدينة ، ومسجد الرصافة ، ومسجد دار الخلافة ، ومسجد بَرَاثَا ، ومسجد قطيعة أم جعفر ... ومسجد الحزبية ، ولم تزل على هذا إلى أن خرجت من بغداد في سنة إحدى وخمسين وأربع مئة ، ثم تعطلت في مسجد بَرَاثَا فلم تكن تُصَلَّى فيه »^(١) .

وحينما زار ابنُ جُبَيْر بغداد في نهاية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وجد الجُمُعة تقام في أحد عشر جامعًا . وكانت الجمعة تقام في البصرة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) في ثلاثة مساجد جامعة .

قامت المساجد والجوامع بوظيفتها كمؤسسات تعليمية منذ نشوئها إلى جانب وظيفتها الأساسية كأماكن للعبادة ، فكان الرسول ﷺ وخلفاؤه يُعَلِّمون الناس في جامع المدينة أمور دينهم ودنياهم ، وكان تميم الدَّارِي يقص في هذا المسجد في عهد عمر بن الخطاب ويعظ الناس كل يوم جُمُعة ، فلما استحلف عثمان استأذنه أن يقوم في الناس مرتين ، فأذن له^(٢) .

ولما كانت المساجد هي بيوت الله التي يقصدها المسلمون للصلاة فإن كل مُسلم يستطيع الذهاب إليها من غير استئذان ويستفيد ممن يُعَلِّم فيها ، لذلك ازدهر التعليم فيها ازدهارًا عظيمًا .

وكان من الطبيعي أن تختص المساجد والمساجد الجامعة بالدراسات

(١) تاريخ مدينة السلام ١ / ٤٢٧ - ٤٣١ ، وخطط بغداد ، للسُر ، ترجمة أستاذنا الدكتور صالح العلي ١١١ - ١١٥ و ١٩٠ - ١٩٣ ، وراجع البحث الممتع الذي كتبه لسر عن الوحدات المدنية والجوامع ملحقًا بكتابه المذكور ٣٠١ - ٣١٠ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢ / ٤٤٧ - ٤٤٨ .

الدينية وما يتصل بها من علوم العربية ، لصلتها الوثيقة بالعبادة ، لذلك وجدنا هذه المؤسسات تحتص بالعاية بهذه العلوم فقط من علوم قرآن وحديث وفقه وعقائد ولغة ونحو وأدب وشعر .

وإذا كانت بعض العلوم الأخرى قد وجدت في هذه المؤسسات فهو أمر شاذ لا يقاس عليه ولا يحتد به .

لقد غني العرب المسلمون عند تخطيط مدنهم بجعل المسجد الجامع في وسط المدينة ليسهل على الناس الوصول إليه ، وقد أصبحت المساجد الجامعة في كل من البصرة والكوفة من أعظم مراكز الحركة الفكرية خلال القرن الأول والصف الأول من القرن الثاني الهجري حيث أُصِّلَتْ فيها علوم العرب والإسلام وشهدت نمو الحركة الفكرية وتطور العلوم العربية ، ومنها انتقلت إلى المدن الأخرى مثل واسط وبغداد وغيرهما .

وكانت أبرز الجوامع ببغداد ثلاثة ، أولها : جامع المنصور في الجانب الغربي ويُعرف بجامع المدينة (المدورة) ، وثانيهما : جامع المهدي ويُعرف أيضًا بجامع الرصافة ، وآخرها : جامع القُصْر ويُعرف بجامع الخليفة .

ونظرًا لسعة المساجد الجامعة وفحامتها فقد احتوت على حلقات علم متنوعة تُعقد في جهات مختلفة منها ، وتتخذ أسماءها إما من اسم شيخ الخَلْقة كأن يقال : خَلْقة ابن البناء (ت ٤٧١ هـ) وخَلْقة ابن زَيْبِيا (ت ٤٦٠ هـ) وخَلْقة الخطيب (ت ٤٦٣ هـ) وخَلْقة رزق الله التميمي (ت ٤٨٨ هـ) وخَلْقة نُور الُهدى الزينبي (ت ٥١٢ هـ) وخَلْقة الزاغوني (ت ٥٢٧ هـ) وهلم جرا ، وإما تأخذ اسمها من اسم العلم الغالب عليها كأن يقال : خَلْقة أهل الحديث ، و خَلْقة النحويين ونحو ذلك .

كانت منزلة صاحب الخلقة ومكانته تتحدد بسعة علمه وقدرته على إيصاله إلى الحاضرين ، فكانت الحلقات تتسع وتصيق استاذًا إلى تلك المنزلة ، وقُدرة صاحبها على اجتذاب الجمهور ، فكانت حلقات العلماء الكبار حافلة يحضرها مئات الناس يسما كان صاحب الخلقة الذي لا يتمتع بمنزلة مرموقة لا يحضر عنده إلا القليل ويتجنبه الطلبة ، قال أبو بكر البرقاني في أبي الفتح الأزدي المؤصلي (ت ٣٧٤ هـ) : « رأيت في جامع المدينة وأصحاب الحديث لا يرفعون به رأسا ويتجنبونه »^(١) .

غير أن حلقات المحدثين كانت أحفل من حلقات الفقهاء نظرًا لإقبال الناس على الحديث في تلك الأعصر وخيبتهم الاستكثار منه ، ولأنه لا يحتاج مثل الفقه إلى أسس معرفية سابقة ، فالفقه ذو صبغة تخصصية وكانت الخلقة إما تحتص بموضوع واحد أو تشتمل على عدة موضوعات فقد تكون خاصة بالقرآن^(٢) ، أو الفقه على مذهب معين^(٣) ، أو الحديث^(٤) ، أو المناظرة^(٥) ، أو علم جراً ، أو تتضمن الفتوى والمناظرة مجموعتين^(٦) ، أو الحديث والفتوى^(٧) ، أو الفتوى والوعظ والحديث

(١) الخطيب : تاريخ ٣ / ٣٧ .

(٢) الخطيب : تاريخ ١٦ / ١٠٧ .

(٣) ابن الجوزي : المتظم ٦ / ٣٩٠ ، وابن رجب : الدليل ١ / ٧٤ .

(٤) ابن الجوزي : المتظم ٦ / ٣٩٠ .

(٥) ابن رجب : الدليل ١ / ١٣٩ .

(٦) المصدر نفسه : ١ / ٣٩ .

(٧) المصدر نفسه : ١ / ٧٨ .

جميعاً^(١) ، واتخذ أبو عبد الله الخلسجي الصوفي « حلقة في جامع المدينة يتكلم في الرياضات وعيوب النفس وآفات الأعمال »^(٢) . كما كانت بعض الحلقات تخصص للعوام بحيث تتناسب ومداركهم وثقافتهم القليلة ، قال ابن عقيل : « كان من أصحاب القاضي أبي يعلى أرباب الحلقي : ابن البازكردي وابن زيبيا فقيهان مفتيان ولهما حلقتان بجامع الرصافة يقصان الفقه شرحاً للمذهب على وجه ينتفع به العوام »^(٣) .

ومن الممكن أن تكون للعالم الواحد أكثر من حلقة ، فقد كانت لأبي بكر أحمد بن سلمان النجاد (ت ٣٤٨ هـ) المحدث المشهور يوم الجمعة حلقتان قبل الصلاة وبعدها إحداهما للفتوى والأخرى لإملاء الحديث^(٤) ، وذكر ابن شافع أنه كانت للحسن بن أحمد ابن البناء البغدادي (ت ٤٧١ هـ) حلقتان : إحداهما بجامع المنصور وسط الرواق ، والأخرى بجامع القصر حيال المقصورة^(٥) .

وكانت لأبي الحسن الزاغوني (ت ٥٢٧ هـ) حلقة في جامع المنصور ينظر فيها قبل الصلاة ، ثم يعظ بعدها ، وكان يجلس يوم السبت عند قبر معروف ، وفي باب البصرة ، وبمسجد ابن الفاعوس^(٦) .

(١) ابن رجب : الذيل : ١ / ٣٣ .

(٢) الحطيب : تاريخ ١٦ / ٥٨٣ .

(٣) ابن رجب : الذيل ١ / ٧ .

(٤) ابن الجوزي : المتظم ٦ / ٣٩٠ .

(٥) ابن رجب : الذيل ١ / ٣٣ ، ١١٥ .

(٦) ابن الجوزي : المتظم ١٠ / ٣٠ .

وكان جامع المنصور يتميز من بين جوامع بغداد الأخرى في الميزة السامية التي يحتلها في نفوس العلماء وطلبة العلم ، فكان الخطيب يذكر أنه لما حجب شرب ماء زمزم ثلاث شربات وسأل الله عز وجل ثلاث حاجات كان منها أن يملي الحديث بجامع المنصور^(١) ، ودخل بعض الأكابر جامع دمشق أو صور ورأى حلقة عظيمة للخطيب والمجلس غاص يسمعون منه الحديث ، فصعد إلى جانبه وكأنه استكثر الجمع ، فقال له الخطيب : « القعود في جامع المنصور مع نفر يسير أحب إلي من هذا »^(٢) ، وقد استجاب الله سبحانه لسؤال الخطيب فكانت له حلقة عظيمة في جامع المنصور ، وكان أصحاب الحلقة في هذا الجامع من كبار المحدثين والفقهاء والنحويين والأدباء .

أما عدد الحلقات في هذا الجامع فكان كبيراً حيث يشير أبو الفضل الزجاج أنه كان بجامع المنصور حين قدوم الشافعي بغداد سنة ١٩٥ هـ إما يُتف وأربعون حلقة أو خمسون حلقة^(٣) ، وهو عدد كبير في هذا الزمن المبكر .

وتشير بعض النصوص إلى أن من يريد أن تكون له حلقة بجامع المنصور كان يتعين عليه استئذان الخليفة في ذلك ، وكان المسؤول عن ذلك هو نقيب النقباء ، فكان الخليفة يطلب منه ذلك ، فقد اتصل الخطيب البغدادي بالخليفة القائم وطلب الإذن بأن يملي الحديث بجامع المنصور « فتقدم الخليفة إلى نقيب النقباء بأن يؤذن له في ذلك »^(٤) وهو أمر يشير إلى ما كان يحتله هذا

(١) ياقوت : معجم الأدباء ١ / ٢٦٤ (ط . مرجليوث) .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ١ / ٢٥٤ .

(٣) الخطيب : تاريخ ٢ / ٤١٩ .

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ١ / ٢٤٧ .

الجامع من مكانة متميزة باعتباره من أعظم جوامع مدينة السلام . على أنه ليس لدينا من النصوص ما يشير إلى سريان هذا الأمر في بقية جوامع بغداد منذ عهد مبكر أو في جوامع البصرة والكوفة في الأعصر الأولى ، كما ليس لدينا ما يؤكد ضرورة الحصول على مثل هذا الإذن في الجوامع الأخرى .

وقد يخلف الابن أباه في خلقته إن كان الابن من العلماء ، فقد كانت للحسن بن أحمد بن عبد الله ابن البناء البغدادي خلقة بهجامع المصور وأخرى بهجامع القصر ، فلما توفي سنة ٤٧١ هـ خلفه فيها ولده أبو نصر محمد^(١) (ت ٥١٠ هـ) . غير أن من يكون صاحب خلقة ينبغي أن تكتمل علومه ويعرف بين الناس بالبراعة والإتقان والتميز ، ويبلغ من العمر سنا معقولة تؤهله لمثل هذا الأمر الخطير ، لذلك كانت كتب التراجم تشير إلى بعض الأذكياء الباهين الذين عقدوا المجالس في سن صغيرة من باب المدح والتعجب بقدراتهم الفائقة ، فكان يذكر مثلاً أن محمد بن الحسن الشيباني كان له مجلس في مسجد الكوفة وهو ابن عشرين سنة^(٢)

لقد كانت منزلة صاحب الخلقة تشبه إلى حد كبير مكانة أستاذ الكرسي في الجامعات الحديثة ، وكان لبعضهم بالفعل كراسي يجلسون عليها ، وكان من مظاهر إلقاء الحلقة رفع كرسي صاحب الخلقة من الجامع . أما المساجد ، وهي التي لا تقام فيها الجُمُوع وتكون صغيرة عادة ، فكانت تحتص في علم واحد من العلوم الدينية أو ما يتصل بها ، فكان بعضها يختص

(١) ابن رجب : الذيل ١ / ١١٥ .

(٢) الخطيب : تاريخ ٢ / ٥٦٤ .

بتعليم القرآن الكريم^(١) ، أو رواية الحديث^(٢) ، أو اللغة^(٣) ، أو تدريس الفقه على مذهب معين ، وهي كثيرة .

فقد كان لكل مذهب فقهي مدرس خاص في مسجد معين ، مثل مسجد أبي عبد الله الجرجاني الذي درس فيه أبو عبد الله الدامغاني ، ومسجد أبي بكر الحواري ، ومسجد الصيمري بدرب الراديين الذي درس فيه إلياس بن ناصر (ت ٤٦١ هـ) . ومنها مسجد عبد الله بن المبارك الذي كان في قطعة الربيع بالجانب الغربي من بغداد وهو الذي درس فيه أبو حامد الإسفراييني وتلميذه أبو الفتح الرازي ، ومسجد ابن اللبان بدرب الآجر عند نهر طابق بالجانب الغربي أيضًا ، ومسجد أبي الطيب الطبري ، ومسجد أبي إسحاق الشيرازي بباب المراتب من الجانب الشرقي ، ومسجد أبي بكر الشامي بقطعة أم الربيع بالجانب الغربي . ومنها أيضًا : مسجد ابن البقال بباب الطاق ، ومسجد القاضي أبي يعلى عند نهر معلى ، ومسجد ابن زينا في حريم دار الخلافة ، ومسجد أبي الفتح ابن المنى بالمأمونية وهذه الأخيرة كلها في الجانب الشرقي . أما في الجانب الغربي فقد اشتهر مسجد ابن القواس في باب البصرة^(٤) .

ويتبين مما تقدم أن كثيرًا من هذه المساجد كانت تعرف بأسماء المدرسين فيها . والحق أنني قلما وجدت عالمًا كثيرًا تعاني هذه العلوم من غير أن يكون

(١) ابن الجوزي : المتظم ٥ / ١٣١ ، وابن رجب : الدليل ١ / ٩٦ .

(٢) الخطيب : تاريخ ٣ / ٣٠ .

(٣) ياقوت : معجم الأدياء ٤ / ٢٣٤ .

(٤) ينظر عن مزيد من هذه المساجد المهرس الذي عملته للمجلد الأول من تاريخ مدينة السلام ص ٦١٢ - ٦١٤ ، ودبل تاريخ مدينة السلام لابن الديلمي ٥ / ٤٤٧ - ٤٤٨ .

له مسجد ، فكان هناك مسجد للكسائي^(١) ومسجد لدعلج^(٢) ، ومسجد لمحمد بن جرير الطبري^(٣) ، ومسجد للشريف أبي جعفر عبد الخالق بن عيسى الهاشمي^(٤) ، ومسجد للشريف الزيدي^(٥) ... الخ .

إذن كان المدرس يختص بمسجد يُدرس فيه ، وقد يكون هو الذي يشيده ، أو يكون مشيداً قبله فيعرف به . وربما كان المسجد قسماً منعزلاً عن داره ملاصقاً له ، فالمدرس في المسجد غالباً ما يسكن بدار مجاورة لمسجده ، ويتولى الإمامة فيه أيضاً .

وكان المدرس يستمر في التدريس بالمسجد مدى الحياة مادام قادراً على القيام بهذه المهمة ، فقد ذكر ابن الجوزي أن أبا الوفاء طاهر بن الحسين القواس (٣٩٠ - ٤٧٦ هـ) « لارم مسجده المعروف بباب البصرة لا يرح منه خمسين سنة »^(٦) .

وكان يخلف المدرس عادة أحد تلامذته النجب ممن لازمه مدة طويلة وتخرج به ، فكان أبو محمد عبد المنعم بن حمد " اجسراي الحنبلي المتوفى سنة ٦١٢ هـ ممن « تفقه بعداد ... على الفقيه أبي الفتح نصر بن فتيان ابن المني ... ودرس في مسجد شيخه أبي الفتح بعد وفاته »^(٧) ، وتولى شافع بن

(١) باقوت : معجم الأبناء ٤ / ٢٤٣ .

(٢) الحطيب : تاريخ ١٢ / ٢٣٧ .

(٣) المصدر نفسه : ٢ / ٥٥١ .

(٤) ابن رجب : الدليل ١ / ١٠٦ .

(٥) المنذري : التكملة ١ / الترجمة ٣٦ .

(٦) ابن الجوزي : المتظم ٩ / ٩ .

(٧) المنذري : التكملة ٢ / الترجمة ١٤٠٣ ، وتاريخ ابن النجار ، الورقة ٣٠ (ظاهرة) .

صالح بن حاتم الجيلي البغدادي (ت ٤٨٠ هـ) التدريس بمسجد شيخه أبي جعفر عبد الخالق بن عيسى الهاشمي (ت ٤٧٠ هـ) بدرب المطبح من شرقي بغداد^(١) : ثم تولى التدريس به بعد شافع تلميذ آخر من تلامذة الشريف أبي جعفر هو أبو الفتح محمد بن علي بن محمد الحلواني^(٢) المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ، ثم تولى التدريس به أولاد شافع « حتى عُرف المسجد بهم »^(٣) ، مما يدل على أن بعض الأبناء كانوا يتولون التدريس بمساجد آبائهم إذا كانوا من أهل العلم المؤهلين لذلك .

و كانت بعض المساجد تحوي مكتبات فخمة غالباً ما تتأتى من إيقاف صاحب المسجد كتبه عليه ، كما كان بعض العلماء يوقفون كتبهم في مثل هذه المساجد ، فقد أوقف الشريف أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد العلوي الزيدي المتوفى سنة ٥٧٥ هـ كتبه على مسجده الذي بناه بدرب دينار^(٤) ، وأوقف الشيخ الزاهد أبو الخير صبيح بن بكر العطاري المصري (ت ٥٨٤ هـ) كتبه في مسجد رفيقه الزيدي^(٥) . وذكر ابن النجار في تاريخه أن أبا الخطاب عُمر بن محمد بن عبد الله الغلامي الدمشقي قدم بغداد سنة ٥٥٩ هـ وصارت له صحبة مع الشريف الزيدي فعاهد أبا الحسن الزيدي وصيحه الضري أن يوقف كتبه وأجزاءه ويرسلها إلى بغداد لتكون في المسجد المذكور ، فلما توفي بدمشق سنة ٥٧٤ هـ أوصى إلى

(١) ابن رجب : الذيل ١ / ٤٩ .

(٢) المصدر نفسه ١٠ / ١٠٦ .

(٣) ابن رجب : الذيل ١ / ٤٩ .

(٤) ابن الليثي : ذيل تاريخ مدينة السلام ٤ / ٣٩١ .

(٥) المنذري : التكملة ١ / الترجمة ٣٥ .

أخيه أبي الفضل عبد الله (ت ٥٩٨ هـ) بإنفاذ الكتب ، فأنفذها ، ووصلت بغداد بعد وفاة الزيدي فتسلمها صبيح^(١) . كما أوقف العلامة ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) كتبه على هذا المسجد وسلمها للشيخ عز الدين ابن الأثير المؤرخ المعروف ليحملها إلى هناك^(٢) .

وقد ترك لنا ابن الجوزي نصًا نفيسًا عن التدريس في المساجد ، أنا مرده لأهميته البالغة ، فقد قال في ترجمة أبي علي الحسن بن إبراهيم الفارقي (٤٣٣ - ٥٢٨ هـ) : « من أهل ميافارقين .. تفقه بها على أبي عبد الله محمد بن بيان الكازروني - وكان صاحب المحاملي - فلما توفي الكازروني قصد أبا إسحاق الشيرازي في سنة ست وخمسين فتفقه عليه ، قال : فنزلت في خان حذاء مسجد أبي إسحاق بباب المراتب وكان يسكنه أصحاب الشيخ ومن يتفقه عليه ، فإذا كثرتنا كنا حوالي العشرين ، وإذا قل عددينا كنا حوالي العشرة ، وكان الشيخ أبو إسحاق يذكر التعليل في أربع سنين فيصير المتفقه في هذه الأربع سنين فيها مستغنياً عن الجلوس بين يدي أحد ، وكان يذكر درسًا بالعادة ودرسًا بالعتشي . فلما كانت سنة ستين عبرت إلى الجانب الغربي إلى الشيخ أبي نصر ابن الصباغ فقرأت عليه « الشامل » ثم عدت إلى أبي إسحاق فلازمته إلى حين وفاته . سمع أبو علي الحديث ... وولي القضاء بواسط وأعمالها وسكنها إلى حين وفاته وكان آخر عمره يقول لأصحابه إذا حَضَرُوا الدرس : كَثُرَتْ البارحة الزرع القلاني من « المذهب » وكررت بارحة الأول الربع

(١) ابن الديلمي : ذيل ٤ / ٣٤٢ - ٣٤٣ ، وابن الجار : التاريخ المجدد ، الورقة ١٣٢ (باريس) .

(٢) الدمياطي : المستفاد ، الورقة ٧٨ ، والمندري . التكملة ٣ / الترجمة ٢٢٥٦ .

الفلاتي من « الشامل » (١) .

يتبين من هذا النص أن الدراسة ترتبط بالأستاذ الذي يدرس عليه الطالب ، وليس بمكان الدراسة ، فقد بدأ أبو علي الفارقي دراسته على شيخ من أهل بلده هو أبو عبد الله محمد بن بيان الكازروبي الشافعي ، فقرأ عليه القرآن ، لكنه لم يكمل عليه الدراسة الفقهية حيث توفي الكازروني سنة ٤٥٥ هـ (٢) وكانت وفاة الأستاذ تمثل صعوبة كبيرة للطالب ، إذ لابد له أن يبدأ من جديد على أستاذ آخر ، ويتعين عليه أن يبحث عنه ويسافر إليه عند الضرورة .

إن الدراسة الفقهية في المساجد تشبه إلى حد بعيد الدراسة الجامعية الأولية في عصرنا ، حيث كان يتعين على الطالب أن يكون قد قطع شوطاً في تلقي المعارف العامة وألم بطرف جيد منها يؤهله لمثل هذه الدراسة ، وغالباً ما يكون عندئذ قد بلغ حدود العشرين من عمره تقريباً ، فقد قدم الفارقي للدراسة على أبي إسحاق الشيرازي وقد بلغ الثالثة والعشرين ، ولعله صرف مدة في الدراسة على شيوخه الكازروني . وقد قدم أبو عبد الله الحسين بن الحسن المقدسي الحنفي من الشام للدراسة الفقهية بعداد وهو في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره (٣) ، وقدم صائن الدين هبة الله بن الحسن أخو الحافظ أبي القاسم ابن عساكر من الشام وهو في الثانية والعشرين من عمره وبقي فيها مدة أربع

(١) ابن الجوزي : المتظم ١٠ / ٣٧ .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ١٠ / ٦٣ - ٦٤ .

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام ١١ / ٧٢٧ ، والمسي : عقد الجمان ١٦ / الورقة ١٤٧ (مصورة دار الكتب المصرية) .

سنوات^(١) (٥١٠ - ٥١٤ هـ) وذكر ابن عقيّل أنه طلب الفقه وهو في السادسة عشرة من عمره^(٢) ، للتدليل على خارق ذكائه وقطنته .

أما عدد الطلبة فلم يكن ثابتاً في جميع المرحلة الدراسية التي يقضيها الطالب ، وسبب ذلك كما يظهر هو تحلف بعض الطلبة ، أو تركهم الدراسة ، أو مجيء طلبة جدد .

ومع أنه ليست لديها معلومات عن تقسيم الطلبة إلى مراحل ، فمن المعقول أن يقسم الشيخ طلبته إلى مراحل ، وإلا فكيف يمكن لمبتدئ أن يتابع مع من قضى سنتين أو ثلاثاً في الدراسة ؟ ولعل التقسيم الذي عُرف في المدارس فيما بعد إلى مراحل كان معروفاً في دراسة المساجد أيضاً . ومن الجدير بالملاحظة أن عدد الطلبة القليل نسبياً يتيح للمدرس فرصة كبيرة للعناية بطلابه ، كما يوفر فرصاً أفضل للطلبة أنفسهم في التعمق بالمناقشة والمساءلة .

ويتبين من النص السابق أن مدة الدراسة هي أربع سنوات ، وهي المدة التي يكمل فيها المدرّس المنهج المقرر الذي يعده بنفسه على شكل « محاضرات » تعرف بـ « التعليقة » . وتشمل هذه التعليقة جميع المادة التي جمعها المدرس ليلقيها على الطلبة بحيث يلم الطالب عند دراستها بجميع المادة الفقهية على مذهبه . وقد انتشر في هذا العصر تأليف التعاليق ، فكان المدرسون يدرسون تعليقاتهم أو تعليقة وضعها أحد كبار علماء مذهبهم ، أو يلخصونها من تعاليق العلماء . أما حجم « التعليقة » فالظاهر أنه كبير بحيث يكفي كل هذه المدة

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ / ٣١١ ، والذهبي : تاريخ الإسلام ١٢ / ٣١٠ .

(٢) ابن رجب : الدليل ١ / ١٤٢ .

الطويلة ، وقد كانت لأبي علي بعقوب بن إبراهيم العُكْبَرِي البَرْزِيّ تعليقة في الفقه في عدة مجلدات ملخصة من تعليقة شيخه القاضي أبي يَغْلَى^(١) ، وبذلك نفهم أن تعليقة أبي يعلى كانت ضخمة .

وكان المدرس يلقي في كل يوم درسين ، درسًا في الصباح ، وآخر في المساء ، فيما عدا أيام الجمعة .

أما سكن الطلبة الغرباء فإنهم عادة يجدون لهم حائًا مجاورًا يتحذونه سكنًا لهم ، إذ لم تكن في المساجد أماكن للسكنى .

وهذه الخانات إما عامة يقوم الطالب بدفع أجرة عن سكناه فيها ، وإما خاصة مما ينشؤه المحسنون من الميسير لتكون وقفًا على طلبة العلم ، فمن ذلك مثلاً الخان الذي أنشأه التاجر دعلج بن أحمد بن دعلج في شويقة غالب عند قبر شريح العقبة الشافعي ، وأوقفه على طلبة العلم من أصحاب الشافعي^(٢) كما كان هناك خان في قطيعة الربيع قد خصص لسكنى الطلبة الغرباء ممن يتلقون الفقه الحنفي ، إذ يشير ابن الجوزي^(٣) إلى احتراقه في حوادث الشغب التي وقعت سنة ٤٤٣ هـ .

وكثيرًا ما كان بعض الطلبة يلزمون شيوخهم حتى بعد انتهاء مدة الدراسة المقررة ، للاستزادة من علمهم ووفاء لهم ، أو ليحلوا محلهم في التدريس ، فقد أنهى أبو علي الفارقي دراسته على أبي إسحاق الشيرازي سنة ٤٦٠ هـ ثم لازمه بعد ذلك ستة عشر عامًا إلى حين وفاة أبي إسحاق سنة ٤٧٦ هـ .

(١) ابن رجب : الذيل ١ / ٧٥ .

(٢) الهمداني : تكملة ١٨٢ .

(٣) المتظم : ٨ / ١٥٠ .

وعلى الرغم من أنَّ الدراسة كانت مجانية حيث لم يكن أمثال هؤلاء المدرسين يأخذون أجرًا على تعليمهم ، فإن الطالب كان بحاجة إلى نفقات لمعيشته وسكناه ، وغالبًا ما كان أهله يقومون بذلك ، أو يقوم هو بعمل مناسب للحصول على مصدر رزق شريف يكفل معيشته ، وكان الكثير من الطلبة يشتغلون بنسخ الكتب .

على أنَّ معظم طلبة العلم كانوا في حالة فقر شديد ، بسبب انقطاعهم إليه ، وانصرافهم عن الاشتغال بغيره . وكانت الرحلات والأسفار في طلب العلم تتطلب أعباءً مالية مرهقة لأحوالهم ، فقد اضطر ربيعة الرأي (ت ١٣٦ هـ) إلى بيع خشب سقف بيته وأكل ما يلقي من الزبيب وعصارة التمر في مرابيل المدينة^(١) ، وكان شعبة بن الحجاج (ت ١٦٠ هـ) يقول : « من طلب الحديث أفلس ، بعث طست أُمِّي بسبعة دنانير »^(٢) ، وقال الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) : « لا يطلب هذا العلم من يطلبه بالتملك وعنى النفس فيفلح ، ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلم أفلح »^(٣) ، وقال محمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩ هـ) : « ترك أبي ثلاثين ألف درهم فأنفقت خمسة عشر ألفًا على النحو والشعر ، وخمسة عشر ألفًا على الحديث والفقه »^(٤) . وقد جمعت الرحلة بين محمد بن جرير الطبري ومحمد بن إسحاق ابن خزيمة ومحمد بن نصر المروزي ومحمد بن هارون الروياني بمصر فأرملوا ولم يبق عندهم ما يقوتهم وأصّر بهم

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم / ١ / ٩٧ .

(٢) الذهبي : سير / ٧ / ٢٢٠ .

(٣) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ٢٢٠ .

(٤) الخطيب : تاريخ / ٢ / ٥٦٢ .

الجوع»^(١). وقال محمد بن جعفر بن رميس القَصْرِي (ت ٣٢٦ هـ) : « بعث صف الحدادين بعداد بثلاثة آلاف دينار فأنفقتها كلها على الحديث »^(٢). وقال ابن عقيّل وهو يذكر أيام دراسته : « وعانيت من الفقر والنسخ بالأجرة »^(٣) ، لذلك وصف الزاهر مرزى الراحلين في طلب العلم بأنهم : « شعث الرؤوس ، خلقان الثياب ، حمص البطون ، ذبل الشفاه ، شحب الألوان ، نحل الأبدان ، قد جعلوا لهم همًا واحدًا ، ورضوا بالعلم دليلاً ورائدًا ، لا يقطعهم عنه جوع ولا ظمأ ، ولا يملهم منه صيف ولا شتاء »^(٤).

وقد زويت بعض الأخبار عن هبات تقدمها الدولة لبعض العلماء أو طلبية العلم^(٥). غير أن التقرب من السلطة الحاكمة لم يكن مستحبًا عند أهل العلم ، فكان سُفيان الثوري يقول : « في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء »^(٦) الزوار للملوك ، وقال أبو قلابة : « إياك وأبواب السلطان »^(٧).

أما العطايا التي كان يقدمها الخلفاء وأرباب الدولة إلى مؤيدي أولادهم أو ندمائهم فهي لا تنطبق على جمهور العلماء وطلبة العلم ، لأنها حالات خاصة

(١) الخطيب : تاريخ ٢ / ٥٥٢ .

(٢) الخطيب : تاريخ ٢ / ٥١٥ .

(٣) ابن رجب : الذيل ١ / ١٤٣ .

(٤) المحدث الفاضل ٢٢٠ .

(٥) ابن سعد : الطبقات ٤ / ١١ ، البلاذري : فتوح البلدان ٤٥٦ ، والراهمري : المحدث الفاضل ٢١٠ ، وسير أعلام النبلاء ٦ / ١٢٠ ، ١٤٢ ، ٢٥٣ و ٧ / ٢١١ ، ٤٠٢ .

(٦) القراء اصطلاح يطلق في ذلك الوقت على رجال الدين أو علماء الدين .

(٧) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ١ / ١٦٤ .

قياسًا بألاف العلماء . على أن الحاجة وانصراف البعض إلى العلم بالكتابة وانقطاع مصادر رزقهم قد تضطروهم إلى تقاضي أجور رهيدة من بعض الطلبة ، لا سيما في العلوم المساعدة للعلوم الدينية كالعربية وآدابها . ومع ذلك فلم يكن الذي يأخذ أجرًا على علمه محمودًا عند العلماء ، وكان المحدثون يضعفونه وقلما يقبلون روايته . ومثل هذه الحالات النادرة لا يُقاس عليها ، ولكن بعض المستشرقين ومن تبعهم تقصدوا إظهارها .

وعلى العكس من ذلك وجدنا كثيرًا من العلماء يعملون بعض طلبتهم الشُّجْب ، فقد ذُكر عن أبي حنيفة أنه كان يعمل تلميذه أبا يوسف . وذُكر عن الخطيب البغدادي أنه أعطى أحد طلبته خمسة دنانير ذهبًا ليستعين بها على شراء الكاغد ، كما أنه أوصى بجميع ما يملك ، ومنها ثيابه ، لتصرف على طلبة الحديث ، وأوقف كتبه عليهم^(١) .

وكان محمد بن أحمد بن علي بن عبد الرزاق البغدادي المقرئ المعروف بأبي منصور الخياط (ت ٤٩٩ هـ) إمامًا بمسجد ابن جرادة ببغداد بحريم دار الخلافة اعتكف فيه مدة طويلة يعلم الصبيان القرآن لوجه الله تعالى ، ويسأل لهم وينفق عليهم ، فحتم عليه خلق كثير^(٢) . وقال ابن عقيل في حق شيخه أبي منصور بن يوسف : « فحظيت منه بأكبر حظوة ... وقام بكل مؤونتي وتحملي »^(٣) وأمثلة ذلك كثيرة يمكننا أن نسوق منها العشرات .

وكان طلبة العلم يتعارفون فيما بينهم فيعين بعضهم بعضًا ، ويصرف غيهم

(١) ياقوت : معجم الأدباء ١ / ٢٥٢ ، ومقدمتي لتاريخ الخطيب ١ / ٥١ .

(٢) ابن رجب : الذيل ١ / ٩٦ .

(٣) المصدر نفسه : ١ / ١٤٣ .

على فقيرهم في كثير من الأحيان . وهذا هو الذي يفسر لنا إنفاق بعض طلبة العلم ما ورثوه من أموال طائلة في سبيل العلم ، لا سيما عند انقطاع نفقة الطالب ، فمن أمثلة هذا التعاون ما رواه المحدث العظيم أبو حاتم الرازي (ت ٢٧٧ هـ) قال : « بقيت بالبصرة في سنة أربع عشرة ومئتين ثمانية أشهر ، وكان في نفسي أن أقيم سنة فأنقطع نفقتي ، فجعلت أبيع ثيابي شيئاً بعد شيء حتى بقيت بلا نفقة ، ومضيت أطوف مع صديق لي إلى المشيخة وأسمع منهم إلى المساء ، فأنصرف رفيقي ورجعت إلى بيت خالي ، فجعلت أشرب الماء من الجوع ، ثم أصبحت من الغد وعدا علي رفيقي فجعلت أطوف معه في سماع الحديث على جوع شديد ، فأنصرف عني ، وأنصرف جائعاً ، فلما كان الغد غدا علي فقال : مر بنا إلى المشايخ ، فقلت : أنا ضعيف لا يمكنني . قال : ما ضعفك ؟ قلت : لا اكتمك أمري قد مضى يومان ما طعمت فيهما . فقال لي رفيقي : معي دينار فأنا أواسيك بمصفه ونجعل الآخر في الكراء فخرجنا من البصرة وقبضت منه النصف دينار » (١) .

وقال عمر بن حفص الأشقر : « كُنَّا مع محمد بن إسماعيل البخاري بالبصرة نكتب الحديث ، ففقدناه أياماً ، فطلبناه فوجدناه في بيت وهو عريان ، وقد نفذ ما عنده ولم يبق معه شيء ، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوباً وكسونا ، ثم اندفع معنا في كتابة الحديث » (٢) .

(١) الخطيب : تاريخ ٢ / ٤١٧ ، المزني تهذيب الكمال ٢٤ / ٣٨٦ وهي مقدمة الجرح والتعديل ١ / ٣٥٩ .

(٢) الخطيب : تاريخ ٢ / ٢٣٢ .

ويذكر التنوخي في «نشوار المحاضرة»^(١) أن عددًا من طلبة الفقه أسهموا في إعالة أحد رفاقهم من الطلبة المحتاجين ، فأعالوه سنين طويلة . كانت المساجد والجوامع من أبرز أماكن دراسة العلوم الدينية وما يتصل بها . وقد درج كثير من الباحثين على إضافة الربط والزوايا إلى المؤسسات التعليمية ، ولكن الدراسة المتأنية تظهر أن إسهام الربط والزوايا في هذا المجال كان ضئيلاً جداً ، بحيث لم نجد عالماً تخرج في أحدها ، ذلك أن العاية من تأسيس هذه الأماكن إنما كان لإيواء الفقراء والمتصوفة وليس لتلقي العلم . نعم ، كانت هذه المراكز تُعنى بتدريب القوم على مُجاهدة النفس ، وربما عُيّنت في بعض الأحيان بتعليمهم معارف القوم ، لكن أثرها في الحركة الفكرية لم يظهر بصورة تنبئ عن قيمة تعليمية واضحة فضلاً عن أن إنشاء الربط والزوايا لهذه الأغراض لم يظهر إلا في فترة متأخرة ، ولم يكن منتشرًا بالعراق انتشاره ببلاد الشام ومصر وغيرها .

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ٢ / ٢٧٥ - ٢٧٦ .

المبحث الثاني

أماكن دراسة العلوم الصرفة

حاول كثير من الباحثين المُحدثين البحث عن المؤسسات التعليمية التي عُنيت بتدريس العلوم غير الدينية مثل الفلسفة والرياضيات وعلوم الطبيعة والكيمياء ونحوها ، فأشاروا إلى أن بيت الحكمة ودور العلم وأسواق الوزّاقين والمستشفيات كانت هي المعاهد المعنية بتدريس هذه العلوم^(١) .

والحق أنه ليس لدينا من النصوص الصريحة ما يشير إلى وجود معاهد متخصصة لتعليم هذه العلوم كما هي الحال في العلوم الدينية وما يتصل بها ، سواء أكان ذلك قبل تأسيس المدارس أم بعدها ، لا نستثني من ذلك سوى الطب الذي كان يدرس في المستشفيات (المارستانات) فقد ذكر ابن أبي أصيبعة أن الطبيب أبا الفرج كان يُقرئ الطب في البيمارستان العضدي ببغداد^(٢) ، وذكر أن الطبيب إبراهيم بن بكس كان يدرس الطب في هذا المارستان أيضًا^(٣) . ولم نجد مدرسة أدخلت تدريس الطب في العراق ضمن مناهجها سوى ما ذكر عن المدرسة المُستصرية كما سيأتي بيانه ومناقشته . إن بيت الحكمة ودور العلم وأسواق الوزّاقين وأسواق الشعر كانت مراكز ثقافية مفتوح بعضها لبعض الناس ، ومفتوح بعضها الآخر لجميع الطلبة يقصدونها ويطالعون ما فيها من الآثار ، فيقيدون منها ، فهي ليست مؤسسات تعليمية أو مدارس أو جامعات ، كما يحلو للبعض تسميتها .

(١) طوطح : التربية عند العرب ٢٢ .

(٢) عيون الأنباء : ١ / ٢٣٩ .

(٣) المصدر نفسه : ١ / ٢٤٤ .

وإذا كان الأمر كذلك فأين كان الطلبة يتلقون هذه العلوم ؟
إن الدارس لطبيعة التعليم في تلك الأعصر المتمعن في دراسة كتب تراجم
العلماء يتبين له أن دراسة هذه العلوم كانت تقوم على دعمتين رئيسيتين هما :
الأستاذ والكتاب .

وقد يتنا فيما سبق أن الطالب كان يتبع الأستاذ العالم أينما كان ، فيأخذ
عنه العلم في منزله ، أو محل عمله ، أو في أي مكان يتواجد فيه . وتشير كتب
التراجم إلى دراسة المترجمين على أستاذ أو مجموعة من الأساتيد من غير أن
تحدد المكان الذي درس فيه عليه . غير أن هناك إشارات تفيد معرفة بعض هذه
الأماكن فقد ذكر الجوزجاني صاحب ابن سينا أنه « كان يجتمع كل ليلة في
دار ابن سينا طلبة العلم ، وكنت أقرأ معه الشفاء ، وكان يقرئ غيري من القانون
نوبة ، وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار خدمة للأمير ، وقضيا على
ذلك زمنا »^(١) . وكان الطبيب مذهب الدين أبو الحسن علي بن أحمد
البغدادي الموصللي المعروف بابن هُبَل (ت ٦١٠ هـ) يجلس على سرير
بمنزله بسكة أبي نجيج بالموصل ويقصده طلبة الطب^(٢) .

أما الكتاب فهو أداة العلم ومنه تعلم الطلبة جل علومهم في هذه الميادين .
وقد احتل في الأعصر التي نمت فيها هذه العلوم منزلة عظيمة ، فهو كما يقول
الجاحظ « المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يخفرك وإن قطعت عنه المادة لم
يقطع عنك العائدة »^(٣) . ومن هنا تأتي أهمية خزائن الكتب ودكاكين الوراقين

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء / ٢ / ٤ .

(٢) المصدر نفسه . ٢ / ٣٣٤ - ٣٣٥ ، والذهبي : تاريخ الإسلام / ١٣ / ٢٤٤ .

(٣) الحيوان : ١ / ٤٦ .

في رفد المتعلمين بما يحتاجونه إليه من مادة علمية .

إنَّ خلو بغداد من المعاهد المعنية بتعليم العلوم الصرفة والصنائع دفعت الحليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) إلى التفكير بتهيئة مثل هذا الأمر ، فلما أراد بناء قصره في السُّمَّاسية بالجانب الشرقي من بغداد « استراد في الذُّرْع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد ، فشئِلَ عن ذلك فذكر أنَّه يريدُه ليعني فيه دورًا ومساكن ومقاصير ، يرتب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ، وتجرى عليهم الأرزاق السنوية ليقصد كل من اختار علمًا أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ منه »^(١) ولكن المعتضد مات قبل أن يستتم البناء^(٢) فماتت هذه الفكرة ولم تنفذ .

وهذا النص يشير من غير شك أن الطالب كان يقصد أستاذ العلم أينما كان ليأخذ عنه علمه أو صناعته ، فإذا صبح هذا الخبر فإنه يشير إلى تفكير المعتضد المتقدم بمحاولة بناء جامعة راقية تضم كل رؤساء العلوم النظرية والعملية .

(١) المقيري : الخطط ٤ / ١٩٢ .

(٢) ابن الجوزي : المتظم ٥ / ١٤٤ .

المبحث الثالث

ظهور المدارس المستقلة

قد بينا فيما سبق أن الفقه كان يُدرّس في المساجد دراسة متطورة متخصصة تستغرق أربع سنوات في الأغلب يتخرج فيها الطالب وقد ألم بهذا العلم . وأوضحنا أن المساجد قد احتضنت بالعباية بوع معين من علوم الإسلام ومنها الفقه على مذهب معين .

كما أظهرت الدراسة السابقة عناية حلقات العلم في المساجد الجامعة بجميع العلوم الدينية وما يتصل بها من علوم مساعدة .

ومن الجدير بالملاحظة أنَّ نظام التعليم استمر على هذه الصورة التي ذكرناها قرابة أربعة قرون ونصف القرن لم تنشأ خلالها مدرسة واحدة في العراق ، وهو الذي احتل الزيادة والسيادة في الحركة الفكرية العربية الإسلامية كل تلك المدة الطويلة فأتى الفكر العربي أكله ، ونضجت الثقافة ، ووضعت قواعد العلوم وتطورت بما هو معروف مشهور عند الحاص والعام ، فلماذا أذن ظهرت المدارس ولماذا تأخرت إلى منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ؟

لقد تناول عدد من الباحثين المُحدثين هذا الأمر وحاولوا معرفة الأسباب والدوافع التي أدت إلى قيام المدارس المستقلة ، فيقول الدكتور أحمد شلبي في كتابه « تاريخ التربية الإسلامية » : « رغب الناس في الدراسات الإسلامية منذ ظهور الإسلام ، وكلما مرت السنوات ارداد الناس إقبالاً على حلقات العلم حتى حفل كثير من المساجد بعدة حلقات دراسية لا حلقة واحدة ، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقات صوت المدرس يلقي الدرس وأصوات الطلاب

يسألون ويناقشون ، وكانت تتلاقى الأصوات المتصاعدة من الحلقات المختلفة ، فتحدث في المسجد شيئاً قليلاً أو كثيراً من الضجيج يمنع الصلاة والعبادة من أن تؤدى على وجهها ، فانصحت صعوبة احتمال المسجد للصلاة والتدريس معا ... إذ أن مهمة المساجد الأولى هي أن يصلي فيها الناس ويتعبدوا ولا يجوز أن تعطل الصلاة في المساجد مهما كانت الأسباب . وشيء آخر هو أن العلوم تطورت بتطور الزمن وتقدم المعارف وأصبحت هناك مواد تستدعي دراستها كثيراً من الحوار والنقاش والجدل كعلم الكلام وعلم الجدل والمناظرة ، ومثل هذه المواد تتنافى طبيعة تدريسها مع ما يجب أن يكون عليه رواد المساجد من هدوء وجلال ^(١) .

ويلاحظ على هذا التعليل أثر ذي أثر أنه لم يدرك طبيعة التعليم عند العرب المسلمين ، ويدل على نقص واضح في سبب تطور الحركة الفكرية ، وآية ذلك أن التعليم في المساجد الصغيرة والمساجد الجامعة لم يكن يجري وقت إقامة الصلوات ولا يمكن أن يكون ذلك لاشتراك الأساتذة والطلبة بالصلاة ولا يُعقل استمرارهم بالزُسر في أثناء إقامة الصلاة ، فكيف يؤدي إلى الإخلال بها ، وعدم تأديتها على وجهها ؟! وأيس كان المسلمون عن هذه المشكلة كل هذه القرون الطويلة ؟ أما علم الكلام وعلم الجدل والمناظرة فقد فات الباحث أنها وجدت منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) ، بل إنها لم تنشأ إلا في المسجد الجامع بالبصرة حيث وضع المعتزلة الأوائل أسسها وتطورت حتى بلغت أوج نضجها في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ^(٢) (التاسع

(١) تاريخ التربية الإسلامية ٩٥ .

(٢) الجاحظ : البيان والنبين ١ / ١٠٦ ، وأحمد أمين : صحن الإسلام ٣ / ٩٥

الميلادي) وأين هو عن كل تلك المناظرات التي جرت على عهد المأمون ومن بعده ؟ يضاف إلى ذلك أن المدارس إنما أسست لعاية رئيسية هي تدريس الفقه وليس لمثل هذه العلوم .

لقد أدرك نظام الملك ضرورة التوصل إلى كشف العلماء وإزالة الجفاء المستديم بينهم وبين السلطة الدنيوية ، ذلك الجفاء المتمثل بابتعاد العلماء عن السلطان وكلامهم في كل من يقربه ، فقد روى ابن عبد البر بسنده إلى رسول الله ﷺ : « من أتى السلطان افتن » وذكر أن سفيان الثوري كان يقول : « في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزوارون للملوك » ، وقال أبو قلابة : « إياك وأبواب السلطان » (١) .

ومنذ أن استولى الأعاجم على مقاليد السلطة الفعلية بعداد ، ولا سيما في عصر البويهيين ، استثنى العلماء الخلافة العباسية من هذه القطيعة ، بل حاولوا بكل الوسائل الدفاع عن الخلافة والخليفة باعتبارهما الملاذ الأخير في وجه التيارات الشعبية الحاقدة المتطلعة إلى استعادة مثل قديم (٢) ، فاخترع الماوردي ما سماه بوزارة التفويض - والوزير فيها هو المتغلب الذي لا يحتاج إلى تفويض ! - وعين عليه : « مطالعة الإمام لما أمضاه من تدبير وأنفذه من ولاية وتقليد لتلا يصير بالاستبداد كالإمام » (٣) ، وإنما فعل ذلك للإبقاء على شرعية الخلافة نظرياً انتظاراً ليوم تقوى فيه فطرده المتعلبين . ومع أن السلاجقة

(١) جامع بيان العلم / ١ - ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) تنظر مقدمة الأسد والعواص لصديقنا العلامة رضوان السيد ١١ .

(٣) الأحكام السلطانية : ٤٠ (موقع الإسلام) .

كانوا متعلين أيضا فإبهم تظاهروا بتدعيم الخلافة وإشاعة احترامها وتوقيرها ومحاربة أعدائها في الشام^(١) ، وحاولوا إنشاء جبهة داخلية بين علماء المذاهب الفقهية وإزالة القطيعة بينهم وبين الشافعية التي سببها وزيرهم الكندري سنة ٤٤٥ هـ بنيسابور وأحدثت فتنة كبيرة أنزعج منها كثيرا زعيمهم أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري^(٢) .

ومن أجل كسب العلماء اتجه نظام الملك إلى احترام الخلافة العباسية احتراما يتناسب ومترئتها العظيمة في نفوسهم ، وعُني بتقريب العلماء من كل المشارب وقدرهم تقديرا عاليا ، قال ابن الجوزي : « دخل على المقتدي فأذن له في الجلوس بين يديه وقال له : يا حسن ، رضي الله عنك برضا أمير المؤمنين عنك » : وقال : « وكان مجلسه عامرا بالفقهاء وأئمة المسلمين وأهل التدين حتى كانوا يشغلونه عن مهمات الدولة ، فقال له بعض كتابه : هذه الطائفة من العلماء قد بسطتهم في مجلسك حتى شعلوك عن مصالح الرعية ليلاً ونهاراً ، فإن تقدمت أن لا يوصل أحد إلا بأذن ، وإذا وصل جلس بحيث لا يصيب عليك مجلسك . فقال : هذه الطائفة أركان الإسلام وهم جمال الدنيا والآخرة ولو أجلسست كلا منهم على رأسي لاستقللت لهم ذلك . وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري وأبو المعالي الجويني يقوم لهما ويجلسهما في مسند ويجلس في المسند على حالته ، فإذا دخل عليه أبو علي الفارمذي قام وأجلسه في مكانه وجلس بين يديه »^(٣) .

(١) ابن الجوزي : المتظم ٨ / ١٦٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٨ / ١٥٧ - ١٥٨ .

(٣) المتظم ٩ / ٦٥ .

وقال الشُّكِّي : « ومجالسه معمورة بالعلماء مأهولة بالأئمة والرهاد ، لم يتمق لغيره ما اتفق له من اردحام العلماء عليه وتردادهم إلى بابه وثنائهم على عدله وتصنيفهم الكتب باسمه ، يحضر سباطه مثل أبي القاسم القشيري وأبي إسحاق الشيرازي وإمام الحرمين وإمام المعالي الجويني (ت ٤٧٨ هـ) الذي خُرج من التلامذة من صاروا أئمة الدنيا في زمانهم مثل الغزالي والخوافي والكيما الهراسي والحاكم النوقاني ، وصفه في مقدمة كتابه « العُباب » بما لم يوصف به سلطان من قبل ، وأثنى عليه الشاء العاطر في عنايته بالدين وأهله (١) . كما تقرب إلى أهل الحديث ، فكان يُملئ الحديث بالري ويقول : « إني لستُ أهلاً لما أتولاه من الإملاء لكنني أريد أن أربط نفسي على قطار نُقْلَةِ حديث رسول الله ﷺ ، وعُقد له مجلس الإملاء ببغداد ، فأملئ مجلساً بجامع المهدي بالزُصافة وآخر بمدرسته ، وحضر إملاءه الأئمة (٢) .

ودكر إمام الحنابلة ابنُ عقيل أن نظام الملك ترك الناس بعده موتى : « أما أهل العلم والفقراء ففقدوا ليس بعده بانقطاع الأرزاق (٣) .
إنَّ هدف نظام الملك السياسي يظهر واضحاً من حكاية يذكرها الطرطوشي في « سراج الملوك » هي على الرغم من طابعها الروائي ذات قيمة تاريخية ، فتذكر الحكاية أن بعضهم وشى بنظام الملك عند السلطان ملك شاه

(١) الطبقات الكبرى ٤ / ٣١٣ .

(٢) ينظر الص عد السبكي في طبقاته ٤ / ٣١٤ - ٣١٥ .

(٣) السبكي : الطبقات ٤ / ٣١٨ .

(٤) ابن الجوزي : المتظم ٩ / ٦٨ .

قائلاً أنه ينفق ست مئة ألف دينار سنوياً على مُريدي العلم والعلماء وأن هذه الأموال كافية لإقامة جيش تخيّم راياته على أسوار القُسطنطينية ، فعاتبه ملك شاه وطلب إليه أن يبرر تصرفه ذاك ، فأجابه : « .. أنا أقمتُ لك جيشاً يسمى جيش الليل إذا نامت جيوشك ليلاً قامت لجيوش الليل على أقدامها صفوفًا بين يدي ربهم فأرسلوا دموعهم وأطلقوا ألسنتهم ومدّوا إلى الله أكفهم بالدعاء ولجيشك ، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون وبدعائهم تبتون وبيروكاتهم تمطرون وترزقون » (١) .

ومما تجدر ملاحظته أنَّ نظام الملك إنما قام بإنشاء هذه المدارس العديدة في مُدد متقاربة من أجل عُلماء مخصوصين بعيهم ، وليس من أجل بلد بعينه ، فأيسا وجد عالمًا متميزًا يحتل منزلة مرموقة بين الجماهير بني له مدرسة فيذكر ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٥٩ هـ عند افتتاح نظامية بغداد : « وفي يوم السبت عاشر ذي القعدة جمع العميد أبو سعد القاشي الناس على طبقاتهم إلى المدرسة النظامية التي بناها نظام الملك ببغداد للشافعية ، وجعلها يرسم أبي إسحاق الشيرازي بعد أن وافقه على ذلك » (٢) . ولما رفض أبو إسحاق التدريس بها عند افتتاحها وسميَّع نظام الملك بذلك « أقام القيامة على العميد القاشي ، وكتب إليه يلومه ويوبخه ويتهدده ويقول : لمن بنيت هذه المدرسة ألا لأبي إسحاق ؟ » (٣) .

(١) صراج الملوك : ٢٣٧ .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ٨ / ٢٤٦ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، الورقة ١١١ .

وكان أبو إسحاق أعظم علماء الشافعية ببغداد ومن أشهر المدرسين بها . أما نظامية نيسابور فقد بُنيت برسم إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني (ت ٤٧٨ هـ) فقعد يدرس بها ثلاثين سنة إلى حين وفاته كما نص على ذلك عبد الغافر في « السياق »^(١) والشبكي^(٢) بل عرفت هذه المدرسة به حتى قال عبد الغافر في ترجمة أبي القاسم المظفر ابن إمام الحرمين : « لما أراد القعود للتدريس في مدرسة أبيه بعده مع من ذلك ... »^(٣) .

إنَّ تقرب نظام الملك من العلماء الأعلام وعنايته البالغة بهم هو الذي يفسر لنا قيامه بتوزيع مدارسه على معظم مدن العراق وخراسان ، فبعد أن ذكر الشبكي النظاميات التسع ببغداد والموصل والبصرة ونيسابور وتلخ وهرات وأصبهان ومرو وأمل طبرستان قال : « ويقال : إن له في كُلِّ مدينة بالعراق وخراسان مدرسة »^(٤) .

وهكذا تمكن نظام الملك أن يجذب إلى جانبه عطف وتأيد أعلام العلماء في جميع المراكز المهمة التي امتد إليها سلطاناه فتحول كبار العلماء إلى مدرسين في النظاميات المنشأة في مختلف هذه المدن المهمة ، وتحقيق غرضه ، ولو لمدة ، في إزالة الجفوة بين السلطة المتغلبة والعلماء وصولاً إلى تثبيت كيان دولته وجلب الناس إلى جانبها وخلق جبهة قوية لمجابهة المخططات الباطنية ، ولا أدل على

(١) السياق ، الورقة ٤٨ .

(٢) الطبقات الكبرى ٥ / ١٧١ .

(٣) السياق ، الورقة ٨٩ .

(٤) الطبقات الكبرى ٤ / ٣١٣ - ٣١٤ .

ذلك من قيام الباطنية باغتياله سنة ٤٨٥ هـ (١) .

ولكن لم اختار نظام الملك أن يوقف مجموعة من المدارس لا مجموعة من المساجد كما كان يفعل بعض الواقفين قبله ؟ يجب عن ذلك الأستاذ جورج مقدسي إجابة مقنعة حينما يقول : « إن المدرسة لا غير هي التي تلبي حاجته الخاصة ، فقد أنشأ مجموعة من المدارس لكي ينجز خططه السياسية خلال البلاد الواسعة في الامبراطورية الواقعة تحت سلطانه ، فالمؤسسة التي تعينه على تحقيق ذلك لابد أن تكون مؤسسة يمكن إشاؤها دون أن تكون لها روابط من طبيعة دنيوية رسمية تجعلها تحت سلطة الخليفة كما هي الحال في الجامع حيث كان الخليفة هو المرجع في شؤون التوظيف ، وكما هي الحال في المسجد حيث كان مرد الإمام في مسؤولياته إلى الخليفة ، أو حتى كما هي الحال في مدرسة تمثل لجنة إدارتها جماعة مذهبية معينة . فاحتكار الإدارة في جامع أو مسجد أمر لا تطوله اليد . وإذن فإن المؤسسة التي اختارها نظام الملك أداة لتنفيذ خططه هي التي يمكن أن يحتفظ بإدارتها بعيداً عن متناول سلطة الخليفة وهي سلطة لها مكانتها في نظر الناس يومئذ » (٢) .

وبعيد بدء نظام الملك بتشيد المدرسة النظامية قام أبو سَعد محمد بن منصور العميد الخوارزمي مستوفي مملكة السلطان ألب أرسلان بإنشاء مدرسة لأصحاب أبي حنيفة بجوار مشهد أبي حنيفة ، فافتتحت قبل النظامية بأربعة أشهر ونصف تقريباً بسبب سرعة بنائها .

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام ١٠ / ٤٧٧ .

(٢) مجلة الأبحاث ١٤١ / ٤ / ٥١٠ .

وكان إنشاء النظامية ومدرسة أبي حنيفة فائحة لقيام عدد من الموسرين والحكام بإنشاء عدد كبير من المدارس على نمطها في الحقبة التالية ، فانتشرت ببغداد وغيرها مجموعة كبيرة من المدارس كما سيأتي بيانه . وفي الوقت الذي انتشرت فيه المدارس التي يختص كل منها بتدريس فقه معين منطلقة من العراق ، ظهرت في العراق لأول مرة في تاريخ الحركة التعليمية مدارس مشتركة تفتى بتدريس أكثر من فقه واحد منذ نهاية القرن الخامس الهجري ثم جمعت المذاهب الفقهية لأول مرة في تاريخ التعليم عند العرب في المدرسة المصنعية .

المبحث الرابع

خصائص المدارس ونظمها

كانت للمدارس خصائص تميزها عن المؤسسات الأخرى من حيث استقلال البناء وهندسته ، وإيقاف الوقوف عليها ، وإلحاق الأقسام الداخلية بها ، وإدارتها ، وتقدير المعاليم (الرواتب) للمدرسين والطلبة والعاملين فيها ، وتعيين المدرسين ، وقبول الطلبة .

١- يلاحظ بادئ ذي بدء أنَّ المدارس إنما أُسست لتدريس الفقه على المذهب الذي نص عليه وقفها ، وأنه لم يقصد من تأسيسها تدريس علوم أخرى . على أنَّ طلبة الفقه بحاجة إلى علوم مساعدة كالحديث والعربية مما تتطلبه الدراسة الفقهية العالية ، فكان يعين فيها نحوي أو محدث لهذا الغرض . ونحن إن تمعنا بنص وقفية نظام الملك على المدرسة النظامية مثلاً وجدنا العبارة الآتية : « أنها وقف على أصحاب الشافعي أصلاً وفرعاً ، وكذلك الأملاك الموقوفة عليها شرط فيها أن يكون على أصحاب الشافعي أصلاً وفرعاً ، وكذلك شرط في المُدرِّس الذي يكون بها والواعظ الذي يعظ بها ومتولي الكتب ، وشرط أن يكون فيها مقرر يُقرئ القرآن ونحوي يدرس العربية ... »^(١) . فهذا النص يظهر أنَّ « المدرس » واحد ، وهو مدرس الفقه (أستاذ الكرسي) . ثم أن وجود إيوان (قاعة محاضرات) واحد في المدرسة الأحادية المعنية بتدريس فقه معين يشير إلى هذا الأمر . وكان الأمر كذلك حتى في المدرسة المستنصرية ، فعلى الرغم من الدراسة الواسعة النفيسة التي قام بها أستاذنا العلامة الدكتور ناجي معروف يرحمه الله لهذه المؤسسة

(١) ابن الجوزي : المنتظم ٩ / ٦٦ .

ومحاولته الجادة إثبات أن هذه المدرسة كانت تضم أقسامًا علمية هي أقسام الفقه والقرآن والحديث والعربية والطب ، فإن الحقائق تشير إلى أنها قد أسست أصلاً لتدريس فقه المذاهب الأربعة وأن شيخ الحديث والنحوي وملقن القرآن والطبيب لم يكونوا مدرسين أساسيين فيها ، ودليلنا على ذلك :

أ - أن هندسة البناء لم تشمل قاعة لشيخ الحديث ولا لصاحب العربية . أما دار القرآن فاسترجم الدكتور ناجي معروف أنها بناية مستقلة تجاور المستنصرية وتسبقها ومكانها اليوم جامع الآصفية والسوق التي بين هذا الجامع وبناية المستنصرية الحالية^(١) . وأما الطبيب فكان يجلس على صُفَّة تحت إيوان الساعات قبالة المدرسة وليس في داخلها ، وأن هذه البناية قد شُيّدت بعد افتتاح المدرسة بستين^(٢) ، فهاتان البنايتان إذن ليستا من المدرسة .

ب - ويلاحظ أن الرُّواتب الشهرية التي خصصها الواقف لكل واحد من مدرسي الفقه والتأطّر هي (١٢) دينارًا ، وأمير المكتبة عشرة دنائير ، بينما كانت مخصصات شيوخ القرآن والحديث والعربية والطبيب هي ثلاثة دنائير فقط ، في الوقت الذي كان صاب الفقه يتقاضى دينارين أي ثُلثي راتب هؤلاء الشيوخ ، وهو أمر يدل على أنهم لم يكونوا مدرسين أساسيين .

٢- قامت هندسة جميع المدارس على تخصيص إيوان (قاعة المحاضرات) لمدارس الفقه في المدرسة الأحادية أو عدة أواوين على حسب عدد المذاهب الفقهية . كما رُوعي فيها تخصيص مساكن للطلبة وبعض العاملين فيها . والمدرسة تتميز عن مدارس المساجد بهذين العصرين الأساسيين وهما : المكان المخصص

(١) تاريخ علماء المستنصرية ١ / ٣٠١

(٢) المصدر نفسه : ١ / ٣٨٧ .

للدروس والمكان المخصص للسكن في وحدة معمارية وإدارية واحدة . ثم نجد بعد ذلك إضافات أخرى حسب طبيعة المدرسة ورغبة منشئها ، فقد يخصص مكان لخزانة الكتب ، أو لمسجد داخل المدرسة ، أو مطبخ ، أو مرافق صحية ، أو قد تخصص فيها دار لسكنى المدرس كما في مدرسة زمرد حاتون .

٣. كان الذي يقوم بإنشاء المدرسة عادة أحد العلماء أو الموسرين من الحكام أو الأمراء أو التجار ، فيقدم المال اللازم لبنائها وتأسيسها ، ثم يوقف عليها الوقف الدارة من عقارات أو أراض زراعية ، وكان منشئ المدرسة يعهد بإدارة وقفها إلى واحد أو أكثر ، وكثيراً ما كان مدرس المدرسة هو الذي ينظر في وقفها . وكانت أموال الوقف تُصرف على المدرس والعاملين في المدرسة وعلى طلابها حيث تقدم لهم الرواتب أو المأكل والسكن المجاني أو كليهما . وقد كان حبس الأوقاف على المدارس من الخطط القويمة لضمانديمومتها بعد وفاة المؤسس .

٤. وتلحق بالمدارس الكبرى غالباً خزانة كتب ، يرتب لها ناظر ، يفيد منها المدرس والعاملون والطلبة كما في مدرسة أبي حنيفة ومدرسة ابن الجوزي ، والمدرسة النظامية ، والمدرسة المستنصرية وغيرها .

٥. وكان المؤلف أن يقوم منشئ المدرسة بتعيين مدرستها وناظرها والعاملين فيها ، ثم يزول الأمر بعد وفاته إلى مدراء الوقف ، أو صاحب السلطة النافذة في الدولة . وتكون مدة تعيين المدرس في الأغلب مدى الحياة إلا إذا حدثت بعض التدخلات . وكان المدرس في بعض الأحيان هو الذي يتارل عن تدريسه في مدرسة ما إلى أحد تلامذته المُجِب بعد استشارة المتولي . وقد تُراعى اعتبارات أخرى في تعيين المدرسين كأن يتولى الابن مكان أبيه ، لاسيما

إذا كان المدرس هو صاحب المدرسة أو المتولي لها . وكان يُراعى في اختيار المدرس أن يكون ممن فاق أقرانه في علمه وتميز وأصبحت له منزلة علمية مرموقة تؤهله لمثل هذا المنصب ، كما كان يُراعى في اختياره اتفاق مذهبه أو عقيدته مع شرط الواقف ، وإن كانت بعض هذه الأمور تتجاوز لأسباب متعددة . وكان الاحتفال بتعيين مدرسي المدارس يتمثل بحضور العلماء والفقهاء وبعض أرباب الدولة ومن لهم علاقة بالمدرسة الدرس الافتتاحي الذي يلقيه المُدرِّس ، وغالبًا ما يكون هذا الدرس متنوع المواد ليدلّل به المدرس على تبحره في فنون العلم ، وغالبًا ما تولم الولاة بهذه المناسبة .

٦. أما العمر المناسب الذي يؤهل الطالب للدخول إلى المدارس فكان يختلف من مدرسة إلى أخرى . غير أن المدارس المشهورة كمدرسة أبي حنيفة والمدرسة النظامية والمستنصرية كانت لا تقبل إلا الطلبة الذين نالوا قسطًا كافيًا من المعرفة الأولية . وتشير الدراسات التي قمنا بها لعدد من الطلبة في هذه المدارس أن أعمارهم كانت تتراوح بين الثامنة عشرة والثانية والعشرين عند دخولهم إليها ، وقد نجد سُدودًا عن هذه القاعدة إذ قد ينتسب بعض الطلبة الأدكياء قبل هذه السن بقليل ، أو قد يتأخر الطالب في طلب العلم الأولي فلا يدخل إلا بعد بلوغه سنًا متقدمة .

ولما كان الطالب يتقاضى قسطًا من وقف المدرسة فقد كانت عليه مجموعة من الالتزامات التي يتعين التمسك بها ، فكان عليه حضور الدروس بانتظام ، وتتبع موضوعاتها ، والمشاركة في المناظرات داخل الدرس ، وعدم الإخلال بأدب الدراسة ، ونحو ذلك .

المبحث الخامس

أهمية المدارس

كان العلماء وطلبة العلم يمتحنون المهن التي يعيشون منها في الأغلب ، لذلك كانت أحوالهم الاقتصادية سيئة من حيث العموم ، نظراً لانصرافهم إلى كسب العيش وتخصيص قسم كبير من وقتهم للدراسة . وقد بينا فيما سبق الحالة البائسة التي كان عليها طلبة العلم من شظف العيش والفاقة التي تفوق الوصف ، وما كانوا يكابدونه من مشقة في طلب العلم وتتبع الأساتذة في أماكن تواجدهم ، فكان إنشاء المدارس ووقف الوقوف عليها وتعيين المعاليم لمدرسيها وطلبتها يمثل إغراءً قوياً لمن لم تكن لديهم الوسائل للتفرغ للدراسة بما توفره لهم من مسكن ومأكل ، ففضّل بعض طلبة العلم المدرسة على المسجد الذي لا يقدم المعاليم والإعانات ، ولا يتوفر فيه السكن .

وقد نظمت المدارس التعليم بشكل أفضل مما كان عليه سابقاً ، فقد أصبح الطالب مستقراً في مكان واحد لمدة طويلة يستطيع بها أن يتزود بعلم جم من غير عناء التنقل ، كما تحلّص من مشكلة وفاة الأستاذ قبل إكمال الدراسة المبهجة عليه حينما أصبحت المدرسة هي المسؤولة عن استقدام المدرس ، يضاف إلى ذلك أن استقرار أسس العلوم الفقهية في كتب معتمدة وتوفر تراث كتابي ضخم قد يسر اتخاذ المقررات التدريسية ، فكان المدرس يدرس كتاباً مقررّاً لأحد العلماء الكبار أو يُعد محاضرات بموضوع الدرس تسمى « تعليقة » تشمل جميع المدة التي يقضيها الطالب في المدرسة .

غير أن كثيراً من الباحثين بالغوا في الدور الذي قامت به المدارس في نمو الحركة الفكرية العربية ، فقد نشأت هذه الحركة وازدهرت واستقرت أسسها

وأتت أكلها في القرون التي سبقت المدارس . وقد ألف الحطيب البعدادي تاريخاً ضخماً في علماء بغداد بلغ ستة عشر مجلداً وتضمن آلاف العلماء منذ تأسيس المدينة الى قريب وفاته سنة ٤٦٣ هـ وليس فيهم واحد تلقى علمه في مدرسة وفيهم صفوة العلماء الذين برعوا في العلوم الدينية والدنيوية ووضعوا أسسها . ثم إن هذه المدارس عُثيت بجانب واحد من جوانب المعرفة هو الفقه وأصوله ولم تمتس حتى العلوم المساعدة له إلا مساً خفيفاً ، في حين بقيت جميع العلوم الدينية والدنيوية الأخرى بعيدة عن المدارس . ومع أن بعض المعاهد القليلة جداً قد عُثيت بعلوم القرآن والحديث والطب في عصور متأخرة كدور الحديث ودور القرآن وبعض المدارس الطبية ، فإنها في الحقيقة لم تسهم إلا إسهاماً ضئيلاً في نشاط الحركة الفكرية .

يضاف إلى ذلك أن التعليم الحر يوفر فوائد جمة ، حيث يستطيع المدرس فيه أن يدرس ما يشاء وما يراه ضرورياً ، وأن يُقِيل عليه الطلبة بسبب منزلته العلمية فقط فيعتني بتطوير معلوماته ومعارفه التي تنعكس على طلبته ، على عكس المدرس في المدرسة التي صار يتخذ التدريس مهنة له ، وصار يتناول على التدريس بالمدارس من ليس أهلاً لذلك ، لذلك روي عن بعض العلماء فيما وراء النهر أنهم لما بلعهم تأسيس المدارس ببغداد « أقاموا مأتم العلم وقالوا : كان يشتغل به أرباب الهمم العالية والأنفس الزكية يقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علماء ينتفع بهم ويعلمهم ، وإذا صار عليه أجره تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل فيكون سبباً لارتفاعه »^(١) .

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون ١ / ٢٢ .

ولما كان الذي يعين المدرس ويعزله هو صاحب المدرسة ، فإنه يستطيع أن يطلب توجيه الدراسة الوجهة التي يرتضيها مما لا يمكن تحقيقه خارج المدارس ، ففي سنة ٦٤٥ هـ طُلب إلى مدرسي المستنصرية ألا يدكروا شيئاً من تصانيفهم ولا يلزموا الفقهاء (الطلبة) بحفظ شيء منها بل يدكروا كلام المشايخ^(١) .

إن كثرة انتشار المدارس في القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) لم يؤثر على استمرار نشاط التعليم الحر في المساجد والجوامع والبيوت وغيرها ، فلقد استمرت الدراسة الحرة هي الأساس الذي قامت عليه الحركة الفكرية العربية ، فالإحصائيات التي أجريناها على العلماء في كُتُب التراجم المتنوعة التي عُنت بسير العلماء وأخبارهم بعد ظهور المدارس تشير بكل وضوح إلى أن الذين تلقوا علومهم في المدارس كانوا قلة قليلة قياساً بمن تلقى العلم خارجها .

لقد أشار ابن الحاج في مطلع القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) في كتابه « المدخل إلى الشرع الشريف » إلى تفضيله المسجد على المدرسة على الرغم من انتشار المدارس في زمانه ، فقال : « لا يخلو موضع التدريس من ثلاثة أحوال : إما أن يكون بيتاً أو مدرسة أو مسجداً ، وأفضل مواضع التدريس المسجد ، لأن الجلوس للتدريس إنما فائدته أن تظهر به سنة أو تخمد به بدعة أو يتعلم به حكم من أحكام الله عليا . والمسجد الذي يحصل فيه هذا العرض متوفر لأنه موضع الناس رفيعهم ووضيعهم وعالمهم وجاهلهم بخلاف البيت

(١) الكتاب المسمى بالحوادث ٢٦٨ (بتحقيقنا) .

فإنه محجور على الناس إلا من أٌبِح له وذلك لأناس محصوصين ، وإن كان العالم قد أباح بيته لكل من أتى لكن جرت العادة أن البيوت تُحترم وتُهاب ، فكان المسجد أولى لأنه أهم في توصيل الأحكام وتبليغها للأمة ... وأن المدرسة لا يدخلها في الغالب إلا آحاد الناس بالنسبة للمسجد ، لأنه ليس كل الناس يقصد المدرسة وإنما يقصد أعمهم المساجد ^(١) .

بعد كل هذا الذي قدّمنا نعود فنقول : إنّ الأستاذ والكتاب هما الدعامتان اللتان قامت عليهما مُجمل الحركة الفكرية العربية قبل تأسيس المدارس وبعدها .



(١) المدخل إلى الشرع الشريف ١ / ٨٥ .

الفصل الرابع

مدارس القرآن في عصر العباسي

تمهيد

أخذت المدارس بالانتشار منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري في بغداد والمدن العراقية الأخرى^(١).

وسمحاول أن تذكر هذه المدارس على وجه الاختصار مرتبة على المدن أولاً ثم استناداً إلى تسلسلها الزمني في كل مدينة منها ، فنذكر من كل مدرسة ما يبين شأنها .

(١) انظر عن مدارس بغداد كتب الدكتور ناجي معروف « تاريخ علماء المستنصرية » مجلدان ، بغداد ١٩٦٥ ، و « المدارس الشراعية ببغداد وواسط ومكة » ، بغداد ١٩٦٥ ، و « شأه المدارس المستقلة في الإسلام » ، بغداد ١٩٦٦ ، وعلماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي ، بغداد ١٩٧٣ ، وكتاب « مدارس بغداد في العصر العباسي » للدكتور عماد عبد السلام رؤوف ، بغداد ١٩٦٦ ، و « أول مدرسة في العراق » للدكتور مصطفى حواد ، المعلم الجديد ، العدد (١) سنة ١٩٤٠ ، و « ضوء جديد على أوقاف المستنصرية » للدكتور ناجي معروف ، الأعلام م ٢ ، ١٩٦٥ ، إضافة إلى ما اعتمدته من مصادر كثيرة مخطوطة ومطبوعة .

المبحث الأول

مدارس بغداد

١- مدرسة مشهد أبي حنيفة ٤٥٩ هـ - ١٠٦٧ م

وتسمى أيضًا المدرسة الشَّرَفِيَّة ؛ نسبة إلى منشئها شرف المُلْك أبي سَعْد محمد بن منصور العميد الحواري مستوفي مملكة السلطان ألب أرسلان السلجوقي المتوفى سنة ٤٩٤ هـ ، أنشأها بجوار مشهد أبي حنيفة^(١) .

وهي أول مدرسة افتتحت ببغداد في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٤٥٩ هـ أي قبل النظامية بأربعة أشهر ونصف تقريبًا . وكان وقعها أكثر أهمية من وقف النظامية .

كانت هيئة المدرسة تتكون من « المدرس » ، وهو الذي يدير أوقافها أيضًا ، ومن دونه معيدون ، وإداريون ، ومساعدون ، وإمام يقيم الصلوات . كما كانت تحتوي على مكتبة خاصة بها يشرف عليها خازن ، وبذلك فهي لا تختلف عن المدرسة النظامية من حيث الإدارة والتنظيم .

وأول من عُيِّن للتدريس فيها أبو طاهر إلياس بن ناصر بن إبراهيم الديلمي ، وهو من كبار الفقهاء الذين تخرجوا بالصُّيمري وأبي عبد الله الدَّامعاني ، وكان قبل هذا قد دَرَس الفقه بواسط ، ورأس حَلَقَةً بجامعة القصر ، ثم صار مدرسًا للفقه بمسجد الصُّيمري ، وقد استمر أبو طاهر مدرسًا بها إلى حين وفاته سنة ٤٦١ هـ^(٢) ، فحلَّفه فيها نور الهمداني أبو طالب الحسين بن محمد بن علي

(١) ابن الجوزي : المتظم ٩ / ١٢٨ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ١٩ / ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) الفرشي : الجواهر السنية ١ / ١٦٣ نقلًا من تاريخ ابن الجار .

الزبيني القمّاسي الذي دُرّس فيها إلى حين وفاته سنة ٥١٢ هـ أي قرابة اثنين وخمسين عامًا ، وكان من أعظم علماء عصره بفقّه مذهبه^(١) . وتوالى بعد ذلك عدد من المدرسين للتدريس فيها ممن عُرفوا باتساع معارفهم الفقهية ومنزلتهم البارزة منهم : إسماعيل بن عبد الرحمن اللمغاني (ت ٥٣٦ هـ) ، وأبو القاسم الرّبيعي (ت ٥٤٣ هـ) ، وزين الأئمة أبو الفضل محمد بن محمد ابن الحسين الحنفي (٥٤٦ هـ) ، وأبو العائمه شجاع بن الحسن البغدادي (ت ٥٥٧ هـ) ، وأبو الحسن مسعود بن الحسين اليزيدي (ت ٥٧١ هـ) ، وأبو المحاسن ابن الكيال الواسطي (ت ٦٠٥ هـ) ، وضياء الدين التركستاني (ت ٦١٠ هـ) ، وغيرهم^(٢) .

وتعد هذه المدرسة أطول مدارس بغداد عُمرًا على الإطلاق ، لأنها مازالت موجودة إلى يومنا هذا بالرغم من الظروف القاسية التي مرت بها بغداد بعد سقوط الدولة العباسية . ولم تكن هذه المدرسة أقل شأنًا من النظامية وإن كانت كثرة إشارة المصادر إلى تعيين وعزل المدرسين بالنظامية قد يوحي أول وهلة إلى أهميتها لكن ليس من دليل تاريخي يثبت أية ميزة للنظامية عليها . وقد اشتهرت خزانة كتب هذه المدرسة ، فقد أوقف منشؤها مجموعة من الكتب النفيسة أشار إليها المؤرخون^(٣) فكان من جملة ما اشتملت عليه من الكتب الفخمة تفسير كبير لأبي يوسف عبد السلام بن محمد القزويني المتوفى

(١) ابن الجوزي : المتطعم ٩ / ٢٠١ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ / ٥٤٥ ، القرشي الجواهر ٢١٩ / ١ .

(٢) ينظر كتاب ابن خالتي الأستاذ وليد الأعظمي : مدرسة الإمام أبي حنيفة (المجموعة الكاملة ، المجلد الثالث ص ١٣٤٥ فما بعد) ، بيروت ٢٠٠٧ م .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ١٠ / ٢٤٨ ، ابن الساعي : الجامع المختصر ٩ / ٢٣٦ .

سنة ٤٨٨ هـ أقل ما وصف أنه في ثلاث مئة مجلدة^(١) ، وأكثر مؤلفات الجاحظ^(٢) . وأوقف ابن جزلة الطيب البغدادي المشهور المتوفى سنة ٤٩٣ هـ كتبه على هذه المكتبة^(٣) وكذلك فعل العالم الكبير والمفسر الشهير جابر الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ^(٤) . وكان لها فهرست بأسماء الكتب الموقوفة فيها اطلع عليه ابن الجوزي^(٥) .

٢ - المدرسة النظامية ٤٥٩ هـ - ١٠٦٧ م^(٦)

أمر بإنشائها الوزير الكبير نظام الملك الحسن بن علي المقتول بأيدي الباطنية سنة ٤٨٥ هـ ، وهي واحدة من مجموعة المدارس الكثيرة المعروفة بالنظاميات التي أقامها هذا الوزير الفاضل . وقد ابتدأ بناؤها في ذي الحجة سنة ٤٥٧ هـ وتم افتتاحها في العاشر من ذي القعدة سنة ٤٥٩ هـ ، وكانت تقع قرب شاطئ دجلة فوق دار الخلافة العباسية بينها وبين المستنصرية . ولعل موقعها سوق الخفافين قرب المكان الذي مازال يُعرف بقهوة الشط بين جامع الوقائية شرقاً ونهر دجلة غرباً وخان الباجه جي من الشمال وشارع السمؤال من الجنوب .

(١) القرشي : الجواهر المضيئة ١ / ٣١٦ .

(٢) تنظر مقدمة عبد السلام هارون لكتاب الحيوان للجاحظ .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ٩ / ١١٩ ، القفطي أخبار الحكماء ٣٦٦ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٦ / ٢٦٨ .

(٥) صيد الخاطر ٣٦٧ .

(٦) تنظر تفاصيل عنها في كتاب « علماء النظاميات » للعلامة الدكتور ناجي معروف (بغداد ١٩٧٣) .

بُنِيَ نظام الملك هذه المدرسة برسم الفقيه الكبير أبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي ثم البغدادي المتوفى سنة ٤٧٦ هـ أعظم علماء بغداد الشافعية آنذاك ، وأوقف عليها كتباً وضياعاً وأملاكاً وسوقاً بُنيت على بابها ، وجعل إدارتها بيده وبأيدي أبنائه من بعده ، وقرر أن يكون فيها مدرس (أستاذ كرسي الفقه) ، وواعظ ، ومدير مكتبة ، ومقرئ للقرآن الكريم ، ونحوي يدرس العربية . وجعل لكل واحد من هؤلاء قسماً من الوقف ، وقرر للطلبة مخصصات يعيشون عليها فضلاً عن سكناهم داخل المدرسة ، وشرط فيهم جميعاً أن يكونوا على مذهب الشافعي أصلاً وفرعاً .

وقد نالت المدرسة النظامية صيتاً ذائعاً في كل أنحاء العالم الإسلامي ، وتولى التدريس فيها أكابر العلماء ممن كانت لهم اليد الطولى في تطوير الحركة الفكرية العربية وإنعاشها بما تركوا من مؤلفات نفيسة أصبحت من أمهات الكتب المعتمدة في العصور التالية ، وبما ألقوا من محاضرات معمقة ، وبما خرّجوا من طلبة نجباء كان للنظامية فضل كبير على تكوينهم الفكري وعلو منزلتهم العلمية ، ومنهم جمهرة كبيرة من غير العراقيين . ومن المدرسين فيها بعد أبي إسحاق الشيرازي : أبو سَعْد المتولي (ت ٤٧٨ هـ) والشريف أبو القاسم الدبوسي العلوي (ت ٤٨٣ هـ) ، وأبو عبد الله الحسين بن علي الطبري (ت ٤٩٥ هـ) ، وأبو الحسن علي بن محمد الطبري المعروف بالكيا الهرّاسي (ت ٥٠٤ هـ) ، والإمام الشهير أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) ، وأبو بكر محمد بن أحمد الشاشي المشتظهري (ت ٥٠٧ هـ) ، ومعين الدين الرزاز (ت ٥٣٨ هـ) ، وأبو الفتح أسعد بن أبي نصر البيهقي العمري (ت ٥٢٧ هـ) ، وأبو أسعد أحمد بن محمد الحُجَنْدي (ت ٥٣١ هـ) ،

وابن فضلان (ت ٥٩٥ هـ) ، وغيرهم ممن رخرت بهم كُتُب التراجم .
ومن مشاهير الطلبة الذين قصدوها من خارج العراق ودرسوا فيها : أبو
محمد عبد الله بن يحيى بن بُهلول السُرْقُشِيّ المتوفى سنة ٥١٠ هـ ، وأبو
الفضل محمد بن عبد الكريم القَزْوِينِي الرّافعي المتوفى سنة ٥٨٠ هـ وغيرهم .
واشتهرت المدرسة النظامية بخزانة كُتُبها النفيسة التي أوقفها نظام الملك
والتي كان يُشرف عليها خازن يتقاضى سبعة دنائير في الشهر ومشرف يتقاضى
ثلاثة دنائير ، وذكر ابن الجوزي أنه وقف على فهرست الكتب الموقوفة بها
فوجده يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد^(١) .

وقد عُرفت هذه الخزانة بالخزانة العتيقة لأن الخليفة الناصر لدين الله أنشأ
خزانة كُتُب أخرى بالمدرسة النظامية سنة ٥٨٩ هـ ، ونقل إليها الآلاف من
الكتب النفيسة من خزانة كتبه الخاصة . ونقل مؤرخ الإسلام شمس الدين
الذهبي عن تاج الدين ابن الساعي أن محب الدين ابن النجار المؤرخ البعدي
المشهور المتوفى سنة ٦٤٣ هـ قد أوصى بوقف كتبه في المدرسة النظامية^(٢) .
وذكر ابن كثير في ترجمة ابن النجار أنه أوقف خزانتين من الكتب بالنظامية
تساوي ألف دينار ، فأمضى ذلك الخليفة المستعصم^(٣) .

٣ - مدرسة فخر الإسلام الشّاشي بقراح ظَفَر : قبل سنة ٤٨٢ هـ -

١٠٨٩م

من مدارس الشافعية ، منسوبة إلى الإمام الكبير فخر الإسلام أبي بكر محمد

(١) صيد الخاطر : ٣٦٦ .

(٢) تاريخ الإسلام : ٤٨٠ / ١٤ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣ / ١٦٩ .

ابن أحمد بن الحسين الشاشي الفقيه الشافعي (٤٢٩ - ٥٠٧ هـ / ١٠٣٨ - ١١١٤ م) ، قال تاج الدين السبكي : « وكان فخر الإسلام يدرس أولاً في مدرسة لنفسه لطيفة بناها بقراح ظفر فلما تئى تاج الملك أبو العنائم مدرسته بباب أبرز رتبته مدرساً بها »^(١) .

وكانت محلة قراح ظفر من محال الجانب الشرقي ، موقعها اليوم شمالي مدينة بغداد ، شمالي محلة الفضل الحالية بلصق السور . ولم يرد أي خبر عن هذه المدرسة بعد الشاشي فكأنها تركزت .

٤ - المدرسة التاجية : ٤٨٢ هـ - ١٠٨٩ م

من مدارس الشافعية ، أنشأها تاج الملك أبو العنائم المَوزُبان بن خسرو مستوفي مملكة السلطان ملكشاه السَلْجُوقي في محلة باب أبرز عند قبر الشيخ أبي إسحاق الشرازي (بين محلة الفضل وتبة الكُرد الحالية) .

وتم افتتاحها في محرم سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م ورُتّب فخر الإسلام أبو بكر الشاشي مدرساً فيها ، قال ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٨٢ هـ : « في تاسع عَشر المحرم دُرس أبو بكر الشاشي في المدرسة التي بناها تاج الملك أبو العنائم بباب أبرز ووقفها على أصحاب الشافعي وسمّاها التاجية »^(٢) ، وقال الذهبي في ترجمته من « تاريخ الإسلام » : « وولي تدريس النظامية ببغداد بعد شيخه (أبي إسحاق الشيرازي) وبعد ابن الصباغ والغزالي ، ثم وليها بعد موت إلكيا الهراسي سنة أربع وخمسة مئة في المحرم

(١) طبقات الشافعية : ٦ / ٧٢ .

(٢) المتنظم : ٩ / ١٧٩ ، والذهبي : تاريخ الإسلام : ١٠ / ٤٧٢ .

وَدُرِّسَ بمدرسة تاج الملك وزير ملكشاه^(١) .

ولم تسعفنا المصادر بأسماء المدرسين الذين تولوا التدريس بها بعد فخر الإسلام الشاشي ولكن ذكرها استمر في المصادر ، فقد وعظ بها جماعة من الوعاظ^(٢) وصُلِّيَ فيها على بعض الجنائز ، وكانت موجودة قبيل سقوط بغداد ، فقد جاء في حوادث سنة ٦٥٠ هـ من الكتاب المُسمى بالحوادث : « وفيها كتب أفضى القضاة سراج الدين التهرقلي إلى الوزير يذكر أنَّ المدرسة التَّاجية قد استولى عليها جماعة من العوام وسكنوا بها وصارت لهم بمنزلة الملك يتابعون بها ويسكنها النساء ، وتَجْرِي فيها أمور ، فتَقْدَمُ بإخراجهم فأخرجوا وشُلِّمَتْ إليه فرُبَّ فيها مدرسا وفقهاء^(٣) .

٥ - مدرسة تُركان خاتون : قبل سنة ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م .

من مدارس الشافعية ، أمرت بإسائها تُركان خاتون الجلالية زوجة السلطان ملكشاه السلجوقي وأم السلطان محمود المتوفاة في رمضان سنة ٤٨٧ هـ . وقد شيدتها في الجانب الشرقي من بغداد عند دار السُلْطمة السلجوقية بالمُحَرَّم (العواضية) ، ثم هُدمت مع ما هدم من أبنية مجاورة بأمر الخليفة المستظهر بالله العباسي سنة ٤٩٦ هـ ولا نعلم شيئا عن المدرسين بها^(٤) .

(١) تاريخ الإسلام : ٩١ / ١١ .

(٢) تاريخ الإسلام : ٩١٩ / ١١ و ٢٣٨ / ١٢ .

(٣) كتاب الحوادث : ٣٠٥ - ٣٠٦ (بتحقيقنا) .

(٤) ترجمة تُركان خاتون في وفيات سنة ٤٨٧ هـ من المتنظم (٨٤ / ٩) ، وحبر هدمها فيه أيضًا ٩

٦ - مدرسة الأمير سعادة الرسائلي : قبل سنة ٥٠٠ هـ - ١١٠٦ م
 من مدارس الحنفية أمر بإنشائها خادماً الحليفة المستظهر بالله الأمير عز
 الدين أبو الحسن سعادة بن عبد الله الرؤمي المستظهري الرسائلي المتوفى سنة
 ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م^(١) ، وموقعها في الجانب الشرقي عند موقع المحاكم
 المدنية . وقد بقيت هذه المدرسة قائمة تُلقَى فيها الدروس إلى أواخر القرن
 السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، ولها ذكر في حوادث سنة ٥٣٨
 من « المتنظم »^(٢) .
 وممن درّس فيها أصيل الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن غازي الحموي
 المولد قاضي واسط المتوفى سنة ٦٣٨ هـ^(٣) .
 كما درّس بها القاضي بدر الدين علي بن محمد ابن ملاق الرقي وكان فيها
 إلى سنة ٦٨٣ هـ في الأقل^(٤) .
 وكان في هذه المدرسة نخوي يُدرّس النحو فممن درس النحو فيها فخر
 الدين أبو جعفر أحمد بن عُبيد الله بن الحسين بن أحمد بن جعفر الآمدي
 الصوفي المقتول بواقعة بغداد سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨ م^(٥) .
 كما كانت فيها مساكن للطلبة ، فقد سكن فيها الفقيه أحمد بن محمد بن

(١) ترجمته في تلخيص مجمع الآداب لابن الفوطي ٤ / فترجة ١٨٧ .

(٢) المتنظم : ١٠ / ١٠٨ .

(٣) ابن النجار : عقود الجمان ٧ / الورقة ١٧٦ ، والقرشي : الجواهر ٢ / ٩٥ .

(٤) ينظر كتاب الحوادث ٤٦٦ ، ٤٧٨ .

(٥) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / فترجة ١٩٥٧ .

علي المدائني المعروف بابن الكُجُلُو المتوفى سنة ٥٧٨ هـ^(١) .

٧ - المدرسة التثنية : قبل سنة ٥٠٨ هـ - ١١١٤ م

أمر بإنائها الأمير نجم الدولة خمارتكين بن عبد الله التثني المتوفى في الرابع من صفر سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م^(٢) في مشرعة دُزْب دينار ، في موقع جامع الوزير عند الجسر اليوم ، لتدريس الفقه الحنفي وتشير أخبار مدرسيها بأنها كانت موجودة حتى منتصف القرن الثامن الهجري .

وممن درس بها أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد السلام بن الحسن اللُّمَعاني الحنفي المتوفى سنة ٥٥٤ هـ قال ابن الدُّيُثي : « من أهل محلة أبي حنيفة ... ودرس بالمدرسة التثنية بمشرعة درب دينار ، وتخرج به جماعة »^(٣) ، والفقيه علم الدين أبو زكريا يحيى بن المظفر بن الحسن بن بركة بن محرز البغدادي الحنفي المتوفى سنة ٦٢٥ هـ^(٤) ، وفخر الدين أبو العز يوسف بن أحمد بن يوسف الحلبي الذي تولى نيابة التدريس بها سنة ٦٣٣ هـ^(٥) ، وأبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن القُرشي العدوي الثُمري الصاغانى صاحب « الغياب » المعجم المشهور ، تولى تدريسها

(١) الجواهر المضية ١/ ١١٢ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٢ / ١٥ .

(٣) ديل تاريخ مدينة السلام ١ / ٤٠٤ .

(٤) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٩٢٣ ، وترجمته في تكملة المنذري ٣ / الترجمة ٢٢١٩ .

(٥) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٩٢٣ ، وتوفي بوقعة التتار بحلب سنة ٦٥٨ هـ كما في تاريخ الإسلام ١٤ / ٩٠٢ ، وصلة التكملة للحسيني ١ / ٤٢٨ .

سنة ٦٤٢ هـ^(١) ، وشمس الدين محمد بن عُبيد الله الهاشمي الكوفي المتوفى سنة ٦٧٥ هـ^(٢) ، ومجد الدين أبو المظفر الحسين بن محمد بن أحمد الدامغانّي البغداديّ عُضْرِيّ ابن الفوطي^(٣) .

٨ - مدرسة أنخْرمي (مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلي) : قبل ٥١٣ هـ

١١١٩ م

أنشأها الفقيه أبو سعد المبارك بن عليّ بن الحسين المُخْرَمي (٤٤٦ - ٥١٣ هـ) بأقصى باب الأزج (في جامع الشيخ عبد القادر حاليًا) ، وكرّس بها الفقيه الشهير الشيخ عبد القادر بن أبي صالح الجيلي ووسّعها ففرت به ، قال الذهبي في « تاريخ الإسلام » : « المُبارك بن عليّ بن الحسين أبو سعد المُخْرَمي الفقيه الحنبلي ، أحد شيوخ المذهب . ولي القضاء بباب الأزج ، وكان إمامًا مُفتيًا ، ذكيًا ، كثيرَ المحفوظ ، جميل السيرة ، مليح العشرة . تفقه على الشريف أبي جعفر بن أبي موسى الهاشمي ، وعلى القاضي يعقوب بن إبراهيم المُكْبَرِي ... وتفقه به جماعة كثيرة ودُفن بجانب الروذي ، وبني مدرسة بباب الأزج ثم شُهرت بالشيخ عبد القادر تلميذه »^(٤) . وقال ابن رجب : « وبُني مدرسة بباب الأزج ... والمدرسة المذكورة التي بناها هي المنسوبة الآن إلى تلميذه الشيخ عبد القادر الجيلي لأنّه وسّعها وسكن بها ففرت به »^(٥) .

(١) كتاب الحوادث : ٢٣٠ ، ٣٠٧ .

(٢) كتاب الحوادث : ٤٢٧ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ١٥ / ٢٩٧ .

(٣) ترجمة ابن الفوطي في الملقين بمجد الدين من تلخيصه .

(٤) تاريخ الإسلام ١١ / ٢١٢ .

(٥) الذيل ١ / ١٦٦ . ١٦٧ .

وتُعد هذه المدرسة من أقدم مدارس الحنابلة ببغداد ، وأعظمها شأنًا ، وأكثرها أوقافًا ، وأطولها عمرًا ، إذ لا تزال باقية إلى يومنا هذا ، وقد دُرّس بها بعد الشيخ عبد القادر أولاده وأحفاده فهم يتوارثون التدريس بها .

وكانت هذه المدرسة تشتمل على خزانة كتب نفيسة وضع نواتها مؤسسها القاضي أبو سعيد المُخَرَّمي ، وتمهدها بالعناية والزيادة الشيخ عبد القادر وأولاده من بعده . كما أوقف عليها بعض أهل العلم كتبهم منهم : المقرئ المشهور أبو الحسن علي بن عساكر بن المُرتَحَب البطائحي المتوفى سنة ٥٧٢ هـ ، والشيخ أبو الحسن مُرتَضَى الحارثي المقدسي المتوفى سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م أيضًا ^(١) .

٩ - مدرسة أبي شجاع البيّج : قبل ٥٢٠ هـ - ١١٢٦ م

أنشأها أبو شجاع بهرام بن بهرام بن فارس البغدادي البيّج (٤٣٠ - ٥٢٠ هـ) ، قال ابن الجوزي : « وكان كريمًا بَنَى مدرسةً لأصحاب أحمد بياب الأرج عند باب كلوذا ، ودُفن فيها ، ووقف قطعةً من أملاكه على الفقهاء وشُيِّل الخير » ^(٢) ، وقال الذهبي في « تاريخ الإسلام » : « بهرام بن بهرام بن فارس ، أبو شجاع البغدادي البيّج أحد الرؤساء والمتمولين . ولد في المحرم سنة ثلاثين وأربع مئة ، وسمع أبا القاسم التنوخي وأبا محمد الجُزْهري وغيرهما ، قال ابن السمعاني : صلح أمره في آخر عُمره وحسنت طريقته ، وكان له معروف كثير

(١) انظر تفاصيل عن هذه المكتبة في المقدمة التي كتبها الدكتور عماد عبد السلام رؤوف لفهرس مخطوطاتها الذي صنعه في أربع مجلدات .

(٢) المتنظم : ٩ / ٢٦٢ .

وصدقة جارية . قال أبو الفرج ابن الجوزي : كان سماعه صحيحاً وكان كريماً
بُنِيَ مدرسة للحنابلة بكلواذا ... (١) .

١٠ - المدرسة الموفقية سنة ٥٢٢ هـ - ١١٢٨ م .

منسوبة إلى مشيئها الخادم موفق بن عبد الله الخاتوني خادماً الخاتون
الملكشاهية زوجة الخليفة المستظهر المتوفاة سنة ٥٣٦ هـ . ولعلها هي التي
صرفت على إنشائها إذ كانت المدرسة تُعرف بها أول افتتاحها ، قال ابن الجوزي
في حوادث سنة ٥٢٢ هـ : « وفي مجمادي الآخرة رُتِبَ المُنْبِجِي في مدرسة
خاتون المُستظهرية رُتِبَ موفق الخادم » (٢) . والمبجي هذا هو الحسن بن سلامة
ابن ساعد أبو علي الخنقي من أهل منبج من الشام ، قدم بغداد واستوطنها وتفقّه
بها على قاضي القضاة الدامغاني حتى برع في الفقه ، وشهد عنده فكان من
الشهود المعدّلين ، وتولى قضاء نهر عيسى ، وتولى التدريس بهذه المدرسة سنة
٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م ، وتوفي سنة ٥٣٣ هـ (٣) . غير أنّ هذه المدرسة عُرفت فيما
بعد بالموفقية ، وتُيسبب إلى موفق الخادم ، فقد ذكر ابن الجوزي هذه المدرسة
في حوادث سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م عند تناوله خبر قتال أهل بغداد وتصدّيعهم
لبعض السلاجقة ، فقال : « كان القتال تحت مدرسة موفق » (٤) . وعرفت
بالموفقية في كتب التراجم التي ذكرت بعض مُدرّسيها .

كانت هذه المدرسة تقع في رأس درب راخي على شاطئ نهر دجلة ، فإذا

(١) تاريخ الإسلام : ١١ / ٣١٥ - ٣١٦ .

(٢) المتظّم : ١٠ / ٩ .

(٣) تاريخ الإسلام : ١١ / ٥٩٠ ، والجواهر المصنّعة ١ / ١٩٤ .

(٤) المتظّم : ١٠ / ١٣٢ .

علمنا أن درب راحي هو شارع المتنبي الحالي شارع الكتبيين المشهور ، كان موقع المدرسة عند نهايته ، مما يلي نهر دجلة ، قال جمال الدين ابن الديلمي في ترجمة مدرستها أحمد ابن المنبجي الذي تولى التدريس بها بعد والده : « أحمد بن الحسن بن سلامة بن ساعد المُنْبِجِي الأصل البغدادي المولد والدار أبو العباس بن أبي علي الفقيه الحنفي ، درس بالمدرسة الموقية التي على دجلة برأس دَرْب زَاخِي بعد أبيه ، وروى عن أبي القاسم علي بن أحمد بن بيان وغيره . سمع منه القاضي عمر القرشي وغيره ... توفي أحمد ابن المنبجي يوم الاثنين تاسع عشر شهر ربيع الآخرة سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة » (١) . وذكر ابن النجار أنه توفي سنة ٥٨٤ هـ وتابعه علي ذلك القرشي في « الجواهر » (٢) ، « والتيمي » (٣) .

ومن درس في هذه المدرسة علم الدين أبو زكريا يحيى بن المظفر بن الحسن بن مُحَرِّز البغدادي المتوفى سنة ٦٢٥ هـ وهو مدرس التَّشْبِيه أيضًا وكانت له حلقة للمناظرة بجامع السلطان (٤) . ومنهم : مجد الدين عبد الملك ابن عبد السلام اللُّمَّغَانِي البغدادي الحنفي المدرس بمدرسة مشهد أبي حنيفة أيضًا والمتوفى سنة ٦٤٨ هـ (٥) .

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ٢ / ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) الجواهر المضيئة ١ / ٦٤ .

(٣) اللطيفات السنية ١ / ٣٨٠ .

(٤) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٩٢٣ .

(٥) الجواهر المضيئة ١ / ٣٢١ ، وهو مترجم في تاريخ الإسلام ترجمة مختصرة ١٤ / ٦٠٤ .

وقد استمرت الدراسة في هذه المدرسة إلى أواخر القرن السابع الهجري ، فقد عرفنا من مدرسيها في هذه المدة مظفر الدين أبا العباس أحمد بن علي بن تغلب المعروف بابن الساعاتي المتوفى سنة ٦٩٤ هـ ، قال ابن الفوطي : « ورُتّب في منتصف ذي الحجة سنة ٦٨٢ هـ مدرّسا بالمدرسة الموقفية وحضره الأكابر والأعيان » (١) .

١١ - المدرسة المغيثة : قبل ٥٢٥ هـ - ١١٣١ م

منسوبة إلى مُغيث الدين أبي القاسم محمود ابن غياث الدين محمد بن ملكشاه السُلجوقي (٢) (٤٩٧ - ٥٢٥ هـ) ، ويقال لها مدرسة السلطان أيضًا (٣) ومدرسة السلطان محمود (٤) ، والمدرسة الغياثية (٥) . وتدل أخبار مدرسيها على أنها كانت قائمة في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، وكانت تقع على دجلة جنوب المدرسة التُشبية .

وممن دُرّس فيها : الفقيه أبو الفضل محمد بن محمد بن الحسين المعروف بزين الأئمة الضُّرير المدرّس بمدرسة مشهد أبي حنيفة نيابة والمتوفى سنة ٥٤٦ هـ (٦) ، ومجد الدين أبو الخير مسعود بن الحسين اليزدي المدرس

(١) تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ١١٢٥ .

(٢) وفيات الأعيان ٥ / ١٨٢ - ١٨٣ ، وتاريخ الإسلام ١١ / ٤٤٠ .

(٣) المتنظم : ١٠ / ٢٣٥ ، والدبل لابن الديلمي ١ / ٢٩٩ و ٢ / ١٥ .

(٤) المتنظم : ١٠ / ٢٣٦ .

(٥) تاريخ ابن الديلمي : ١ / ٢٩٩ و ٢ / ١٥ ، ٥٤٤ .

(٦) الجواهر المصينة ٢ / ١١٦ وتحرف اسم المدرسة إلى « العباسية » .

بمدرسة أبي حنيفة أيضًا والمتوفى سنة ٥٧١ هـ^(١) ، وأبو مصور محمد بن الحسين بن محمد ابن المعلم المتوفى سنة ٥٧١ هـ^(٢) ، ومنتجب الدين أبو الفضل عبد الكريم بن المبارك بن محمد البُلَدي الأصل البغدادي الحنفي المعروف بابن الصيرفي المتوفى سنة ٥٩٦ هـ ، قال المنذري : « ودرس بالمدرسة المغيشية على دجلة »^(٣) .

ومهم : فخر الإسلام أبو الفضل محمد بن محمد بن عمر البخاري المحتسب بعداد عصري ابن الفوطي ، وقد درس بها سنة ٦٧٧ هـ^(٤) ، ومجد الدين أبو الفضل محمد بن أحمد بن علي المعروف بابن الساعاتي معيد الحنفية بالمستنصرية ، ومحبي الدين أبو الفضل محمد بن يحيى بن هبة الله بن المحيا العباسي الكوفي البغدادي النقيب مدرس الفقه الحنفي بالمدرسة المستنصرية والمتوفى سنة ٧٠٣ هـ^(٥) .

لقد ذكرنا فيما تقدم أن ممن دُرِّس في هذه المدرسة مجد الدين أبو الخير مشعود بن الحسين اليزدي المدرِّس بمدرسة مشهد أبي حنيفة ، قال ابن الجوري : « ودُرِّس بمدرسة أبي حنيفة ومدرسة السلطان ثم خرج إلى الموصل

(١) المتظلم : ١٠ / ٢٦١ ، وتلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ٥٤٢ .

(٢) تاريخ ابن الديلمي ١٠ / ٢٩٨ ، والجواهر المضئية ٢ / ٥٠ وتحرف الاسم فيه إلى « العنانة »

(٣) التكملة ١ / الترجمة ٥٣٦ ، وهو قول ابن الديلمي في تاريخه ٤ / ٢٠٩ .

(٤) تلخيص مجمع الآداب : ٤ / الترجمة ٢٤١٨ .

(٥) ينظر . تاريخ علماء المستنصرية للدكتور ناجي معروف

فأقام مدة يدرس هناك وينوب في القضاء فتوفى بها في جمادى الآخرة^(١) .
وكان اليردي هذا من المدرسين بجامع السلطان ملكشاه المعروف بجامع
المدينة إضافة إلى تدريسه بالمعشية .

وفي رجب خلفه الشريف ابن ناصر العلوي في التدريس بالمعشية فحضر
درسه قاضي القضاء وغيره . والظاهر أنه لم يستمر بالتدريس بالمعشية إذ تولى
في الرابع والعشرين من الشهر المذكور التدريس بجامع السلطان بدلا من
اليزدي^(٢) ، وأعطيت المعشية لأبي منصور ابن المعلم في محرم سنة
٥٦٧ هـ^(٣) . أي بعد تولية ابن ناصر العلوي بستة أشهر تقريبا .

أما ابن ناصر العلوي فقد استمر في التدريس بجامع السلطان إلى حين وفاته
في الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٤ هـ^(٤) .

وإنما فصلت في هذا الأمر لأن محيي الدين القرشي نقل عن المنذري أن
ابن ناصر العلوي دُرّس بمدرسة السلطان إلى أن توفى^(٥) ، بينما الذي ذكره
المنذري أنه درس بجامع السلطان فأدّى هذا النقل الحاطي أو التحريف إلى
ليس ، قد يؤدي إلى أن يُعتدّ بجامع السلطان مدرسة مستقلة .

١٢ - مدرسة ابن الأبرادي : قبل سنة ٥٣١ هـ - ١١٣٧ م

كانت هذه المدرسة في الأصل دارا لأبي البركات ابن الأبرادي في البدرية

(١) المنتظم : ١٠ / ٢٦١ .

(٢) المنتظم : ١٠ / ٢٣٥ .

(٣) المنتظم : ١٠ / ٢٣٦ .

(٤) المنذري : التكملة ١ / الترجمة ٤٣١ .

(٥) الجواهر المضئية : ١ / ٣٦٨ .

(غرب الشورجة) فأوقفها مدرسة للحنابلة ، قال الذهبي في وفيات سنة ٥٣١ هـ من « تاريخ الإسلام » : « أحمد بن علي ، أبو البركات ابن الأبرادي الفقيه الحنبلي الرجل الصالح ، تفقه على أبي الوفاء بن عقيل ، وسمع من أبي الحسن الأباري ، وأبي الغنائم بن أبي عثمان وغيرهما . ووقف داراً مدرسة على الحنابلة وهي باليتيرة . روى عنه أبو المعثر الأنصاري وأشرف بن أبي هاشم . توفي في رمضان »^(١) .

وذكر مثل هذا ابن الجوزي في « المنتظم »^(٢) لكنه توهم فذكر اسم ابنه محمد بن أحمد بدلاً منه ، وكذلك ترجمه ابن رجب ترجمة مقاربة نقلاً من تاريخ ابن النجار وغيره^(٣) .

وليس في جميع هذه النصوص ما يشير إلى أنه قد دُرّس بالدار التي أوقفها ، بل لا تشير ترجمته إلى أنه كان عالماً مدرساً ، كما لم نثر على مدرس لهذه المدرسة ولا ذكر لطالب دُرّس فيها .

١٣ - المدرسة الكمالية : سنة ٥٣٥ هـ - ١١٤١ م

منسوبة إلى منشئها كمال الدين أبي الفتوح حمزة بن علي بن طلحة البغدادي الشافعي المتوفى سنة ٥٥٦ هـ أحد أعيان الدولة العباسية على عهد المسترشد بالله والمقتفي لأمر الله^(٤) ، بناها قرب داره داخل دار الخلافة العباسية

(١) تاريخ الإسلام : ١١ / ٥٤٢ .

(٢) المنتظم : ١٠ / ٧٠ .

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة ١ / ١٨٨ - ١٨٩ .

(٤) المنتظم : ١٠ / ٢٠٢ ، وتاريخ الإسلام : ١٢ / ١١١ .

عند باب العامة المتصل برحبة جامع القصر (جامع الخلفاء) ، وأوقف عليها ثلث أملاكه ، وافتتحت في شوال سنة ٥٣٥ هـ ، ودُرّس بها عالم شافعي مشهور هو أبو الحسن محمد بن المبارك ابن الخل (٤٧٥ هـ - ٥٥٢ هـ) وكان لابن الخل هذا مسجد برحبة جامع القصر يدرس فيه الفقه الشافعي على الطريقة المعروفة التي شرحناها سابقاً^(١) ، فكان كمال الدين أنشأها من أجله لينتقل من مسجده إليها ولذلك عُرفت المدرسة فيما بعده ، فيقال فيها «مدرسة ابن الخل» وقد ذكر ابن الجوزي افتتاحها في حوادث سنة ٥٣٥ هـ فقال : «وفي شوال فتحت المدرسة التي بناها صاحب المخزن بباب العامة وحلّس للتدريس فيها أبو الحسن ابن الخل ، وحضر قاضي القضاة الرّئيّسي وأرباب الدولة والعقهاء وحصرث مع الجماعة»^(٢) . وتشير الأخبار إلى أنها كانت موجودة في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، وأنها كانت من كُبريات مدارس بغداد وكان لمدرستها معيد يعاونه كما سيأتي .

وممن درس فيها بعد أبي الحسن ابن الخل تلميذه الفقيه أبو طالب المبارك ابن المبارك بن المبارك البغدادي الكرخي الشافعي المعروف بصاحب ابن الحل (٥٠٣ - ٥٨٥ هـ) ، قال زكي الدين المنذري : «دُرّس الفقه على الإمام أبي الحسن محمد بن المبارك ابن الخل ولارمة حتى برع وسمع منه ، ومن أبي القاسم هبة الله بن محمد بن الحسين ، وأبي بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري ، وغيرهم ، وحدث ، وبرع أيضا في جودة الخط ،

(١) المنتظم : ١٠ / ١٨٠ ، وتاريخ الإسلام : ١٢ / ٥٥ - ٥٦ .

(٢) المنتظم : ١٠ / ٨٩ .

وَدُرِّسَ بِالمدرسة الكمالية بباب العامة بعداد وبمدرسة ثقة الدولة بباب الأرج ،
ثم دُرِّسَ بِالمدرسة النظامية إلى أن توفي ^(١) .

ثم تولى التدريس بها بعد أبي طالب رفيقه ومعيده يعيش بن صدقة الفراتي ،
قال الركي المنذري في وفيات سنة ٥٩٣ هـ : « وفي ليلة الرابع والعشرين من ذي
القعدة توفي الفقيه الإمام الزاهد أبو القاسم يعيش بن صدقة بن علي الفراتي
الشافعي الضرير ببغداد ، ودُفِنَ من الغد بالوُزْدِيَّة عند شيخه أبي الحسن محمد ابن
المبارك ابن الحل . قرأ القرآن الكريم بالقراءات على الشريف عمر بن حمزة
القلوي بالكوفة ، وتفقه بعداد على الإمام أبي الحسن محمد بن المبارك ابن
الخل ، وبرع فيه ، وكان المقدم في وقته في المذهب والخلاف ، أعاد لرفيقه أبي
طالب المبارك بن المبارك صاحب أبي الحسن ابن الخل بالمدرسة الكمالية ،
وَدُرِّسَ بِمدرسة ثقة الدولة بباب الأرج عدة سنين ، ثم دُرِّسَ بِالمدرسة الكمالية
كما درس رفيقه أبو طالب بالنظامية .. وحدث بالكثير ، حدثنا عنه أبو الحسن
علي بن المبارك المقرئ بدمشق ، وهو منسوب إلى الفرات النهر المشهور ^(٢) .
ومن دُرِّسَ فيها أيضًا أبو الفضل محمود بن أحمد بن محمد الأردبيلي ،
قال الشبكي : « وكان فقيهاً أصولياً قدم بغداد ودُرِّسَ بِالمدرسة الكمالية وسقط
في بئر داره فهلك ستة خمس وعشرين وست مئة ^(٣) .

ومن المتعبدن فيها : أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد بن ررقان
الفقيه الشافعي المتوفى بحرس سنة ٥٩٠ هـ ، قال ابن الديلمي : « وأعاد للشيخ

(١) التكملة ١ / الترجمة ٨٩ وهو ينقل عن ابن الديلمي .

(٢) التكملة ١ / الترجمة ٤١٠ ، ويظهر تاريخ الإسلام ١٢٠ / ١٠١٢ .

(٣) الطبقات الكبرى ٨ / ٣٦٨ .

أبي طالب المبارك الكرخي دَرَّسه بالمدرسة الكمالية مدة ^(١) .
ومن الطلبة الذين درسوا فيها : أبو الحسن علي بن المبارك بن الحسن
المقرئ الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، قال ابن الديلمي : « من أهل
واسط ... وقدم بغداد وأقام بها للتفقه مدة على الشيخ أبي طالب صاحب ابن
الخل وبعده على الشيخ أبي القاسم يعيش بن صدقة الفراتي بالمدرسة الكمالية
بباب العامة المحروس ... » ^(٢) .

١٤ - المدرسة الثَّقَنِيَّة : سنة ٥٤٠ هـ - ١١٤٥ م

منسوبة إلى مؤسسها ثقة الدولة أبي الحسن علي بن محمد الثربني وكيل
الحليفة المقتفي لأمر الله وزوج العالمة العراقية الخطيرة فخر النساء شُهَدَاةَ بَيْتِ
أحمد الإبري ، المتوفى سنة ٥٤٩ هـ ، وكان موضعها بباب الأزج على الشط
تحت دار الخلافة ، قال محب الدين ابن السَّجَّار : « وَبَنَى مدرسة لأصحاب
الشافعي على شاطئ دجلة بباب الأزج وإلى جانبها رباطاً للصوفية ووقف
عليهما وقرناً حسنة » ^(٣) . وقال العماد الكاتب : « لم يزل متعصباً لأصحاب
الشافعي رضي الله عنه وَبَنَى بعداد مدرسة لهم وسَلَّمَهَا إلى شيخنا شرف الدين
يوسف الدمشقي وأَقَمْتُ بها ثلاث سنين للتفقه ، وهي المدرسة المعروفة
بالثَّقَنِيَّة على الشط تحت دار الجَلَاة » ^(٤) .

ونقل الذهبي عن ابن السمعاني أنه قال : وكان متودداً متواضعا بَنَى مدرسة

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام / ١ / ٢٨٠ .

(٢) المصدر نفسه ٤ / ٥٣٨ .

(٣) ابن خلكان : وفیات الأعيان ٢ / ٤٧٨ .

(٤) خريدة القصر ١ / ١٤٤ (القسم العراقي)

ووقفها على الفقهاء» (١) .

افتتحت هذه المدرسة في جمادى الآخرة سنة ٥٤٠ هـ ، قال ابن الجوزي في حوادث السنة المذكورة : « في جمادى الآخرة جلس يوسف الدمشقي للتدريس بالمدرسة التي بناها ابن الإبري بياح الأرج وحضر قاصي القضاة وصاحب المخزن وأرباب الدولة » (٢) .

والظاهر أن ثقة الدولة قد بنى هذه المدرسة من أجل يوسف الدمشقي هذا لقول ياقوت : « وثبتت له مدرسة بباب الأرج » (٣) ، وهو شرف الدين أبو المحاسن يوسف بن عبد الله بن بُنْدَار الدمشقي ثم البعْدَادِي الفقيه الشافعي (٤) (٤٩٠ - ٥٦٣ هـ) . وقد استمر أبو المحاسن الدمشقي في التدريس بها إلى حين وفاته على ما يظهر بالرغم من تعيينه في سنة ٥٥٧ هـ ، مدرساً بالمدرسة النظامية ، قال ابن الجوزي في حوادث سنة ٥٦٤ هـ : « وفي صفر جلس ابن الشاشي للتدريس بالمدرسة الثَّقَفِيَّة على شاطئ دجلة بباب الأرج التي كانت بيد يوسف الدمشقي وحضر عنده جماعة من أرباب المناصب » (٥) .

ثم تولى التدريس بها الإمام أبو طالب المبارك بن المبارك بن المبارك

(١) تاريخ الإسلام : ١١ / ٩٦٩ .

(٢) المتنظم : ١٠ / ١١٦ .

(٣) معجم البلدان : ٢ / ٤٧٠ .

(٤) ترجمه ابن الجوزي في المتنظم ١٠ / ٢٢٦ ، وابن الأثير في الكامل ١١ / ٣٣٣ ،

والذهبي في تاريخ الإسلام ١٢ / ٣١٢ ، وسير أعلام النبلاء ٢٠ / ٥١٣ .

(٥) المتنظم : ١٠ / ٢٢٦ .

البغدادي الكرخي المتوفى سنة ٥٨٥ هـ والمعروف بصاحب ابن الحل كما مر عند كلامنا على المدرسة الكمالية^(١) ، ثم أعقبه رفيقه وصديقه أبو القاسم يعيش ابن صدقة الفراتي المتوفى سنة ٥٩٣ هـ ، وذكر المنذري أنه دُرُس بها عدة سنين^(٢) .

والظاهر أنه استمر في التدريس بها إلى حين وفاته في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٥٩٣ هـ حيث خلفه في التدريس بها الفقيه أبو المكارم منصور بن الحسن بن منصور الزنجاني نزيل بغداد والمعيد بالمدرسة النظامية .

قال ابن الساعي : « قدم بغداد وسكنها إلى حين وفاته مقيمًا بالمدرسة النظامية وجعل معيدًا بها وتولى التدريس بمدرسة ثقة الدولة أبي الحسن الدُريني باب الأزج بعد وفاة أبي القاسم صاحب ابن الحل المدرس بها وذلك في أواخر سنة ثلاث وتسعين وخمس مئة وكانت له معرفة بمذهب الشافعي ويد في المناظرة وحلقة بجامع القصر الشريف ، روى شيئًا من الحديث عن أحمد بن إسماعيل القزويني مدرس النظامية ، توفي ليلة الاثنين من شهر رمضان من سنة سبع وتسعين (وخمس مئة) ودفن بمقبرة الحلبة بباب الأزج^(٣) ، وذكر المنذري ذلك باختصار^(٤) وكلاهما نقل من تاريخ ابن الديلمي^(٥) .

(١) وتنظر التكملة ١ / الترجمة ٨٩ .

(٢) التكملة ١ / الترجمة ٤١٠ .

(٣) الجامع المختصر ٩ / ٦٤ - ٦٥ .

(٤) التكملة ١ / الترجمة ٦٠٦ .

(٥) وهذا القسم لم يصل إلينا .

وذكر ابن الديثي^(١) ، وابن النجار^(٢) ، والمنذري^(٣) من مدرسيها الفقيه مجير الدين أبا المظفر عبد الودود ابن الإمام العالم أبي القاسم محمود بن المبارك الواسطي الأصل البغدادي المولد والدار المتوفى سنة ٦١٨ هـ ، وقد أشار ابن الساعي إلى أنه كان مدرساً بها في شوال سنة ٦٠٦ هـ^(٤) ، وقد أعاد له بها الفقيه شهاب الدين محمد بن أحمد الزنجاني الذي استشهد بواقعة بغداد سنة ٦٥٦ هـ .

وممن درّس فيها أيضاً : عز الدين أبو محمد عمر بن عمر الطُّيَّاري الثُّنَّيْري^(٥) ، وعفيف الدين أبو الحرم مكّي بن أبي الفرج بن أبي البثر الزُّيَّدي الواسطي^(٦) ، ومجد الدين عبد الله بن علي الهمداني القاضي الشاهد المتوفى سنة ٦٨١ هـ^(٧) .

وقد بقيت هذه المدرسة قائمة مزدهرة حتى القرن الثامن الهجري^(٨) - الرابع عشر الميلادي - فكان من المدرسين بها سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن عمر الحسيني الواسطي المعيد بالمستنصرية شيخ ابن رجب^(٩) -

(١) تاريخه ٢١٦ / ٤ .

(٢) التاريخ المجلد ، الورقة ٥٧ (ظامرة) .

(٣) التكملة ٣ / الترجمة ١٨١٩ .

(٤) الجامع المختصر ٩ / ٢٨٩ .

(٥) تلخيص مجمع الآداب : ٤ / الترجمة ٣٥٦ .

(٦) المصدر نفسه : ٤ / الترجمة ٧٨٨ .

(٧) المصدر نفسه : ٥ / الترجمة ٣٠٢ .

(٨) المصدر نفسه : ٤ / الترجمة ٩٠٩ ، ١٨٠٦ و ٥ / الترجمة ١٨٨٦ .

(٩) الذيل على طبقات الحنابلة ٢ / ٤٤٤ - ٤٤٥ .

(٦٨٨ - ٧٤٩ هـ) .

١٥- مدرسة أبي النجيب الشهرزُودي : قبل سنة ٥٤٥ هـ - ١١٥٠م

تقع هذه المدرسة قريباً من دجلة قبالة نادي الضباط القديم بمحلة جديد حسن باشا ، وهي اليوم مسجدٌ يُعرف بمسجد نجيب الدين . أنشأها الفقيه الزاهد أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد الشهرزُودي ثم البغدادي التُّكري الصُّديقي المتوفى سنة ٥٦٣ هـ ، قال الذهبي في « تاريخ الإسلام » : « سمع أبا علي بن نبهان ، وزاهر بن طاهر ، والقاضي أبا بكر الأنصاري ، وجماعة . وكان يحضر المشايخ عنده وسمِعَ الناس بإفادته ، وحُصِّلَ الأصول والنسخ ، ويعظ الناس في مدرسته ، ذكره ابن النجار ، فقال ... وكان له خبرة على دجلة يأوي هو وأصحابه إليها يحضرون عنده الرجل والرجلان والجماعة إلى أن اشتهر اسمه وظهر ، وصار له القبول عند الملوك ، فكان السلطان يزوره والأمراء ، فبني تلك الحربة رباطاً ، وبنى إلى جانبها مدرسةً فصار جُمي لمن لجأ إليه من الخائفين ينجي من الخليفة والسلطان . ثم وليّ التدريس بالنظامية سنة خمس وأربعين وخمس مئة ، ونُزِلَ عنها بعد سنتين ، وأُمليَ مجالس ، وصُنِفَ مصنفات »^(١) . وتشير عبارة ابن النجار التي نقلها الذهبي أنه بُني المدرسة قبل توليه تدريس النظامية في محرم سنة ٥٤٥ هـ . ويؤيد ذلك قول ابن الديلمي في ترجمته : « ودرّس بالمدرسة النظامية الفقه ، وظهرت بركته على المتفقهة ، ثم عاد إلى مدرسته ، وتوفر على التدريس بها والوعظ »^(٢) .

(١) تاريخ الإسلام : ١٢ / ٣٠٠ .

(٢) ذيل تاريخ مدينة السلام / ٤ / ٢٩٧ .

وقد ترجمه أبو سعد السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢ هـ في تاريخه الذي دُفِّل به على تاريخ الخطيب وذكر رباطه هذا مما يشير إلى وجوده قبل وفاة ابن السمعاني بمدة ، قال : « وبني رباطاً لأصحابه على الشُّط وسكنه جماعة من الصالحين من أصحابه ، وحضرتُ عنده نوباً عدة ، فسمعتُ من كلامه ما انتفعت به وكتبت عنه وسألته عن مولده ، فقال : تقديرًا في سنة تسعين وأربع مئة بسهرورد » (١) .

كما نقل الذهبي عن عُمر بن علي القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٥٧٥ هـ قوله : « وبني مدرسة ورباطين ودُرُس وأفتى ، وولي تدريس النظامية » (٢) . وذكر ابن الجوزي أنه توفي في جُمادى الآخرة من سنة ٥٦٣ هـ ودفن بمدرسته (٣) كما دفن في هذه المدرسة ولده أبو الفضل عبد الله المتوفى سنة ٦٣٠ هـ (٤) .

وقد تولى التدريس بها بعد أبي السجيب ولده أبو الرضى عبد الرحيم ، قال المنذري في ترجمة ابنته الشيخة الصالحة سيدة بنت عبد الرحيم زوج الإمام شهاب الدين عُمر بن محمد الشهروردي المتوفاة سنة ٦٤٠ هـ ، « ووالدها الفقيه أبو الرضى عبد الرحيم شَهْرُورْدِي الأصل بَغْدَادِي المولد والدار تفقه على والده وسمع معه جماعة منهم القاضي أبو بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري

(١) نقله الذهبي في تاريخ الإسلام : ١٢ / ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٢ / ٣٠١ .

(٣) المتظم : ١٠ / ٢٢٥ . وينظر السير ٢٠ / ٤٧٥ وفيه مصادر لترجمته .

(٤) التكملة ٣ / الترجمة ٢٤٥٩ .

وطبقته ودرّس بمدرسة والده بعد وفاة والده^(١) .

وقال ابن الديلمي في ترجمته : « ودرّس الفقه بعد وفاة والده بمدرسته ، وما أعلم أنه حدث بشيء ، وخرج إلى الشام وزيارة بيت المقدس فتوفي بدمشق في سنة سبع وستين وخمسة مئة أو نحوها ، والله أعلم ، ودفن هناك وكان شاعراً^(٢) .

وممن درّس بها تلميذ أبي النجيب : أبو الحسن ابن الغبيري المتوفى سنة ٦١٥ هـ على ما ذكره ابن الديلمي ، قال : « علي بن روح بن أحمد بن الحسن ابن عبد الكريم النهرواني ، أبو الحسن المعروف بابن الغبيري . تفقه على مذهب الشافعي رضي الله عنه على الشيخ أبي النجيب الشهروردي وصحبه وسمع منه ... ودرّس الفقه بمدرسة شيخه أبي النجيب الشهروردي : سمعاً منه ، ونعم الشيخ كان فضلاً ودينًا وثقة^(٣) .

ومن المعيدنين للشيخ أبي النجيب في هذه المدرسة : الفقيه الإمام أبو القاسم محمود بن المبارك بن عليّ الواسطي الأصل البعادي المولد والمنشأ الشافعي المتعوت بالمجبر مدرّس النظامية وغيرها المتوفى سنة ٥٩٢ هـ ترجمة الذهبي في تاريخ الإسلام ترجمة راققة فيها فوائد جمعة تَمَسُّ المدارس^(٤) ، وقال الزكي المنذري : « وحدث ببعداد وواسط وغيرها ، وأعاد في شببته

(١) التكملة ٣ / الترجمة ٣٠٩٣ .

(٢) ذيل تاريخ مدينة السلام ٤ / ٨٤ .

(٣) ذيل تاريخ مدينة السلام ٤ / ٤٤٥ ، وتكملة المنذري : ٢ / الترجمة ١٦٢٥ .

(٤) تاريخ الإسلام : ١٢ / ٩٩٠ - ٩٩١ .

للإمام أبي الحبيب الشهروردي بمدرسته ، ودُرُس بدمشق ، وانتفع به جماعة ودُرُس بشيراز وبمسكر مُكرّم وبواسط وتولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد ،^(١) .

ومن وعظ بها : محمد بن عبد الله المعروف بابن الطّريف الواعظ البُلّحي المتوفى سنة ٥٩٦ هـ^(٢) والشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد ابن أخي أبي الحبيب المتوفى سنة ٦٣٢ هـ^(٣) .

١٦ - مدرسة أبي حكيم النّهرواني : قبل ٥٥٦ هـ - ١١٦١ م

قال الذهبي في « تاريخ الإسلام » : « إبراهيم بن دينار بن أحمد ، أبو حكيم النّهرواني الفقيه الحنبلي ، من علماء بغداد .

كان من المشهورين بالزهد والورع والحلم الزائد ، وإليه كان المرجع في علم الفرائض . أنشأ مدرسة من ماله يباب الأزج وانقطع بها للعلم والعمل . وكان يؤثر الحمول والتواضع والعيش الخش وبقنات من خياطة يده فيأخذ على القبيص حبتين فقط .

ولقد اجتهد جماعة على إغضابه وإضجاره فلم يقدروا ، وكان صبوراً على خدمة الفقراء والعجائز والزمنى ولم يُر عابساً قط . سمع أبا الحسن العلاف ، وابن بيان الرزاز وغيرهما . روى عنه أبو الفرح ابن الجوري ، وابن الأختصر ، وأبو نصر عمر بن محمد المقرئ . وكان صدوقاً صحيح السماع ، ولد سنة

(١) التكملة ١ / الترجمة ٣٦٣ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٨ / ٤٧٤ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٢٢ / ٣٧٥ .

إحدى وثمانين وأربع مئة ، وسمع أيضا من أبي الخطاب الكلّواذاني ، وتفقه على صاحبه أبي سعد بن حمزة وقرأ عليه كثيرا^(١) .
وقال ابن الجوزي : « وأعطى المدرسة التي بناها ابن الشمحل بالمأمونية وأعدت درسته فبقي نحو شهرين فيها وسلّمت بعده إليّ فجلستُ فيها للتدريس . وله مدرسة بباب الأزج كان مقيما بها ، فلما احتضر أسدها إليّ ... وتوفي يوم الثلاثاء بعد الظهر ثالث عشر جمادي الآخرة من سنة ست وخمسين وخمس مئة^(٢) .

١٧ - مدرسة ابن الشمحل ٥٥٦ هـ - ١١٦١ م

أنشأها أبو القاسم عمر بن ثابت ابن الشمحل الحنبلي بالمأمونية ، وعهد بها إلى الشيخ أبي حكيم النهرواني ، قال ابن الجوزي في حوادث سنة ٥٥٦ هـ : « وفي يوم الاثنين حادي عشر ربيع الآخر فتحت المدرسة التي بناها ابن الشمحل في المأمونية وجلس فيها الشيخ أبو حكيم مدرسا وحضر جماعة من الفقهاء^(٣) ، وقال في ترجمته : « وأعطى المدرسة التي بناها ابن الشمحل بالمأمونية وأعدت درسته فبقي نحو شهرين فيها وسلّمت بعده إليّ فجلستُ فيها للتدريس^(٤) ، ولكن هذه المدرسة لم تدم ، قال مؤرخ بغداد محب الدين ابن التتار في ترجمة

(١) تاريخ الإسلام : ١٢ / ١٠٩ .

(٢) المتظم : ١٠ / ٢٠١ ، ونظر : مرآة الزمان لمبطله ٨ / ٢٣٦ ، وتلخيص مجمع الآداب لابن الموطي : ٤ / الترجمة ٢٧٣١ ، وعقد الجمان للميني ١٧ / الورقة ٣٤٢ - ٣٤٣ .
والذيل لابن رجب ١ / ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٣) المتظم : ١٠ / ٢٠٠ .

(٤) المتظم : ١٠ / ٢٠١ .

ابن الشمحل : « من ساكني المأمونية ، وكان يتولى بعض الأعمال الديوانية وعلت مرتبته وارتفع شأنه وصار له قرب من الدولة واختصاص فبني مدرسة للمتفقه من أصحاب أحمد بن حنبل ، ودرّس بها أبو حكيم النهرواني ، وبعده ابن الحوزي ، وجعلت فيها خزانة كتب نفيسة . ثم إنه قبض عليه وسُجن إلى أن هلك ، ولم تثبت وقفية تلك البقعة فبيعت وصارت داراً لبعض الأمراء ، وأحدث الكتب التي كانت فيها » .

ثم نقل من تاريخ أبي الفضل أحمد بن صالح بن شافع قوله : « وبني مدرسة درب الشوك بشارع المأمونية حسنة وأودعها كتباً حسنة ، فلم يزل فساد التدبير ممن سكنها وسوء التوفيق المعروفين من خلاله حتى طرق عليه بذلك فسعي في تعطيلها وتبديلها وسد بابها ونقل ما فيها من الكتب وأخرج الذي كان فيها على أقبح وجه »^(١) .

١٨ - مدرسة ابن هبيرة : ٥٥٧ هـ - ١١٦٢ م

أنشأها الوزير القدير والعالم الشهير عَوْن الدين أبو المظفر يحيى بن محمد ابن هُبيرة الدُّوري المولد البغدادي الدار الشيباني (٤٩٩ - ٥٦٠ هـ) في محلة باب البصرة سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م^(٢) ، فهي أول مدرسة أنشئت في الجانب الغربي من بغداد ، لكنها لم تدم طويلاً ولم تشتهر بسبب تغير الدولة على أسرته بعد وفاته ومصادرة كتب المدرسة وبيعها^(٣) .

وأول من درس بها هو الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن عليّ البرّاندسي

(١) التاريخ المجدد ، الورقة ٩٥ - ٩٦ من مجلد باريس .

(٢) المنتظم ١٠ / ٢٠٣ .

(٣) مرآة الرمان : ٨ / ٢٦٠ - ٢٦٢ ، وتاريخ الإسلام : ١٢ / ١٨٧ .

المقرئ المعروف بابن الرئثومي المتوفى سنة ٥٨٦ هـ قال ابن نُقطة البغدادي : « سمع المسند من أبي القاسم ابن الحُصَيْن ، وسمع من أبي غالب أحمد بن الحُسَيْن ابن البناء وإسماعيل ابن السمرقندي ، وأبي البركات الأنماطي ، وقرأ القرآن بالروايات على أبي محمد عبد الله بن علي ابن بنت الشيخ أبي منصور الخياط . وكان شيخاً صالحاً ديناً عابداً صحيح القراءات والسماع ثقة فاضلاً ، قاله لي أبو المعالي محمد بن أحمد بن شافع ، توفي في سادس عشر شهر ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسة مئة » (١) .

وقال مؤرخ بغداد أبو الحسن القطيعي : « ناطر ودُرُس وأفتى ، ولما بني عَوْن الدين ابن هبيرة مدرسته بباب البصرة جعله المدرّس بها » (٢) .

وممن درس بها من كبار الرواة العلماء الشيخ الفقه أبو عبد الله الحُسين بن المبارك بن محمد بن يحيى بن مُسلم الرُبَيعي الرُبَيعي البغدادي المولود والدار المتوفى سنة ٦٣١ هـ وكان من مشاهير رواة « صحيح البخاري » سمعه عليه خلق عظيم ببغداد ودمشق وحلب وغيرها من البلاد (٣) ، وقال ابن رجب : « وتفقه في المذهب ، وأفتى ، ودُرُس بمدرسة الورير أبي المظفر ابن هبيرة » (٤) . وترجمه الذهبي في تاريخ الإسلام ترجمة طويلة وذكر قدومه إلى الشام فقال : « ولما قَدِمَ فرح السلطان الأشرف بقدمه وذلك في أثناء رمضان ، فأخذَه إلى

(١) التقييد ، الورقة ١٨٥ .

(٢) ابن الموطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٢٧٣٠ . وتنظر ترجمته في تاريخ ابن الجار ، الورقة ٧ (باريس) ، وفي التكملة المنيرية ١ / الترجمة ١٠٦ وفيها مصادر أخرى .

(٣) تاريخ ابن الدبشي : ٣ / ١٩٦ ، وتكملة المتلري ٣ / الترجمة ٢٥١٢ .

(٤) للذيل على طبقات الحنابلة ٢ / ١٨٨ .

القلعة ولازمه وسمع منه « الصحيح » في أيام يسيرة ثم نزل إلى دار الحديث الأشرفية ، وقد فتحت من نحو شهر ، فحشد الناس له وتزاحموا عليه وفرعوا عليه « الصحيح » في شوال . ثم حدث بالكتاب وبمؤسد الشافعي بالجبل (يعني : جبل قاسيون) ، واشتهر اسمه وبعد صيته ، ثم سافر في الحال إلى بلده ، فدخل بغداد متمرصاً وتوفي إلى رحمة الله في الثالث والعشرين من صفر ، ودُفن بمقبرة جامع المنصور ^(١) .

وقد ذكر الذهبي عشرات ممن سمع منه وروى عنه من يسهم عشر نسوة هن : حديجة بنت سقند ، وهديّة بنت عبد الحميد ، وخديجة بنت الرضي ، وفاطمة بنت الأمدي ، وخديجة بنت المراتبي ، وفاطمة بنت البطائحي ، وزينب بنت الإشيردي ، وست الوزراء بنت المسجي ، وهديّة بنت عسكر ، وفاطمة بنت الفراء .

وحينما توفي أبو القاسم مسعود ابن الوزير أبي المظفر ابن هبيرة سنة ٦٠٧ هـ دفن عند أبيه في هذه المدرسة ^(٢) مما يدل على وجودها ، لكن سبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ هـ أشار إلى اندثارها في أيامه ^(٣) .

١٩ - مدرسة ابن الببل : قل ٥٦٠ هـ - ١١٦٥ م

أنشأها الشيخ الصالح المتعمّر عز الدين أبو المعالي هبة الله بن أبي المتعمّر الحسين بن الحسن بن عل بن الببل البغدادي البيّيع المعروف بابن أبي الأسود . ولد سنة ٥١٠ هـ وسمع من القاضي أبي بكر الأنصاري ، وأبي الفتح عبد الله

(١) تاريخ الإسلام : ١٤ / ٤٢ .

(٢) التكملة ٢ / الترجمة ١١٧١ .

(٣) مرآة الزمان ٨ / ٢٤٠ .

ابن محمد ابن البيضاوي وأبي الحسن محمد بن أحمد بن صيرما ، وحدث عنه ابن الديلمي وترجمه في تاريخه^(١) ، ومن الشاميين الرحالة يوسف بن خليل ، والضياء المقدسي ، والسجيب عبد اللطيف الخزائني الذي ترجمه في « مشيخته »^(٢) . وذكره ابن نُقطة في « إكمال الإكمال »^(٣) ، والمنذري في « التكملة »^(٤) ، وابن الفوطي في « تلخيص مجمع الآداب »^(٥) ، والذهبي في « تاريخ الإسلام »^(٦) ، وابن ناصر الدين في توضيحه لمشبه الذهبي^(٧) ، وذكروا أنه توفي سنة ٦٠٠ هـ وقد بلغ التسعين .

أقام ابن البتل مدرسته هذه بالمحلة المسماة بالزُّيَّان (القسم الشمالي من باب الشيخ وحي الأكراد) وقَوَّصَ أمرها إلى القاضي عماد الدين أبي يعلى محمد بن محمد بن الحسين ابن الفراء المعروف بأبي يعلى الصُّغَير (٤٩٤ - ٥٦٠ هـ) ، وكان شيخ الحنابلة في وقته وله حَلَقَة معروفة بجامع القُصْر وولي قضاء باب الأَرَج وقضاء واسط ، وحضر المؤرخ البغدادي أبو الحسن ابن القطيعي المتوفى سنة ٦٣٤ هـ درسه ، قال : « قرأت عليه شيئاً من المذهب وحضرتُ درسه ولم يُر مثله في حُسن عبارته وغذوبة محاورته وحسن سَمْتِه

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ٥ / ٩٠ - ٩١ .

(٢) الورقة ٦٤ - ٦٥ .

(٣) إكمال الإكمال : ١ / ٣١٥ و ٢ / ٧٥٥ .

(٤) التكملة ٢ / الترجمة ٨٠٩ .

(٥) تلخيص مجمع الآداب : ٤ / الترجمة ٥٣٠ .

(٦) تاريخ الإسلام : ١٢ / ١٢٣١ .

(٧) نواصيح المشبه ٢ / ٥٥ و ٤ / ١٠٣ .

ولطافة طبع وليس معاشرة ولطف تفهيم .. جد واجتهد حتى صار أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه ذو خاطر عاطر وفطنة ناشقة ، أعرف الناس باختلاف أقوال الفقهاء ، ظهر علمه في الآفاق ، ورأى من تلاميذه من باظر ودرّس وأفتى في حياته ^(١) . وقال ابن رجب : « ولما بني أبو المعالي ابن الببل مدرسة بالريان ، جعلها للمخابلة ، وفوّض أمرها إلى القاضي أبي يعلى هذا ^(٢) .

وممن درّس بها ووعظ أيضًا الفقيه أبو العباس أحمد بن عمر بن الحسين بن خلف القطيعي الواعظ المتوفى سنة ٥٦٣ هـ ، والد أبي الحسن القطيعي مؤرخ بغداد وشيخ الحديث بالمستنصرية ^(٣) .

٢٠ - المدرسة البهائية : قبل سنة ٥٦٣ هـ - ١١٦٨ م

كانت هذه المدرسة قرية من المدرسة النظامية بالموضع المعروف بباب المدرسة على الشط ، ولا نعلم مؤسسها ، كما لا ندرى متى بنيت ، لكن أبا المحاسن يوسف بن عبد الله بن بُنْدَار الدمشقي المتوفى في شوال سنة ٥٦٣ هـ كان من المدرسين بها ، قال ابن الجوري في حوادث سنة ٥٦٦ هـ : « وأخذت مدرسة كانت للحنفية وقد كانت قديمًا للشافعية وهي بالموضع المسمى بباب المدرسة على الشط ، وقد حضرت فيها مناظرة يوسف الدمشقي ويده كانت ، وآل أمرها إلى أن سُلمت إلى محمد البروي فدرّس فيها وحضر قاضي القضاة وشيخ الشيوخ وحاجب الباب ومدرّس النظامية وابن

(١) ابن رجب : الذيل ١ / ٢٤٥ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه : ١ / ٣٠٢ .

سديد الدولة كاتب الإنشاء^(١) .

ومدرسها البزوي^(٢) الذي أشار إليه ابن الجوزي هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن سعد بن عبد الله البزوي الفقيه الشافعي ، ترجمة جمال الدين ابن الديلمي في تاريخه ، فقال : « أحد علماء عصره ، والمُشار إليه بالتقدم في معرفة الفقه والنظر وعلم الكلام والوعظ وحسن العبارة ، مع فصاحة في لسانه ، وبلاغة في لفظه وبيانه . تفقه بتيسابور على الشيخ أبي سعد محمد بن يحيى ، وكان من أنبل أصحابه ، وخرج من خراسان إلى الشام وأقام بدمشق مدة ، ثم قدم بغداد في سنة سبع^(٣) وستين وخمس مئة ، وصادف بها قبولاً عند أهلها ، وتكلم بها في مسائل الخلاف ، وأحسن النظر ، ودّرس بها الفقه والأصول والجَدَل بالمدرسة المعروفة بالبيهائية قرية من النظامية ، وكان يحضر دَرسَهُ خَلَقٌ من الفقهاء ، وجلس بالمدرسة النظامية ، وأعجب الناس كلامه ، وكان المدرّس بها يومئذ أبو نصر أحمد بن عبد الله الشاشي ، فكان إذا تَوَسَّط المجلس وقُرئت بين يديه النُظائر يلتفت إلى موضع التدريس وينشد مُعَرَّضًا بما في نَفْسِهِ من طَلَبِهِ ومُشيرًا إليه قول المتنبّي^(٤) :

(١) المتنظم : ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٢) هذه النسبة صحتها ابن خلكان بمنح الباء الموحدة والراء ويعدها واو وقال ولا أعلم هذه النسبة إلى أي شيء هي ، ولا ذكرها السمعتي ، وغالب ظني أنها من نواحي طوس (وفيات ٤ / ٢٢٥) .

(٣) وضع الناسخ لفظة « ست » فوقها وأشار إلى أنه وجدها هكذا في الأصل دلالة على الشك في إحداها .

(٤) ديوانه ٥٥ .

بكيت يازنغ حتى كدت أبكيكاً ومحدث بي وبفسى في مقابيكاً
 فعيم صباحاً لقد هيئت لي شجناً واردد تحييتاً إنا محيوكاً
 بأي صرف زمان صرت متخذاً ريم القلاً بدلاً من ريم أهليكا
 وذلك لما كان عنده من طلب التدريس بالمدرسة النظامية ، ولعمري لقد
 كان أهلاً لذلك ، ومؤثراً به لو بقي ، ولكن أصابته عين الكمال فشؤشت عليه
 الأحوال ، واحترمه المنيّة قبل بلوغ الأمانة ... فتوفي بين الظهر والقصر من يوم
 الخميس السادس عشر من شهر رمضان سنة سبع وستين وخمس مئة وصلي
 عليه يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة القصر الشريف ، وخضر خلق من
 الأعيان والأمائل ، ودفن بباب أبرز بئر الشيخ أبي إسحاق الشيرازي (١) .
 وذكر ابن الدبشي من مدرسيها : الفقيه أبا الخير داود بن ثنّاد بن إبراهيم
 الجيلاني الشافعي المعوت بالمعين المتوفى ببغداد في رجب سنة ٦١٨ هـ ،
 قال : « من أهل جيلان . قدم بغداد ، وتفقه بها على مذهب الشافعي رضي الله
 عنه بالمدرسة النظامية ... وأعاد لمدرسيها سنين كثيرة ، ودّرس بالمدرسة
 البهائية القريبة من النظامية » (٢) .

وقال المنذري : « قدم بغداد وتفقه بها على مذهب الإمام الشافعي
 رضي الله عنه بالمدرسة النظامية على مدرسيها الإمام أبي المحاسن يوسف بن
 عبد الله بن ثنّاد الدمشقي وغيره ، وأعاد بها للمدرسين بها سنين كثيرة ،
 ودّرس بالمدرسة البهائية التي بقرب النظامية وأفتى » (٣) .

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ٢ / ٢٨ - ٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ٣ / ٢٥٨ .

(٣) التكملة ٣ / الترجمة ١٨٢٢ .

وبقيت المدرسة موجودة إلى القرن الثامن الهجري في الأقل ، فقد ذكر ابن رافع السلامي من المدرسين بها صدر الدين محمد بن محمد بن زنكي الخراساني الإسفراييني المولود سنة ٦٧٧ هـ فذكر أنه درس بها إضافة إلى التدريس بمدرسة الأصحاب^(١) .

٢١ - مدرسة الطيورين : قبل سنة ٥٦٣ هـ - ١١٦٨ م

بُنيَت هذه المدرسة للفقير الشهير أبي المحاسن يوسف بن عبد الله بن بُندار الدمشقي ثم البغدادي المتوفى في شوال سنة ٥٦٣ هـ ، فقد قال ياقوت الحموي في ترجمته : « وبُنيَت له مدرسة بباب الأزج وكان يذكر فيها الدرس ومدرسة أخرى عند الطيورين ورحبة الجامع »^(٢) .

والطيوريون سوق مشهور من أسواق الجانب الشرقي تباع فيه الطيور وهو عند رحبة جامع القصر (جامع الخلفاء) باقٍ إلى يوم الناس هذا ، ولا يعرف لها مدرسا بعد أبي المحاسن الدمشقي .

٢٢ - المدرسة الفخرية : ٥٦٨ هـ - ١١٧٢ م

منسوبة إلى مُنشئها فخر الدين أبي المظفر الحسن بن هبة الله بن المطلب العالم الزاهد (٤٩١ - ٥٧٨ هـ)^(٣) .

(١) منتخب المختار : ٢٠٥ .

(٢) معجم البلدان ٢ / ٤٧٠ .

(٣) ترجمه ابن الديلمي في تاريخه ٣ / ١٤٣ ، والسيط في المرأة ٨ / ٣٧١ ، وابن الفوطي في التلخيص ٤ / الترجمة ٢٠٦٣ ، والدهبي في تاريخ الإسلام : ١٢ / ٦١١ ، والسير ٢١ / ٩٧ .

وتعرف هذه المدرسة أيضا بمدرسة فخر الدولة^(١) ، وبمدرسة دار الذهب^(٢) . أنشأها فخر الدولة بعقد المصطنع (وهي المحلة المعروفة اليوم بقاضي الحاجات) برسم الفقيه الشافعي الشهير أبي القاسم يحيى بن علي ابن قُضْلان^(٣) ، قال ابن الساعي : « وَبَنِي لَهُ فخر الدولة أَبُو مظفر بن المطلب المدرسة التي عند عَقْد الْمُصْطَنَعِ المعروفة بدار الذهب وجعله مدرستها ، وأعاد له الدرس القاضي أبو علي يحيى بن الربيع ، وانتفع به خلق كثير وعَلِّقُوا دروسَهُ ، وحضروا مناظرته »^(٤) . وقد افتتحت هذه المدرسة في ربيع الآخر من سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م كما نص عليه ابن الجوزي في حوادث السنة المذكورة ، فقال : « وفي ربيع الآخر دُرِّسَ ابن قُضْلان في المدرسة التي عملها فخر الدولة ابن المطلب عند عقد المأمونية »^(٥) . وقال الزكي المنلري : « ودُرِّسَ ببغداد بمسجد اللوزية المحلة المشهورة ببغداد ثم دُرِّسَ بمدرسة فخر الدولة ابن المطلب ، وأعاد له الدروس الإمام أبو علي يحيى بن الربيع بن سليمان وانتفع به جماعة كبيرة ، وكان مقدما في علم الخلاف والجدل ، عَذَّبَ الكلام مليح العبارة »^(٦) .

وقال جمال الدين ابن الدبشي في ترجمة فخر الدولة ابن المطلب : « له آثار حسنة منها مدرسة الفقهاء الشافعية شرقي بغداد مجاورة لعقد المصطنع ،

(١) التكملة ١ / الترجمة ٤٩١ .

(٢) ابن الساعي : الجامع المختصر ٩ / ١٢ .

(٣) التكملة ١ / الترجمة ٤٩١ .

(٤) الجامع المختصر ٩ / ١٢ .

(٥) المستط : ١٠ / ٢٤٠ .

(٦) التكملة ١ / الترجمة ٤٩١ .

ورباط للصوفية مُصاحبها ومسجد متصل بذلك ... ووقف على ذلك من أملاكه ما يصرف في عمارته ومؤنة من يكون فيه» (١).

ثم تولى التدريس بها بعده ولده العالم الكبير قاضي القضاة محيي الدين أبو عبد الله محمد بن يحيى (٥٦٨ - ٦٣١ هـ) قال عصره جمال الدين ابن الدبيشي : « تفقه محمد هذا على أبيه ، وأحسن الاشتغال ، وتكلم في المسائل والمناظرات وأجاد الكلام . ورحل إلى خراسان وناظر مع عُلمائها ، وعاد إلى بغداد ، ودّرس بعد أبيه بمدرسة فخر الدولة أبي المظفر ابن المطلب بعقد المُصْطَنع ، وتخرج به في الفقه جماعة ، ودّرس بالمدرسة النظامية يوم السبت ثالث شهر ربيع الأول سنة أربع عشرة وست مئة ، وتُخْلِيع عليه خلعة سوداء ، وحضرَ عنده الولاة والفقهاء ، وغزَلَ في سابع ذي القعدة سنة ست وست مئة ، وولّي قضاء القضاة يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الأول من سنة تسع عشرة وست مئة والنظر في الوقوف والمدارس» (٢).

وممن ولي التدريس بها القاضي أبو بكر محمد بن يحيى بن مظفر البغدادي المعروف بابن الحُبَيْر (٣) (٥٥٩ - ٦٣٩ هـ) ، قال ابن النجار : « وولي تدريس الإسماعيلية التي بين النُزَين وصارت له حلقة بجامع القصر ويتكلم عنده الفقهاء فيها ، وناب في الحُكْم والقضاء عن ابن قُصْلان مدة ولايته ، ثم ولي التدريس بمدرسة ابن المُطَلَب ، ثم ولي تدريس النظامية» (٤) . ومع أبا لا يعلم بالضبط

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ٣ / ١٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٧٢ .

(٣) المنذري : التكملة ٣ / الترجمة ٣٠٤٥ .

(٤) نقله عنه المصفي في الوافي ٥ / ٢٠٧ .

متى كانت ولايته التدريس بها ولكن صاحب الكتاب المسمى بالحوادث يشير إلى استمراره بالتدريس فيها سنة ٦٢٦ هـ كما نص على ذلك في حوادث السنة المذكورة^(١).

ومنهم : مجد الدين أبو طاهر علي بن محمد بن أحمد بن جعفر الواسطي البغدادي مُدرس البشيرية^(٢) (٦٢٧ - ٦٨٣ هـ) ، وعماد الدين عبد الله بن محمد بن عبد الرزاق الخزبوي المعروف بابن الحَوَّام من أهل القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي)^(٣).

أما المعيدون بها فعرفنا منهم : أبا علي يحيى بن الربيع بن سليمان بن حراز الواسطي البغدادي^(٤) (٥٢٨ - ٦٠٦ هـ) ، وأبا نصر ثعلب بن علي بن نصر بن علي البغدادي المعروف بابن المحاربة^(٥) (٥٥٤ - ٦٢٦ هـ) والفقهاء أبا الحسن علي بن الحطاب بن مقلد الواسطي المحدثي المقرئ الشافعي الضرير^(٦) (٥٦١ - ٦٢٩ هـ) وكان من طلبتها المتميزين أقصى القضاة نظام الدين عبد المنعم البندنجي المتوفى سنة ٦٦٧ هـ^(٧).

(١) الحوادث ١٨ .

(٢) ابن القوطي : تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ١٩١ .

(٣) الدرر الكامنة ٢ / ٤٠٠ .

(٤) التكملة المنذرية : ٢ / الترجمة ١١٢٦ .

(٥) طبقات السبكي ٨ / ١٣٦ - ١٣٧ .

(٦) التكملة المنذرية ٣ / الترجمة ٢٤٠٩ .

(٧) الكتاب المسمى بالحوادث ٣٩٥ .

وكانت في هذه المدرسة مكتبة جليلة أشار إليها ابن الفوطي في ترجمة مؤسسها فقال : « وعُمر المدرسة الفخرية بعقد المصطنع في المأمونية وجعل بها خزانة كتب جامعة لأنواع العلوم »^(١) .

٢٣ - مدرسة ابن الجوزي بدرب دينار : ٥٧٠ هـ - ١١٧٤ م

هي مدرسة خاصة أنشأها العالم الواعظ الشهير جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي القرشي البكري الصديقي المعروف بابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ^(٢) بدرب دينار (شارع المأمون اليوم) وابتدأ التدريس بها في محرم سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م قال في حوادث السنة المذكورة : « وفي يوم الأحد ثالث المحرم ابتدأت بإلقاء الدروس في مدرستي بدرب دينار فذكرت يومئذ أربعة عشر درساً من فنون العلوم »^(٣) .

والظاهر أنه كان يستحدها للوعظ أيضاً وليس للدراسة المتخصصة ، قال في حوادث سنة ٥٧٤ هـ : « وتكلمت يوم السبت مفتوح رمضان في مدرستي بدرب دينار فكان الزحام خارجاً عن الحد حتى غلق الأبواب وقصت ثلاثون طائفة وقاب خلق من المفسدين »^(٤) .

والظاهر أن التدريس بها كان مقتصرًا على ذريته إذ لا نعرف مدرسا دُرس بها من غيرهم مع أن الأخبار تشير إلى وجودها في منتصف القرن

(١) تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٢٠٦٣ .

(٢) ترجمته في التكملة المنبرية ١ / الترجمة ٦٠٨ والتعليق عليها

(٣) المتنظم : ١٠ / ٢٥٠ .

(٤) المتنظم : ١٠ / ٢٨٥ .

السابع الهجري^(١) (الثالث عشر الميلادي) ، وقال صاحب « العسجد المسبوك » ، في ذكر من قُتل بواقعة بغداد سنة ٦٥٦ هـ من أولاد ابن الجوزي : « تاج الدين أبو الكرم عبد الكريم بن يوسف ، وكان شاباً ذكياً حَصَلَ طَرَفًا من علم النحو والفقه . وقال الشعر ، ودُرِسَ بالمدرسة المسبوبة إليهم ، وتَوَلَّى الحسبة أيضًا ، وقُتل وعمره ثَيِّفٌ وعشرون سنة »^(٢) .

٢٤ - مدرسة بنفشأ : ٥٧٠ هـ - ١١٧٤ م

هي الجهة الصالحة بنفشأ ابنة عبد الله غثيقة الخليفة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن المتوفاة سنة ٥٩٨ هـ ، قال المُنذري : « كانت أحطى جهاته عنده ، وكانت كثيرة الرغبة في أفعال البر عَمُرَت مساجد لله تعالى في غير موضع ووقفت المدرسة بباب الأرج على أصحاب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، وعقدت على دجلة بجسرًا للسابلة »^(٣) .

وهذه المدرسة كانت في الأصل دارًا لطعام الدين أبي نصر المظفر بن علي ابن جهمير وزير الخليفة المقتفي لأمر الله ، ثم استملكتها بنفشأ بعد وفاته ، وأوقفتها على الحابلة ، وسَلَّمَتها إلى الفقيه أبي جعفر ابن الصَّبَّاح فبقي المفتاح معه أيا ما ثم استعادته منه وسَلَّمَتها إلى ابن الجوزي حيث تَوَلَّى التدريس والوعظ بها في شعبان سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م ، قال في حوادث السنة المذكورة من

(١) ابن الفوطي - تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ٥٨٠ من الكاف والترجمة ٢٨٨ من الميم .

(٢) العسجد المسبوك ٦٣٦ .

(٣) التكملة ١ / الترجمة ٦٦٠ .

« المنتظم » : « وفي يوم الخميس خامس عشرين شعبان سُلِّمَتْ إِلَيَّ المدرسة التي كانت دارًا لنظام الدين أبي نَصْر بن بَهِير وكانت قد وصلت ملكيتها إلى الجهة المُسمَّاة بَنَفْشَا فجعلتها مدرسة وسَلَّمْتُها إلى أبي جعفر ابن الصباغ فبقي المفتاح معه أيامًا ثم استعادت منه المفتاح وسَلَّمْتَه إِلَيَّ من غير طلب كان مني ، وَكُتِبَ في كتاب الوقف أنها وقِفَتْ على أصحاب أحمد ، وتُقَدَّمُ إِلَيَّ يوم الخميس المذكور بذكر الدُّرس فيها ، فحضر قاضي القضاة وحاجب الباب وقهاء بغداد ، وَخُلِقَتْ على خلعة ، وخرج الدُّعاة بين يدي والحدِّم ، ووقف أهل بغداد من باب الثوري إلى باب المدرسة كما يكون في العيد وأكثر ، وكان على باب المدرسة ألوف والزحام على الباب ، فلما جلستُ لإلقاء الدُّرس عُرِضَ كتاب الوقف على قاضي القضاة وهو حاضر مع الجماعة فقرأ عليهم وحكَّم به وأنفَذَهُ ، وذكرْتُ بعد ذلك الدرس ، فألقيتُ يومئذ دُرُوسًا كثيرة من الأصول والفروع ، وكان يومًا مشهودًا لم يُر مثله » (١) .

وقال ابن الجوزي في حوادث سنة ٥٧١ هـ : « وفي رمضان كُتِبَ على حائط المدرسة التي وقفتها الجهة وسَلَّمْتُها إِلَيَّ بخط القطاع في الآجر : وقفت هذه المدرسة الميمونة الجهة المعظمة الشريفة الرُحيمة بدار الزواشني في أيام سيدنا ومولانا الإمام المُستَضيء بأمر الله أمير المؤمنين على أصحاب الإمام أحمد بن حنبل وفُوضت التدريس بها إلى ناصر السمة أبي الفتح (كذا) ابن الجوزي » (٢) . ولا نعرف من مدرسيها بعد ابن الجوزي أحدًا .

(١) المنتظم : ١٠ / ٢٥٤ .

(٢) المنتظم : ١٠ / ٢٥٨ .

٢٥ - مدرسة زَنْزَك : قبل سنة ٥٧٣ هـ - ١١٧٧ م

وتُعرف أيضاً بالمدرسة الزُّنْزَكِيَّة ، وبمدرسة سُوق العميد لوقوعها في السوق المذكور الذي هو في مكان سوق المَيْتِدَان الحالي . ولا نعرف مَنْ زَنْزَك هذا ، ولعله أحد رجالات السلاجقة .

وأول من عرفها من مدرسيها هو الفقيه الحنَفي محمد بن أحمد بن عبد الجبار السَّعْنَانِي الأصل البَغْدَادِي المتوفى سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م ، قال ابن الدُّيُثِي : « من أهل سَمْتَان ، ولد بها ونشأ ، ورحل إلى مَرْو ، وتفقه على أبي الفَضْلِ الْكُزْمَانِي ، وجال في بلاد المشرق ، ثم قَلِمَ بَغْدَادَ واستوطنها إلى حين وفاته ، ودَّرس بها الفقه على مَذْهَب أبي حنيفة بمدرسة بِسُوق الْعَمِيد تُعرف بمدرسة زَنْزَك ، وكان أحد شيوخ وقته في مذهبه يُفتي ويدرس إلى أن مات . . . وتوفي في جُمَادِي الْأُولَى سنة ثلاث وسبعين وخمسة مئة ، ودُفِنَ بِمَقْبَرَةِ الْوَرْدِيَّة » (١) .

ومن مدرسيها القاضي الفقيه أَبُو مُحَمَّد عَبْد السَّلَام بن إِسْمَاعِيل بن عبد الرحمن ابن اللَمْغَانِي الحنَفي من أهل محلة أَبِي حَنِيْفَةَ (٥٢٠ - ٦٠٥ هـ) قال ياقوت في « لَمْغَان » من « معجم البلدان » : « ممن رأيناه وأدركناه .. الفقيه المتقن من أهل باب الطاق ومُشْهَد أَبِي حَنِيْفَةَ ، سَكَنَ دَارَ الْخِلَافَةِ بِالْمُطَبِّق ، تفقه على أبيه وعَمِّه ، ودَّرس بمدرسة سُوق الْعَمِيد المعروفة بِزَنْزَك » (٢) .

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ١ / ١٨٣ - ١٨٤ .

(٢) معجم البلدان ٥ / ٨ .

وذكر تدرسه ابن الدبشي^(١) ، وابن الساعي^(٢) ، والقرشي^(٣) والتميمي في « الطبقات السنية »^(٤) .

وقد خلفه في التدريس بها ولده كمال الدين عبد الرحمن (٥٦٤ هـ - ٦٤٩ هـ) مدرّس الحنفية بالمستنصرية^(٥) .

٢٦ - مدرسة ابن بكروس : قبل ٥٧٣ هـ - ١١٧٧ م

وهي من المدارس الخاصة بالجانب الشرقي من بغداد أنشأها الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد بن المبارك ابن بكروس الدبشوري ثم البغدادي الحنبلي المعروف بابن الحكماني المتوفى سنة ٥٧٣ / ١١٧٧ م بالقرب من منزله بـدرب القيار (تحت التكية) ليدرّس بها الفقه الحنبلي ، قال ابن الدبشي في ترجمته : « من ساكني دَرَب القَيَّار ، تفقه على القاضي أبي خازم محمد بن محمد ابن الفراء وعلى أبي بكر أحمد بن محمد الدينوري ، وحصل معرفة المذهب ، ودّرّس بمدرسة له أنشأها مجاورة لمنزله وكان صالحا ... وتفقه به جماعة ، كتب عنه يسيرا ، وسمعتُ شيخنا أبا محمد عبد الرحمن بن عبد العزيز بن الأخضر يذكره ويشني عليه ثناء حسنا ويصفه بالعبادة وكثرة الأوراد ، لقني القرآن الكريم .. أنبأنا عمر بن علي القرشي الحافظ ، قال : سألتُ أحمد بن بكروس عن مولده ، فقال : إما في سنة إحدى أو اثنتين وخمس مئة ، وقال

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ١١٧ / ٤ .

(٢) الجامع المختصر ٢٧٦ / ٩ .

(٣) الجواهر المضية ٣١٥ / ١ .

(٤) الطبقات السنية ٢ / الورقة ٤٩٨ (نسخة التيمورية) .

(٥) تاريخ علماء المستنصرية ١ / ١٢٤ ، وتاريخ ابن الدبشي ٣٦ / ٤ .

صدقة بن الحسين الناسح في تاريخه : وفي عشية الثلاثاء خامس عشر صفر سنة ثلاث وسبعين وخمسة مئة تُوفي أحمد بن بكروس وصُلِّي عليه يوم الأربعاء بجامع القصر ودُفن بباب حرب^(١) . وقال ابن رجب : سُئِلَ عنه الشيخ موفق الدين (المقدسي) فقال : كان فقيها صاحب مسجد ومدرسة يتكلم فيها في مسائل الخلاف وَيَدْرُس ، وكان يترهد ، وكان متروجا بابه ابن الجوزي^(٢) . وبعد وفاة أبي العباس بن بكروس خلفه في التدريس بها وبمسجده تلميذه أبو العباس أحمد بن أبي غالب بن أبي عيسى بن سَيْحُون الأبرودي الحَبَائِيْنِي ، قال ابن الدُّبَيْثِي : « منسوب إلى قرية تُعرف بالحَبَائِيْن بِدُجِيل ... وتفقه على مذهب أبي عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله على أحمد بن بكروس وخلفه بعد وفاته في مسجده بدارب القَيْيَار . وتوفي شاتًا في يوم الجمعة عاشر رَجَب من سنة أربع وسبعين وخمسة مئة ، وصُلِّي عليه يوم الجمعة بجامع القصر الشريف ، ودُفن بباب حَرْب عن نَيْفٍ^(٣) وأربعين سنة فيما قال عبيد الله بن علي المارستاني^(٤) ، وقال ابن رجب نقلًا من تاريخ ابن الجار : « ولما مات ابن بكروس خلفه في مسجده ومدرسته^(٥) .

فلما مات الحَبَائِيْنِي تولى التدريس بها - على ما يظهر - أبو الحسن علي أخو أحمد بن بكروس الأصغر ، قال ابن رَجَب : « علي بن محمد بن المبارك بن

(١) تاريخ مدينة السلام ٢ / ٣٥٧ - ٣٥٩ .

(٢) الذيل على طبقات المحتابلة ١ / ٣٣٨ .

(٣) وقع في المطبوع « ست » من غلط الطبع ، فيصح .

(٤) ذيل تاريخ مدينة السلام ٢ / ٤٣٩ - ٤٤٠ .

(٥) الذيل ١ / ٣٤٣ .

بكرورس البغدادي الفقيه أبو الحسن أخو أبي العباس أحمد السابق ذكره . ولد يوم الاثنين ثالث رَجَب سنة أربع وخمسة مئة ، وتفقه في المذهب ، وبرع وأفتى ، وناظر ودَّرس بمدرسة أخيه آخرًا ... ولزم بيته في آخر عُمره لمرض حصل له إلى أن توفي يوم الاثنين ثالث ذي الحجة سنة ست وسبعين وخمسة مئة^(١) وترجمه ابن الدُّيُثي في تاريخه^(٢) ، وابن النجار في « التاريخ المجدد »^(٣) ، والذهبي في « تاريخ الإسلام »^(٤) ، وغيرهم .

ومن درس بها بعد أبي الحسن علي ولده شمس الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن المبارك بن بكرورس البغدادي الفقيه المُعَدَّل (٥٥٧ - ٦١١ هـ) قال ابن الدُّيُثي : « اشتغل إبراهيم بالفقه على مذهب أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، رحمه الله ، على عَمِّه وعلى أبيه ، وسمع الحديث منها ومن أبي الفتح محمد ابن عبد الباقي بن سلمان المعروف بابن البُطِّي وغيره ، وشهد عند قاضي القضاة أبي الفضائل القاسم بن يحيى ابن الشَّهْرَزُورِي »^(٥) ، وقال ابن رَجَب : « برع وأفتى ، وناظر ، ثم أقبل على إلقاء الدُّروس بمدرستهم بدرب القيار »^(٦) . ثم دخل إبراهيم في الوظائف الدنيوية ولم تُحمد سيرته فيها بسبب ما سببه من الأذى للناس^(٧) .

(١) الذيل ١ / ٣٤٨ .

(٢) ذيل تاريخ مدينة السلام ٤ / ٤٩٧ .

(٣) التاريخ للمجدد ، الورقة ١٧ (باريس) .

(٤) تاريخ الإسلام : ١٢ / ٥٨٨ .

(٥) ذيل تاريخ مدينة السلام ٢ / ٤٦٩ .

(٦) الذيل : ٢ / ٦٩ .

(٧) ينظر تعليقي على ترجمته في التكملة المنذرية ٢ / الترجمة ١٣٣٩ .

وكان في هذه المدرسة مقرئ يُقرئ الناس القرآن ، قال ابن الديلمي في ترجمة بدل بن أبي طاهر بن شيرشهر الجيلاني : « قدم بغداد واستوطنها إلى حين وفاته (سنة ٥٨٩ هـ) وكان ينزل بدرب القيار ، ويقرئ الناس القرآن المجيد بمدرسة ابن بكروس » (١) .

٢٧ - المدرسة القيصرية : قبل سنة ٥٨٩ هـ - ١١٩٣ م

كانت هذه المدرسة بالقرب من مدرسة الشيخ أبي النجيب الشهرزوري التي مر ذكرها . ولا يُعلم مؤسسها ، غير أنها كانت موجودة قبل سنة ٥٨٩ هـ ، وهي السنة التي انتقل فيها مدرستها منها إلى التدريس بمدرسة زُمرّد خاتون الآتي ذكرها . قال ابن الديلمي في ترجمة مدرستها محمد بن أبي عليّ بن أبي نصر الفقيه الشافعي الثوقاني (٥١٦ - ٥٩٢ هـ) : « تفقه بئيسابور على أبي سعد محمد بن يحيى البُيسابوري ، وبرغ في فقهه ، وأحسن الكلام في المناظرة ، ثم قدم بغداد في حال كهولته وأقام بمدرسة قريبة من رباط الشيخ أبي النجيب الشهرزوري تُعرف بالقَيْصَرِيَّة مدة وتردد إليه جماعة من المتفقهة من غير إقامة ، وكان يذكر لهم دَرْسًا من تعليقه ويجذله ، وتجرى عنده مباحثات ومناظرات ينتفع بها جماعة من المترددين إليه والحاضرين عنده ، وهو مقيم على ذلك وعنده طَلَبٌ للتدريس بالمدرسة النظامية ورغبة فيه ، والزَّمان غير مساعد ، إلى أن أُنشأت الجهة الشريفة الكريمة والدة سيدنا ومولانا الإمام المُفْتَرَض الطاعة على كافة الأنام النَّاصر لدين الله أمير المؤمنين - تَحُلَّد الله ملكه ورضي عنها - مدرسة مُجاورة لثريتها الشريفة بالجانب الغربي للفقهاء الشافعية وتقدّمت بأن يكون

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ٣ / ٢٩ .

مُدْرَسُهَا ، فَأَحْضَرُ وَخُلِّعَ عَلَيْهِ خُلْعَةٌ جَمِيلَةٌ وَعِمَامَةٌ وَطَرُوحَةٌ ، وَدُرِّسَ بِهَا يَوْمَ الْخَمِيسِ تَاسِعَ عِشْرِينَ شَوَّالَ سَنَةِ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسٍ مِثَّةً (١) .

ولا نعرف بعد هذا المُدرِّس خبرًا عن هذه المدرسة . ويشير نص ابن الدُّيُّثِيِّ هذا إلى عدم وجود قسم لسكّى الطلبة ، أو عدم وجود دراسة منتظمة فيها ، فلعلها أهملت بعد هذا التاريخ .

٢٨ - مدرسة زمرد خاتون : ٥٨٩ هـ - ١١٩٣ م

أُنشأتها السيدة زمرد خاتون بنت عبد الله والدته الخليفة الناصر لدين الله وزوجة الخليفة المستضيء المتوفاة سنة ٥٩٩ هـ . وكانت كثيرة الرغبة في أفعال البر عَمَّرت المدارس والزُّبُط والجوامع والمساجد ، ووقفت وقوفًا كثيرة منها هذه المدرسة التي أُنشأتها بجوار ثُربتها التي ما زالت باقية إلى اليوم بالجانب الغربي من مدينة بغداد حيث تُعرف بين العامة بالسِت زبيدة بالقرب من قبر معروف الكرخي الزاهد المشهور (٢) .

وتُعرف هذه المدرسة بمدرسة الأصحاب أيضًا (٣) . وهي من كُبرى مدارس بغداد ، وقد حالفها الحظ فاستمر التدريس فيها بقية العصر العباسي وطيلة العصرين : المغولي والجلائري ، بل بقي بيبائها قائما حتى العهد العثماني .

افتتحت هذه المدرسة يوم الخميس التاسع والعشرين من شوال سنة ٥٨٩ هـ ودُرِّسَ بِهَا الْعَالِمُ الْفَقِيهَ الشَّافِعِي فُحْرُ الدِّينِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ٢ / ١٨٤ .

(٢) ينظر التكملة المندرية ١ / الترجمة ٧٢٠ وتعليقنا عليها .

(٣) تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ٣٩٨ من الكاف

أبي نصر الثوقاني ثم البغدادي دفين النجف (٥١٦ هـ - ٥٩٢ هـ) ، قال جمال الدين ابن الديلمي بعد أن ذكر تدرسه بالمدرسة القيسرية وانتقاله إلى التدريس بهذه المدرسة : « ودُرِّسَ بها يوم الخميس تاسع عَشْرِي شَوَّال سنة تسع وثمانين وخمس مئة ، وأُجْرِيَ له الجراية الحسنة والمُشَاهَرَةُ الكثيرة ، وأُعَادَ لَهُ دَرَسُهُ ابْنُهُ وحضر عنده الخَلْقُ الكثير من المدرسين والفقهاء والصوفية والأعيان وأشكِنَ بدارِ بالمدرسة المذكورة ، وانتقلَ إليه جماعةٌ من المتفقهة سكنوا بها أيضًا . ولم تزل حاله جارية على السُّداد من التدريس والمناظرة والفتوى والرواية فإنه حَدَّثَ عن شيخه محمد بن يحيى بأربعين حديثًا جمعها وسمع منه جماعة ، وقد لقيته وما طلبتُ منه السماع وقد أجازَ لي ، إلى أن خرجَ إلى الحج في ذي القعدة سنة إحدى وتسعين وخمس مئة فحج وعادَ فلما وصل الكوفة تُوفي بها في يوم الخميس ثالث صَفَر سنة اثنتين وتسعين وخمس مئة ودُفِنَ بها »^(١) . وقال أبو شامة في ذيل الروضتين : « قَدِمَ بغداد فاستوطنها ، وولي التدريس بمدرسة أم الخليفة المجاورة لثربتها عند قبر معروف ، وله تصانيف وجدل ، خرج حاجًا وعادَ إلى الكوفة وهو مريض فتوفي بها ودُفِنَ بمشهد أمير المؤمنين »^(٢) ، وذكر مثل ذلك الذهبي في « تاريخ الإسلام »^(٣) وغيره .

وولده الذي ذكر ابن الديلمي وغيره أنه أعاد له هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي علي الثوقاني (٥٤٩ - ٦٣٧ هـ) سَمِعَ ببغداد من فخر النساء

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ٢ / ١٨٤ - ١٨٥ .

(٢) الذيل على الروضتين ١٠ .

(٣) تاريخ الإسلام : ١٢ / ٩٨٨ .

شهادة بنت أحمد ابن الإبري وأبي المعالي عبد المعصم بن عبد الله القراوي وأبي القاسم عبد الرحيم بن إسماعيل الصوفي وجماعة سواهم ، وقد رحل من بغداد إلى مصر وسكن بالقرافة بالمدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي ، وحدث بمصر وسمع منه بها عالمها ومحدثها ركي الدين عبد العظيم المنذري المتوفى سنة ٦٥٦ هـ وجمال الدين محمودي المعروف بابن الصابوني المتوفى سنة ٦٨٠ هـ وغيرهما ، وتوفي بها في سحر السادس من شهر ربيع الآخر (١) .

وحيثما توفي فخر الدين التوقاني سنة ٥٩٢ هـ كما ذكرنا ولي التدريس بها الفقيه أبو الحسن علي بن علي بن سعادة بن الجُنَيْس الفارقي ولم يزل بها إلى أن مات في ليلة الاثنين يوم عرفة سنة ٦٠٢ هـ . وقد ذكر ابن الديلمي (٢) والمنذري (٣) وابن الساعي (٤) والذهبي (٥) والسبكي (٦) والصفدي (٧) وغيرهم (٨) أنه ولد بتمّافارقين وسمع بها الحديث وقدم بغداد وصحب الشيخ أبا العجيب الشهروردي وتفقه بالنظامية ثم صار معيداً بها ثم ناب في

(١) تكملة المنذري ٣ / الترجمة ٢٩٢٣ ، وتكملة ابن الصابوني ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٢) ذيل تاريخ مدينة السلام : ٤ / ٤٧٣ - ٤٧٤ .

(٣) التكملة : ٢ / الترجمة ٩٣٧ .

(٤) الجامع المختصر : ٩ / ١٨٨ - ١٨٩ .

(٥) تاريخ الإسلام : ١٣ / ٦٦ .

(٦) طبقات الشافعية : ٨ / ٢٩٥ .

(٧) الوافي : ٢١ / ٣٣٣ .

(٨) المعيني : عقد الجمان ١٧ / الورقة ٢٩ .

التدريس بها بعد وفاة مدرستها الشيخ الفقيه أبي طالب المبارك بن المبارك الكرخي ، فبقي بها إلى أن وليّ تدريس هذه المدرسة فدرّس بها سنة ٥٩٢ هـ وتخلّع عليه وأعطى طرحة .

ولا ندري من درّس بها بعده ولكننا نعلم أن أبا القاسم عبد الرحمن بن محمد بن بدر بن جامع بن سعيد الواسطي البزرجوني الشافعي المتوفى سنة ٦٢٨ هـ . قد وليّ التدريس بها في مفتتح سنة ٦٠٤ هـ قال تاج الدين ابن الشاعي في حوادث السنة المذكورة : « في يوم السبت غرة المحرم درّس الكمال عبد الرحمن بن محمد ابن المعلم البزرجوني بالمدرسة المجاورة لثربة منشئها والده الإمام الناصر لدين الله »^(١) ، وقال ابن الفوطي : « ودرّس بمدرسة الأصحاب المجاورة لثربة أم الناصر في المحرم سنة أربع وست مئة »^(٢) ، وقال المنذري في ترجمته من « التكملة » : « ودرّس بمدرسة والده الخليفة الإمام الناصر لدين الله قدّس الله روحهما »^(٣) . وقد حفظت لنا المصادر جملة من أسماء مدرسيها مما يدل على أهميتها ومنزلتها في العصور التالية ، فقد درس بها مُدبِّدٌ قاضي القضاة محي الدين أبو عبد الله محمد بن يحيى ابن فضلان الذي أصبح فيما بعد أول مدرسي الفقه الشافعي في المدرسة المستنصرية^(٤) ، وفخر الدين أبو الفضل محمد بن محمد المراعي المعروف

(١) الجامع المختصر : ٩ / ٢١٧ .

(٢) تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ٣٩٨ من الكاف .

(٣) التكملة ٣ / الترجمة ٢٣٦٢ .

(٤) تنظر ترجمته في تاريخ علماء المستنصرية لأستاذنا الدكتور ناجي معروف ، وراجع كتاب الحوادث : ٩١ .

بالحيوان المتوفى سنة ٦٥٣ هـ^(١) ، والقاضي عز الدين أبو العز محمد بن جعفر البصري المتوفى سنة ٦٧٢ هـ^(٢) وولده نجم الدين محمد بن أبي العز البصري الذي وليها بعد وفاة والده^(٣) ، وجمال الدين عبد الله بن محمد بن علي بن حماد بن ثابت الواسطي المعروف بابن العاقولي شيخ المستنصرية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ^(٤) .

ومن أعاد للمدرسين في هذه المدرسة معين الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن محمد الربيدي البغدادي الخريجي الطاهري الفرضي المتوفى سنة ٦٢٠ هـ^(٥) ، وموفق الدين أبو الحسن علي بن الخطاب بن مقلد الواسطي المُنحَدَثِي المقرئ معيد المدرسة الفخرية المتوفى سنة ٦٢٩ هـ^(٦) ومحب الدين أبو عبد الله محمد بن شريف المتوفى سنة ٦٣٧ هـ^(٧) .

٢٩ - مدرسة ابن العطار : قبل سنة ٥٩٥ هـ - ١١٩٩ م

كانت هذه المدرسة بدرب القَيَّار (تحت التكية) أنشأها أبو القاسم نصر بن منصور بن الحسين بن أحمد ابن العطار الخُرَّاني الأصل البغدادي الدار المتوفى في ذي القعدة سنة ٥٩٥ هـ ، قال المنذري في ترجمة

(١) ابن الفوطي تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٢٤٢٩ .

(٢) الحوادث : ٤١٣ .

(٣) الحوادث : ٤١٢ .

(٤) الحوادث : ٤٢٢ ، ومُستَخَب المختار ٧٤

(٥) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ١٤٥٧ من الميم .

(٦) المصدر نفسه ٥ / الترجمة ٣٠٠٥ من الميم

(٧) المصدر نفسه ٥ / الترجمة ٢٠٤ من الميم

حفيده وسميه أبي القاسم نصر بن منصور بن نصير بن منصور المتوفى بالقاهرة سنة ٦٠٩ هـ . وجده أبو القاسم نصر ولد بجران وقديم بغداد وسكنها إلى أن مات بها وكان شيخ التجار بها ، حفظ القرآن الكريم في حال كبره وسمع شيئاً من الحديث من أقرانه وكان كثير التلاوة للقرآن الكريم وله بر وصلة^(١) ، وقال تاج الدين ابن الساعي في وفيات سنة ٥٩٥ هـ : « وبنى مدرسة للفقهاء الحنابلة بدرب القيار »^(٢) . وليس لدينا من الأخبار ما يشير إليها غير إشارة لإنشائها ، فلم نقف على ذكر أحد من المدرسين أو المتفقهة بها .

٣٠ - المدرسة الشاطئية بباب الشعير : قبل سنة ٥٩٨ هـ - ١٢٠١م

أسسها الجهة الصالحة بنفسها بنت عبد الله عتيقة الخليفة المستضيء بأمر الله المتوفاة سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١م ، قال ابن الديبشي في ترجمة الركن عبد السلام ابن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلي ثم البغدادي المولد والدار : « ودرس بعد وفاة أبيه بمدرسة جده بباب الأزج ، وبالمدرسة الشاطئية التي وقفها بنفسها بدرب الشعير »^(٣) .

ودرب الشعير أو باب الشعير محلة معروفة بالجانب الغربي من بغداد ، ذكر ابن الديبشي أنها بين محلتين باب البصرة والنصرية^(٤) ، وقال ياقوت : « باب الشعير محلة فوق مدينة المنصور ، قالوا : كانت ترفأ إليها سفن الموصل والبصرة ، والمحلة التي ببغداد اليوم ، وتعرف بباب الشعير ، هي بعيدة من

(١) المنذري : التكملة : ٢ / الترجمة ١٢٥١ .

(٢) ابن الساعي : الجامع المحصر : ٩ / ١٤ .

(٣) تاريخه : ٤ / ١١٩ .

(٤) تاريخه ٢ / ٢٠٤ و ٣ / ٣٨ ، ٦٠ ، ٢٠٧ ، ٣٧٧ .

دجلة ، بينها وبين دجلة حراب كثير والحريم وسوق المارستان^(١) . والظاهر أنها أنشئت بعد دخول الرحالة ابن جبير بغداد سنة ٥٨٠ هـ بدليل عدم ذكره لأي مدرسة في الجانب العربي من بغداد^(٢) .

وممن دُرّس فيها أبو صالح نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلي الأصل ثم البغدادي المولد والدار الفقيه الحنبلي المتوفى سنة ٦٣٣ هـ ، قال صاحب الكتاب المسمى بالحوادث في ترجمته : « ودُرّس في مدرسة جده بباب الأزج ، والمدرسة الشاطئية بباب الشعير^(٣) . وقال ابن الفوطي : « ودُرّس بمدرسة جده وبالمدرسة الشاطئية^(٤) وتوهم شيخنا العلامة مصطفى جواد قطبها هي المدرسة التي أنشأتها بنفسها بباب الأزج ، بالجانب الشرقي من بغداد^(٥) .

٣١ - المدرسة الأسبأباذية : قبل سنة ٦٠٤ هـ - ١٢٠٧ م

هكذا وجدت اسمها مجرّد التقييد والضبط في النسخة الخطية من تاريخ ابن الدبشي المحفوظة في مكتبة الشهيد علي باشا ياستانبول وهي نسخة متقنة نفيسة كتبت في حياة مؤلف الكتاب^(٦) . وجاء اسمها في المطبوع من « الجامع المختصر » لابن الساعي (الأسبأباذية)^(٧) ، وقيدها الذهبي في مختصره لتاريخ ابن

(١) معجم البلدان : ١ / ٣٠٨ .

(٢) رحلة ابن جبير ١٨٣ .

(٣) الحوادث : ١١٥ - ١١٦ .

(٤) تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ١٢٩٣ .

(٥) ينظر تعليقه على المصدر السابق .

(٦) ذيل تاريخ مدينة السلام ٢ / ١٧١ .

(٧) الجامع المختصر ٢١٩/٩ .

الديلمي (الأصبهنية)^(١) مع أن معتمده تاريخ ابن الديلمي . وسماها صاحب الكتاب المسمى بالحوادث : الأصبهنية^(٢) ، والعرب تقلب الپاء الفارسية إلى باء موحدة أو فاء ، وقال العلامة الفيروزآبادي : « والأصبهنية : نوع من دراهم العراق ، ومدرسة ببغداد بين الدرين »^(٣) . وآثرنا إثبات ما في تاريخ ابن الديلمي مع علمنا بجواز الاختلاف في تلفظ الأسماء غير العربية . وقال شيخنا علامة العراق الدكتور مصطفى جواد : « لعلها منسوبة إلى الأصبهذ صباوة بن خمار تكين المذكور في الكامل غير مرة في حوادث سنة ٤٩٤ هـ وغيرها »^(٤) .

وليس لدينا من أخبار هذه المدرسة غير أخبار مُدرسين دُرّس بها ، أولهما : العالم الفقيه الشافعي عماد الدين أبو بكر محمد بن يحيى السلامي المعروف بابن الحُبَيْر (٥٥٩ - ٦٣٩ هـ) دُرّس بها سنة ٦٠٤ هـ ، قال ابن الديلمي : « محمد بن يحيى بن المظفر بن عليّ بن نُعيم ، أبو بكر ابن شَيْخنا أبي زكريا يُعرف بابن الحُبَيْر . تفقه مدةً على مذهب أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، وتكلّم في مسائل الخلاف وناظر ، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي رضي الله عنه ، ودُرّس بالمدرسة المعروفة بالإسبازية بين الدُرّين على مذهب الشافعي ، وخرّج إلى الحج متولياً كُسوة البيت الشريف والصدقات بالحرمين الشريفين . وسمع الحديث من جماعة منهم : الكاتبة فخر النساء شُهدة بنت أحمد الإبري ، وأبي الفتح نصر بن فُتيان ابن المُنّي وغيرهما ، وحدث عنهم . مولده في محرم سنة تسع وخمسين

(١) المختصر المحتاج إليه ١ / ١٦٢ .

(٢) الحوادث : ١٨ وتعليقنا عليه .

(٣) القاموس المحيط ، فصل الصاد من حرف الدال المعجمة (أصبهان) .

(٤) تلخيص مجمع الآداب ٤ / ٢ / ٨٥٥ .

وحمس مئة ، سمعت ذلك منه ^(١) وقد تأخرت وفاته إلى ما بعد وفاة ابن الدبشي بسنتين ، قال زكي الدين المُنذري في وفیات سنة ٦٣٩ هـ من « التكملة » : « وفي السابع من شَوَّال تُوفي القاضي الأجل أبو بكر محمد ابن الشيخ أبي زكريا يحيى بن مظفر بن علي بن نُعيم البغدادي الشافعي المعروف بابن الحُبَيْر بعداد وُصِّلِي عليه بجامع القصر ، ودُفن بمقبرة الإمام أحمد ^(٢) . وقال تاج الدين ابن الساعي في حوادث سنة ٦٠٤ هـ : « وفي يوم السبت ثامن جُمادى الأولى انتقل شيخنا عماد الدين أبو بكر محمد بن يحيى الشلامي المعروف بابن الحُبَيْر عن مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله إلى مذهب الشافعي رضي الله عنه وكان من أعيان الفقهاء علماً ودينًا وصلحاءاً وعدالةً وورعًا ، وُسِّمَتْ إليه المدرسة الأسابذية بين التَّزِين تدريسًا ونظرًا في وقفها ، فدرَّس بها يوم الخميس ثالث عشره ، وحضر عنده جماعة من المدرسين والفقهاء ^(٣) .

أما الثاني : فهو الشهيد العالم صدر الدين أبو معشر الهَمْداني ، وهو ممن أعدمهم الطاغية هولاكو عند استيلائه على بغداد وهو في الثمانين من عمره ^(٤) .

٣٢ - المدرسة الشَّرَابية : ٦٢٨ هـ - ١٢٣١ م

وُسِّمَت الشَّرَفِيَّة أو الإقبالية نسبة إلى مُنْشِئها شرف الدين إقبال الشَّرَابي أحد قادة الجيوش العباسية الشُّجْعَان في عهدي المستنصر والمستعصم والمتوفى سنة ٦٥٣ هـ . ولعلها هي البناية المعروفة اليوم بالقصر العباسي ضمن بناية

(١) تاريخه : ١٧١ / ٢ - ١٧٢ .

(٢) التكملة : ٣ / الترجمة ٣٠٤٥ .

(٣) الجامع المختصر : ٩ / ٢١٩ .

(٤) المسجد المسبوك للعسائي : ٦٣٨ ويعدّل تعليقنا على كتاب الحوادث ١٨ هامش ٣ .

وزارة الدفاع القديمة على ما أثبتته العلامة الأستاذ الدكتور ناجي معروف -
 يرحمه الله - بالأدلة المستندة إلى دراسة فنية وخططية مستفيضة^(١) .

وقد تَوَلَّى الإشراف على بنائها شمس الدين أبو الأهرر أحمد ابن الناقد
 وكيل الخليفة المُشتنصر بالله ، وغرم عليها الشُّرايبي أموالاً طائلة ، وأوقف عليها
 الوقوف الدَّارة ، وجعل النظر فيها وفي أوقافها إلى وكيل الخليفة ابن النافذ ثم
 إلى من يلي وكالة الخلافة من بعده . وكانت مخصصة لاستيعاب خمسة
 وعشرين طالباً من طلبة العقيدة الشافعية ، قد رُتبت لهم مستلزمات الدِّراسة ،
 والسُّكن ، والطعام ، والزيَّواتب ، وضُمَّت مكتبةٌ يديرها خازن مسئول عنها .

افتتحت هذه المدرسة في آخر شوال سنة ٦٢٨ هـ ، ورُتّب بها الشيخ تاج
 الدين محمد بن الحسن الأرموي مدرِّساً وتُخْلِيع عليه وعلى المعيدين والطلبة
 وجميع الحاشية ومن تولى عِمَّارتها ، وحضَرَ حفل الافتتاح جميع المدرسين
 والفقهاء على اختلاف المذاهب وقاضي القضاة عبد الرحمن بن مُثَيل فجلس
 في صَدْر الإيوان وجلس في طرفي الإيوان محيي الدين محمد بن فَضْلان
 وعماد الدين أبو صالح نُضْر بن عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلاني وكان كلاهما
 قاضي قضاة ، وعُمِلَ عند افتتاحها أنواع الأطعمة والخُلُوء ما تعبى في صحنها
 قباباً ، وحُمِلَ من ذلك إلى جميع المدارس والأربطة ، وقُرئت الختمة ، وتكلَّم
 الشيخ محمد الواعظ ، ثم جلس المدرِّس بعده وافتتح التدريس بها ، فذكر
 أربعة دروس أعربَ فيها عن عزارة فَضْله وتوسَّع علمه^(٢) .

(١) يراجع كتابه النفيس : المدارس الشرايبيّة ، بغداد ١٩٦٥ .

(٢) ينظر الكتاب المسمى بالحوادث ٤٥ - ٤٦ .

وكان الناح الأرموي مدرستها عالماً فاضلاً قرأ في شببته على فخر الدين الرزازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ وصحبه ، وبرع في العقلات حتى كان سلطان الماظرين في عصره ، وتوفي سنة ٦٥٣ هـ (١) .

والظاهر أن الدراسة استمرت فيها في عهد المفلول ، فقد ذكر أن القاضي نجم الدين عبد الله بن كامل بن محمود القوساني كان مدرساً بها سنة ٦٧٦ هـ ، كما ذكر ابن الفوطي المتوفى سنة ٧٢٣ هـ أنه سمع على خازن كتبها مجد الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن هبة الله المعروف بابن الماوري الواسطي الفقيه (٢) .

٣٣ - المدرسة انجهدية : ٦٣٧ هـ - ١٢٣٩ - ١٢٤٠ م

وهي آخر مدرسة أحادية أنشئت ببغداد في عهد الخلافة العباسية ، منسوبة إلى منشئها مجاهد الدين أيلك بن عبد الله المشتصري أمير الأمراء المعروف بالدويدار الصغير المقتول في واقعة بغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م أعده الطاغية هولاءكو وقد جاوز عمره الثمانين سنة وأنفذ رأسه إلى المؤصل (٣) .

شيد مجاهد الدين مدرسته سنة ٦٣٧ هـ في دار الخلافة العباسية تجاه دار الدويدار الكبير (في محلة المربعة) وأوقفها على الحنابلة ، واستمرت عامرة حافلة بالطلبة إلى أواخر القرن الثامن الهجري فقد وصفها ابن رافع السلامي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ بأنها أكبر مدارس بغداد (٤) .

(١) تاريخ الإسلام - للذهبي ١٤ / ٧٤١ ، والكتاب المسمى بالحوادث ٣٢٦ ، والواقعي للصفدي ١ / ٢٣٥ .

(٢) تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ٣٦٧ من الميم .

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام : ١٤ / ٨٣٥ .

(٤) منتخب المختار : ١٢٥ ، وكتاب الحوادث ١٥٧ .

وكانت في هذه المدرسة خزانة كتب عامرة ازداد عمارها بوقف عدد من العلماء كتبهم عليها ، فقد ذكر ابن الفوطي في ترجمة كمال الدين منصور بن أحمد الدوري أنه كان من أرباب البيوتات القديمة خرج بعد الوقعة سنة ٦٥٦ هـ وسكن الشام وأنفق أموالا اشترى بها الأسرى من المغول وكان كثير الخيرات والمبرات وقف كتبه على المدرسة المصطفوية ... سنة ثمان وخمسين وست مئة^(١) .

كما أوقف العالم الكبير الأديب الشهير صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق الحنبلي المتوفى سنة ٧٣٩ هـ جميع خزانته من كتب وما ألفه هو على خزانة هذه المدرسة^(٢) .

ومن دُرُس في هذه المدرسة الشيخ كمال الدين علي بن محمد بن وضاح الشَّهْرَابَانِي المتوفى سنة ٦٧٢ هـ ، ولي التدريس بها بعد افتتاح المدارس بعد واقعة بغداد واستمر بها إلى حين وفاته^(٣) ، وركن الدين شافع بن عُمر بن إسماعيل الجيلي ثم البغدادي الفقيه الأصولي المتوفى سنة ٧٤١ هـ^(٤) ، وشرف الدين أبو محمد عبد الرحيم بن عبد الله بن محمد ابن أبي بكر بن إسماعيل الزرياني البغدادي المتوفى سنة ٧٤١ هـ^(٥) ، وشمس الدين محمد بن أحمد السقاء تلميذ صفى الدين عبد المؤمن

(١) تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ٥٩٦ من الكاف .

(٢) منتخب المختار : ١٢٢ .

(٣) ابن رجب : الذيل : ٢ / ٢٨٣ .

(٤) المصدر نفسه : ٢ / ٤٣٥ .

(٥) المصدر نفسه : ٢ / ٤٣٦ .

المتوفى سنة ٧٦٥ هـ^(١) ، وغيرهم .

٣٤ - المدرسة المستنصرية : ٦٣١ هـ - ١٢٣٤ م^(٢)

منسوبة إلى الحليفة المستنصر بالله العباسي الذي ولي الخلافة من سنة ٦٢٣ هـ إلى سنة ٦٤٠ هـ ، وهي أول مدرسة في العالم الإسلامي عُتبت بتدريس الفقه على المذاهب الأربعة ، وأفخم مدارس العراق على الإطلاق ، وأكثرها شهرةً ، وأعظمها وقفًا ، مارال بناؤها قائمًا يحكي عظمة الحصاره ورقها .

شرع المُستنصر بالله العباسي ببنائها سنة ٦٢٥ هـ على شط دجلة مما يلي دار الخلافة ، وحشد لها البنائين والقيس فدام العمل فيها بجد ونشاط قرابة ست سنوات بلغت النفقة عليها خلالها سبع مئة ألف دينار ، وهو مبلغ جد ضخم إذا عرفنا القوة الشرائية للدينار الذهب آنذاك بحيث كان أعلى موظف فيها يتقاضى اثني عشر دينارًا فقط .

افتتحت المدرسة في اليوم الخامس من شهر رَجَب سنة ٦٣١ هـ / ٦ نيسان ١٢٣٤م باحتفال كبير حضره كبار رجال الدولة والعلماء والطلبة وولمت الولائم وكان احتفالاً مهيباً .

وقد نظم الحليفة المستنصر هذه المدرسة تنظيمًا لم يُشبق إليه من حيث الإدارة والتدريس والطلبة وشؤونهم ، فجعل إدارتها بيد (ناظر) أو (وال) يُختار من بين كبار موظفي الدولة ، يساعده مُشرف وكاتب ، وفيها معمارية ،

(١) ابن رجب : الذيل ٢٠ / ٤٤٦ .

(٢) ينظر عنها الكتاب النيس الذي ألّفه العلامة الدكتور ناجي معروف تاريخ علماء المستنصرية ، في مجلدين ، والمطبوع عدة طبعات .

وعشرة فراشين ، وثلاثة بوايين ، وخمّامي ، ومُزَيّن ، وقَيّم ، وطباخ ومساعد له ، ومدير مخزن ، ومزملاتي ، ونقاط ، وعدد من الموظفين الآخرين .

ولما كانت المستنصرية قد أنشئت لتدريس المذاهب الفقهية الأربعة فقد اشترط المستنصر أن يكون لكل طائفة من الطوائف الأربع مدرس (أستاذ كرسي الفقه) ، وأن يكون لكل مدرس أربعة معيدين . وكان الخليفة هو الذي يعين المدرسين بتوقيع (إرادة ملكية أو مرسوم جمهوري) يصدر عنه ، ثم يُخلّع عليه بدار الوزارة خلعة التدريس ويسير في موكب مهيب فيه الولاة والحجاب والصُدُور وأرباب المناصب احترامًا له واحتفاءً به ، ويحضر الأئمة والفُقهَاء محاضراته الأولى ، وغالبًا ما يبقى في منصبه مدى الحياة .

أما طلبة الفقه (الفُقهَاء) فقد كانوا (٢٤٨) طالبًا ، اثنان وستون طالبًا لكل طائفة يُنتخبون من بين النابهين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، أما مدة دراستهم فيظهر أنها بين ٤ - ٦ سنوات مع أنه ليس لدينا معلومات دقيقة عن مدة الدراسة ، لكن الدراسة في المساجد والمدارس الأحادية كانت بحدود أربع سنوات ، وقليّم منصور بن سَلِيم الاسكندراني إلى بغداد ، ودرس بالمستنصرية بين ٦٣٣ - ٦٣٩ هـ^(١) .

والحق المُستنصر بمدرسته دارًا للقرآن الكريم اعتنى ببنائها فكانت إحدى المعالم الحضارية المعمارية ببغداد آنذاك ، وطلب أن يكون فيها ثلاثون صبيًا أيتامًا يتلقنون القرآن على شيخ مقرأ متقن صالح يعاونه معيدٌ يعيد للطلبة ما يلقى عليهم الشيخ ويحفّظهم التلاقين .

(١) ينظر كتابه الذي ذيل به على إكمال الإكمال لابن نقطة .

كما كان فيها شيخ يروي الحديث . وقد طَلَب المُستَنصر أن يتولى مشيخة الحديث فيها شيخ عالي الإسناد يعاونه قارئ الحديث ، وينتظم فيها عَشْرَة من الطلبة يشتغلون بعلم الحديث النبوي . وكانت رواية الحديث تجرى ثلاثة أيام في الأسبوع هي : السبت والاثنين والخميس .

واشترط المستنصر أن يكون بمدرسته نحوي يدرّس العربية والظاهر أن له معيّدًا أسوة بغيره . ولما لم تكن للعربية بناية خاصة في هذه المدرسة فالظاهر أن دراسة اللغة كانت تعقد في رواقها أي في صُحنتها وأواوينها ، فقد عقد ابن الصَّبَّاح الجَزْري المتوفى سنة ٦٧٦ هـ عَشْرَة مجالس برواق المستنصرية لمدة شهرين حضرها مئة وستون سامعًا .

وكان علم الطب من العلوم التي تُدرّس بالمستنصرية إذ اشترط المستنصر أن يكون في مدرسته طبيبٌ حاذق مُسلم وأن يكون بها عَشْرَة طلبة من المُسلمين يشتغلون عليه بعلم الطب . وكان من واجب هذا الطبيب أيضًا معالجة المرضى من رجال الإدارة والمدرسين والطلبة في هذه المؤسسة العلمية ، وأن يُعطى المريض ما يُوصف له من الأدوية والأشربة والكحال السائلة والسكر والفَرَاريج وغير ذلك . وقد ذكر ابن العَبَّري وغيره أنه كان بالمستنصرية مخزن فيه أنواع الأشربة والأدوية والعقاقير أي أنها تضم صيدلية أو مذكرًا طبيًا . والظاهر أن الخليفة شعر بضرورة وجود بناية خاصة بالطب لهذه المدرسة وذلك لتسهيل مراجعة المَرَضَى من جهة ومعالجة المرضى من غير المستنصرية من جهة ثانية لذلك قام بإنشاء بناية خاصة بها تقع تجاه المدرسة أي مقابل باب المدرسة الرئيسي ، وافتتحت سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ ، قال صاحب العسجد المسبوك : « وفي ثاني جمادى الآخرة كُمِلت عمارة إيوان الساعات

الذي أمر الخليفة بإنشائه قبالة المدرسة المستنصرية وعمل تحته صُفَّة فاحرة فجلس عليها الطبيب وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب وتقصده المرَضَى فيداويهم^(١) . وذكر ابن العبري أن طبيب المستنصرية كان يتردد إلى مرضاها في بكرة كل يوم يتفقدهم .

وعُني المستنصر عناية بالغة بمكتبة هذه المدرسة ، فقد ذكر صاحب الكتاب المسمى بالحوادث أنه نقل إليها يوم افتتاحها « من الرِّيعات الشريفة والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدِّينية والأدبية ما حمله مئة وستون حملاً وجعلت في خزانة الكتب^(٢) » ، سوى ما نُقِلَ إليها فيما بعد^(٣) . وقد ذكر ابن الفوطي - وقد تولى إدارتها مدة - أنه لم يوجد مثلها في العالم . وقد قَرَنها الإمام الذهبي المؤرخ بخزانة الرِّصد التي أنشئت فيما بعد بمراغة فقال : « وليس في البلاد أكثر من هتين الخزانتين » . ولا بد أن المكتبة ظلت تُفتَى بالكتب بعد تأسيس المدرسة فضلاً عن قيام بعض العلماء بوقف كتبهم عليها . ورتبت الكتب حسب موضوعاتها ليسهل تناولها والإفادة منها . وقد اشترط المستنصر أن يكون فيها خازن للخزانة (أمين مكتبة) ، يعاونه مُشرف وماول للكتب ، وأن تُجعل الخزانة برسم من يطالع ويستنسخ من الطلبة ، ووفر الورق والأقلام لمن يريد المسخ .

وكانت المدرسة المستنصرية داخلية توفر لرجال إدارتها ومدرسيها وطلبتها المأكل والمسكن فضلاً عن رواتب شهرية جارية ، فقد اشتملت البناية على

(١) المسجد المبيوك : ٤٧١ ، والكتاب المسمى بالحوادث ١١١

(٢) الحوادث : ٨١ .

(٣) تاريخ الإسلام : ١٤ / ٨ .

محجر وعُرف لسكنى الطلبة ، وكانت الأُطعمة تورع يومياً مطبوخة في مطبخها على طلابها الذين أثبتوا فيها وهم : (٢٤٨) طالباً في مدرسة الفقه ، وثلاثون في دار القرآن ، وعَشْرَة في دار الحديث ، وعَشْرَة في مدرسة الطب ، إضافة إلى الأخباز والحلوى والفاكهة وهيئت لهم الحُصْر والسراج والريت والفرش والصابون ، كما وهيئت الأخبار والورق والأقلام للاستساح وحمام حار في الشتاء وماء بارد للشرب صيفاً ، فصلاً عن المعالجة الطبية المجانية . وكان يوزع على رجال الإدارة والتدريس يومياً كميات كبيرة من الخبز واللُحْم والحضر والخُطْب تكفي لهم ولعيالهم وضيوفهم .

وكان الموظفون والتدريسيون فوق كل ذلك يتقاضون مرتبات شهرية نقدية من الدُباير الذهبية ، فكانت رواتب الناظر ومدرسي الفقه (١٢) ديناراً ، وكان مُشرف الناظر وكتابه يتقاضيان سبعة دنائير ، وأمين المكتبة عَشْرَة دنائير ، والمُشرف على المكتبة ثلاثة دنائير ، والمناول دينارين . أما شيوخ القرآن والحديث والعربية والطب فكان راتب كل منهم ثلاثة دنائير ، وكان معيد الحديث يتقاضى دينارين وعَشْرَة قراريط ، ومُعيد شيخ دار القرآن ديناراً وعشرين قيراطاً ، بينما طالب الفقه يتقاضى دينارين ، ويتقاضى طلبة القرآن والحديث والطب ثلاثة عشر قيراطاً وخمسة . وهذه الرواتب جيدة إذا عرفنا القوة الشرائية للدينار يومئذ .

ومن أجل إدامة هذه المؤسسة الزاكية فقد أوقف المستنصر على مدرسته وفقاً لجليلاً حصل المؤرخ ابن السَّاعي - أمين مكتبتها - على نُسخة منه فدونه في خمسة كرايس ، وقد اطلع عليه المؤرخ شمس الدين الذهبي ونقل مختصره في كتابه « تاريخ الإسلام » . وقال : « ثم رأيتُ نسخة كتاب وقفها

في خمسة كرايس الوقف عليها عدة رباع وحواييت بعداد وعدة قُرى كبار وصغار ما قيمته تسع مئة ألف دينار فيما يخال إليّ ، ولا أعلم وقفًا في الدنيا يقارب وقفها أصلاً سوى أوقاف جامع دمشق وقد يكون وقفها أوسع^(١) ، وقال بعد أن سرد أوقافها : « المرزقة من أوقاف هذه المدرسة على ما بلغني نحو من خمس مئة نَفَر ، المدرسون فمن دونهم ... فكذا فليكن البر والإلا فلا وحدثنى الثقة أن ارتفاع وقفها بلغ في بعض السنين ثَقَفًا وسبعين ألف مثقال ذهباً^(٢) . هذا وقد عاش الذهبي في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري وشاهد واطلع على أوقاف عَشْرَات المدارس قبلها .

وكان المستوى العلمي للشيخ والمدرسين والمُعَيدِين والطلبة في المدرسة المستنصرية أعلى من مستويات المدارس المعاصرة أو التي أنشئت قبلها تدل على ذلك الأمور الآتية :

١ - كان المدرسون يُتَخَيَّرُون من بين كبار المدرسين في العراق والشام ومصر وغيرها من البلاد الإسلامية ممن انتهت إليهم رئاسة العلم . وقد اضطرت القُوْمة على هذه المدرسة في بعض الأحيان على استقدام المدرسين من خارج العراق ، فقد استدعى المستنصر الشيخ أحمد بن يوسف الحَلْبِي لتدريس الحنفية بها سنة ٦٣٣ هـ كما استقدم في السنة نفسها الشيخ سراج الدين عبد الله بن عبد الرحمن الشارمستاحي من الإسكندرية لتدريس المالكية وصاحب معه جماعة من الطلبة سجلوا في المدرسة وظل فيها إلى حين وفاته سنة ٦٦٩ هـ .

(١) تاريخ الإسلام : ١٤ / ٨ - ٩ .

(٢) المصدر نفسه ١٤ / ١٠ .

٢ - إنَّ المعيدين فيها كانوا يُنقلون أحياناً إلى مدرسين في المدارس الأخرى مثل شافع الجيلي والمُحب البعادي ومجد الدين ابن الساعاتي وغيرهم ، كما أنَّ المدرسين في غيرها لا يُنقلون إلا إلى الإعادة فيها .

٣ - لا يقبل أي طالب للدراسة فيها ما لم يكن من النابهيين الذين أصبحت لهم شهرة تؤهلهم للدراسة فيها .

٤ - كانت نسبة عدد المدرسين والمعيدين إلى عدد الطلاب نسبة ممتازة تضاهي الجامعات الراقية في العصر الحديث وكان عدد طلبة الطب والحديث عشرة طلاب فقط .

٥ - توفّر مستلزمات التعليم العالي والبحث العلمي الذي يتمثل في وجود مكتبة ضخمة تحوي آلاف المجلدات تساعد الأساتذة والطلبة على الدراسة والبحث والتأليف ، كما أنَّ معالجة شيخ الطب للمرضى يُعد مجالاً تطبيقياً حيويًا لدراسة الطب ، فضلاً عن توفير المتطلبات المادية التي تجعل الأستاذ والطالب في مأمن من المشاكل التي تعترض سبيل دراستهم .

إن دراسة الفقه على المذاهب الأربعة بأماكن مستقلة داخل المدرسة المُستنصرية ، والعناية بدراسة علوم القرآن ، والسنة النبوية ، وعلوم العربية ، والطب ، والفرائض في مؤسسة واحدة يشير إلى تطوير كبير في نظام التعليم ، ويحق للباحث عندئذ أن يشبه هذه المؤسسة بالجامعة ، فكان العراق سباقاً إلى هذا الأمر ، فشرع الناس بتقليده والتأثر على بهجه في أصقاع العالم الإسلامي فيما بعد فبوا المدارس على صفة المُستنصرية .

ويرى الأستاذ جورج مقدسي أنَّ إنشاء المدرسة المُستنصرية هو إتمام لدورة التطوير في مؤسسات العلم ببغداد ، فالجامع مؤسسة عامة يضم حلقات

تمثل جميع المذاهب ، والمسجد ثم المدرسة كلاهما حاصنان مختصان بمذهب واحد وأخيراً المدرسة التي أنشأها الخليفة أصبحت مرة أخرى عامة تفيد من خصائص المدرسة الخاصة . ومما تجدر الإشارة إليه هو أن الجامع كان يقرأ فيه القرآن بالروايات ويروى الحديث ويدرس النحو والأدب والطب^(١) .

٣٥ - المدرسة التبشيرية : ٦٥٣ هـ - ١٢٥٥ م

تقع هذه المدرسة في الجانب الغربي من بغداد قرب مشهد الشيخ معروف الكزنجي وهي منسوبة إلى منشئها حظية الخليفة المستعصم وزوجته وأم ولده الأمير أبي نصر محمد المعروفة بباب تبشير المتوفاة سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م^(٢) .

بدأ العمل في إنشاء هذه المدرسة سنة ٦٤٩ هـ^(٣) واستمر أربع سنوات مما يدل على ضخامة بنائها وفخامتها ، وجعلتها وقفاً على المذاهب الأربعة على قاعدة المدرسة المستنصرية ، ووقفت عليها أوقافاً كثيرة قبل الانتهاء من إنشائها . وكان افتتاحها يوم الخميس الثالث عشر من جمادي الآخرة سنة ٦٥٣ هـ / ٢٠ تموز ١٢٥٥ م بعد وفاة صاحبة المدرسة بسنة ، لذلك حضر الخليفة بنفسه حفل الافتتاح وحضر أولاده فجلسوا في وسطها كما حضر الوزير وأرباب المناصب ومشايخ الرهبان والمدرسون ، وحُلِّقَ على المدرسين

(١) ينظر كتابه عن المدارس باللغة الإنكليزية .

(٢) كتاب الحوادث : ٣١٩ .

(٣) كتاب الحوادث : ٣٠٣ .

وعلى الناظر بها ونواب العمارة والفراشين وحدم القبة ، وأنشدت الأشعار^(١) ، وعملت وليمة عظيمة وصفها صاحب « المسجد المسبوك » نقلاً من تاريخ تاج الدين ابن الساعي فقال : « وعملت بها دعوة جميدة كان مبلغ الدقيق الذي عمل منه الخشكنان والسنبوسج ثلاثة أكرار ، ومبلغ ما ابتيع من الشكر لأجل الحلوى سبعة وعشرون ألف رطل وإلى غير ذلك »^(٢) .

وقد ألحقت بالمدرسة المذكورة خزانة كُتُب فخمة نفيسة وصفها صاحب كتاب « المسجد المسبوك » فقال : « وتُقل إليها من الكُتُب ما يُحِيل على ستة وثلاثين صندوقاً بالخطوط المنسوبة والنسخ المصبوطة منها ما هو بخط ابن التُّرَّاب وبخط ابن (مقلة) سبعون قطعة ، ومصحف كريم بخط عُثمان بن عفان رضي الله عنه ، ومُصحف بخط زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام ، ومصحف بخط ابن التُّرَّاب إلى غير ذلك »^(٣) ، وقال ابن الفوطي في ترجمة فخر الدين أبي إسحاق إبراهيم بن حسن بن أيدغدي الكاتب خازن الكُتُب بالمدرسة البشيرية : « الشيخ الأديب الكاتب صاحب الأخلاق الحميدة والآداب الغزيرة كتب الكثير بخطه الصحيح ، وهو الذي تولى كتابة فهرست المدرسة البشيرية على طريقة حسنة وذلك في سنة أربع عشرة وسبع مئة »^(٤) .

لقد كانت المدرسة البشيرية ثاني مدرسة أنشئت في العراق على صفة

(١) كتاب الحوادث : ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٢) المسجد المسبوك : ٦٠٩ .

(٣) المسجد المسبوك : ٦٠٩ - ٦١٠ .

(٤) تلخيص مجمع الآداب ، الترجمات ١٨٩٩ و ١٩٠٠ .

المُدرسة المستنصرية بتدريس الفقه على المذاهب الأربعة إذ كان إنشاء المُستنصرية فاتحة عهد جديد في تنظيم المدارس كما أسلفنا مما جعل الكثيرين من مؤسسي المدارس ينشؤون مدارسهم على صفتها ، فقد أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب بالقاهرة المدرسة الصالحة سنة ٦٤١ هـ على صفة المستنصرية^(١) وبذلك تكون البشيرية ثالث مدرسة من هذا النوع في العالم الإسلامي ، وقد استمر التدريس بها قائماً إلى عصور متأخرة توالى على التدريس فيها علماء فضلاء فأصبحت من المدارس البغدادية البارزة .

وكان أول مدرس للغة الحنبلي فيها هو شرف الدين عبد الله ابن محيي الدين يوسف ابن الواعظ المشهور جمال الدين ابن الجوزي ، وكان والده أستاذ دار الخلافة العباسية^(٢) (يقابل عندنا : رئيس الديوان الملكي أو رئاسة الجمهورية) وهو ممن أعدمهم الطاغية هولاكو في واقعة بغداد سنة ٦٥٦ هـ مع والده محيي الدين^(٣) . وكان أول المدرسين الحنابلة بها بعد الغزو المعولي هو الشيخ نور الدين أبو طالب عبد الرحمن بن عُمر البُصري العبدياني المتوفى سنة ٦٨٤ هـ^(٤) . ومن درس لهذه الطائفة فيها : تقي الدين أبو الميامس مظفر بن أبي بكر بن مظفر الجوسقي ثم البغدادي المعروف بالحاج المتوفى سنة ٦٨٣ هـ^(٥) ، والقاضي جمال الدين أحمد بن حامد المعروف بابن عُصَيَّة

(١) خطط المقرئ : ٢٠٩ / ٤ .

(٢) كتاب الحوادث : ٣٢٤ .

(٣) المسجد المسبوك : ٦٣٦ .

(٤) ابن رجب : الذيل ٢ / ٣١٥ .

(٥) المصدر نفسه : ٢ / ٣١١ .

المتوفى في حدود سنة ٧٢٠ هـ^(١) ، ومحمد بن محمود الجيلي ثم البغدادي المتوفى سنة ٧٢٣ هـ^(٢) وجمال الدين يوسف بن عبد المحمود بن عبد السلام ابن البتي البغدادي المقرئ الفقيه الأديب النحوي المتفتن المتوفى سنة ٧٢٦ هـ^(٣) ، والعالم الأديب الفقيه صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي المتوفى سنة ٧٣٩ هـ صاحب كتاب « مراصد الاطلاع » وغيره من المؤلفات^(٤) ، وشرف الدين عبد الرحيم بن عبد الله بن محمد الزريراني البغدادي المتوفى سنة ٧٤٦ هـ^(٥) ، والقاضي جمال الدين عبد الصمد بن خليل الخضري المتوفى سنة ٧٦٥ هـ^(٦) . ثم تولى التدريس بها بعده شمس الدين محمد ابن الشيخ أحمد السقاء المتوفى سنة ٧٦٥ هـ أيضًا^(٧) . وعرفنا من معيدي الحنابلة : الفقيه نصير الدين أحمد بن عبد السلام البغدادي المتوفى سنة ٧٣٥ هـ^(٨) .

أما الأحناف فكان أول مدرس ولي تدريسهم هو نور الدين محمد بن القرني الخوارزمي^(٩) ، ثم فخر الدين أبو بكر عبد الله بن عبد الجليل بن

(١) ابن رجب : الذيل ٢ / ٣٧٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٢ / ٣٧٦ .

(٣) المصدر نفسه : ٢ / ٣٧٩ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٠ / ٤٣٠ .

(٥) المصدر نفسه : ٢ / ٤٣٦ .

(٦) المصدر نفسه : ٢ / ٤١٣ .

(٧) المصدر نفسه : ٢ / ٤٤٦ .

(٨) مشغب المختار : ٣١ .

(٩) كتاب الحوادث ٣٢٤ .

عبد الرحمن الرازي ثم البغدادي المتوفى سنة ٦٦٧ هـ^(١) ، ثم نور الدين عليّ ابن الأطلبي الحنفي الذي وليها بعد فخر الدين عبد الله بن عبد الجليل الطهراني الرازي المتوفى سنة ٦٦٧ هـ^(٢) .

وكان أول من تولّى تدريس الشافعية بها أفضى القضاة سراج الدين عُمَر بن بركة النهرقلي الشافعي^(٣) . ومنهم قاضي القضاة - فيما بعد - محمد بن أبي فراس الهنّاسي المتوفى سنة ٦٧٠ هـ^(٤) . ثم وليها بعده تاج الدين عبد الرحيم بن يونس الموصلّي سنة ٦٧١ هـ لكنه توفي في آخر العام^(٥) . ومنهم صدر الدين محمد بن محمد بن محمد بن عمر الهزوي رُتّب مدرّساً فيها سنة ٦٧٧ هـ وبقي فيها إلى سنة ٦٨٤ هـ حينما عرل عنها وتولاها جمال الدين ابن العاقولي^(٦) ، ومجد الدين أبو طاهر عليّ بن محمد بن أحمد بن جعفر الواسطي ثم البغدادي المتوفى سنة ٦٨٣ هـ^(٧) ، وجمال الدين عبد الله بن محمد بن عليّ الواسطي العروف بآين العاقولي المتوفى سنة ٧٢٨ هـ^(٨) ،

(١) ابن القوطي . تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٢١٤٠

(٢) الحوادث ٣٩٩ .

(٣) المصدر السابق : ٣٢٤ .

(٤) كتاب الحوادث : ٤٠٦ ، وتاريخ الإسلام : للذهبي ١٥ / ١٨٨ .

(٥) كتاب الحوادث ٤٠٩ ، واليونيني : ذيل مرآة الرمان ٣ / ١٤ - ١٥ ، وتاريخ الإسلام ٢٧٧ / ١٥ .

(٦) كتاب الحوادث ٤٨٣ ، وذكر في موضع آخر أنه توفي سنة ٦٧٧ هـ (ص ٤٤٢) وفي هذا نظر

(٧) تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ٣٨٦ من الميم .

(٨) الحوادث ٤٨٣ .

وفخر الدين أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد التفتازاني ثم البغدادي عصري ابن الفوطي^(١) .

وأما المالكية الذين لم يكن مذهبهم متشعرا في العراق يومذاك ولا عرف منهم علماء كبار فقد عُيِّن لتدريسهم علم الدين أحمد بن عُمر الشرماساحي وهو أحو سراج الدين عبد الله الشرماساحي المغربي الإسكندراني الذي استقدمه الخليفة المستنصر مع طلبته للتدريس بها . وقد قدم علم الدين في خدمة أحيه سراج الدين وتطورت معارفه فرتب مدرسا في البُيُثِيرية عند افتتاحها ، ثم تولى تدريس المستنصرية بعد وفاة أحيه سنة ٦٦٨ هـ وتوفي سنة ٦٧٣ هـ^(٢) .

• • •

(١) تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٢٣٦٣ .

(٢) المصنوع نفسه ٤٠ / الترجمة ٨١٥ ، وكتاب الحوادث ٣٢٤ .

المبحث الثاني

مدارس البصرة

احتلت البصرة والكوفة منزلة متميزة في تاريخ الحركة الفكرية العربية في القرنين الأول والثاني الهجريين ، فكانتا من أعظم مراكز هذه الحركة في العالم الإسلامي ، يظهر ذلك واضحاً مما خصصه لهما ابن سغد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ في كتابه « الطبقات الكبير » . غير أن اتساع بغداد العمراني ورخاءها الاقتصادي وهيمنتها السياسية المتأتية من كونها عاصمة الدولة العباسية قد أدى إلى أن أصبحت منطقة جاذب للعلماء ، فازدهرت الحركة الفكرية فيها ازدهاراً عظيماً أدى إلى ضَعْف منزلة المصريين العربيين ، فلم يعودوا موثلاً للعلم والمعرفة كسابق عهديهما .

وعلى الرغم مما اشتهرت به الكوفة من عناية بالشعر وعلوم القرآن والفقه في صدر الإسلام إلا أننا لم نعد نسمع عن ظهور علماء بارزين فيها منذ القرن الرابع الهجري . أما البصرة التي اشتهرت باللغة والنحو فإن التذمير الذي أصابها إثر حركة الزنج التي استمرت خمسة عشر عاماً (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ) قد أدى إلى هجرة الكثير من علمائها واستقرارهم في بغداد وواسط .

على أن بُغْد البصرة عن بغداد وكونها من أكبر المدن في جنوب العراق جعل الحركة الفكرية فيها أكثر نمواً من الكوفة في القرون المتأخرة ، فقد أنشأ أبو علي بن سِوَار في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) خزانة كتب كبيرة كانت عامرة بنعائس الكتب^(١) ، وخصَّها الوزير نظام الملك في منتصف

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم : ٤١٣ .

القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بإحدى نظامياته ، ولجُددت في مطلع القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) بعض مدارسها ، كما أنشئت فيها مدارس جديدة مما يدل على ازدهار الحركة الفكرية فيها . ومع ذلك فإن البصرة لم تعد إلى سابق عهدها ولم تشر كتب التراجم إلى عدد كبير من علمائها ، وإليك ما وقفنا عليه من مدارسها :

١ - المدرسة النظامية : بعد ٤٥٩ هـ - ١٠٦٧ م

أنشأها الوزير نظام الملك في منتصف القرن الخامس الهجري ، فذكرها الشيبكي من بين النظاميات التي أنشأها نظام الملك في العالم الإسلامي^(١) . والظاهر أنها كانت قرية من الميزنة ومن المحلة المجاورة لقبر الصحابي طلحة ابن عبيد الله التيمي ، فقد ذكر ابن الأثير في حادثة نهب البصرة عندما حاصرها سيف الدولة سنة ٤٩٩ هـ أنه « لم يسلم منهم إلا المحلة المجاورة لقبر طلحة والميزنة ، فإن العباسيين دخلوا المدرسة النظامية وامتنعوا بها وحموا الميزنة »^(٢) .

ولم نقف إلا على مُتَرَس واحد من مدرسيها هو أبو الفضل محمد بن قتان بن حامد بن الطيب الأباري^(٣) (٤٤٥ - ٥٠٣ هـ) .

٢ - مدرسة أبي العباس الجرجاني : قبل سنة ٤٨٢ هـ - ١٠٨٩ م

ذكرها ابن الصلاح في « طبقات الشافعية » ، وترجم لمدرسيها أبي العباس

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ٤ / ٤١٣ .

(٢) الكامل في التاريخ ٨ / ٢٣٢ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٦ / ١٧٥ .

أحمد بن محمد بن أحمد الحُزْجاني الفقيه الأديب قاضي البصرة وشيخ الشافعية بها المتوفى سنة ٤٨٢ هـ^(١) .

٣ - مدرسة أبي الفرج البصري : قبل سنة ٤٩٩ هـ - ١١٠٥ م

أنشأها قاضي البصرة أبو الفرج محمد بن عُبيد الله البصري الشافعي (٤١٨ - ٤٩٩ هـ) ، وذكرها جمال الدين الإسنوي في طبقاته وذكر أنها كانت في غاية الحسن^(٢) .

٤ - مدرسة أبي المظفر باتكين : قبل سنة ٦٣٠ هـ - ١٢٣٣ م

وهي مدرسة للحنابلة أنشأها الأمير أبو المظفر باتكين بن عبد الله الرُّومي الناصري المتوفى سنة ٦٤٠ هـ وذلك عند ولايته البصرة من سنة ٦٠٧ هـ حتى سنة ٦٣٠ هـ ولم تكن للحنابلة مدرسة بالبصرة قبل هذه المدرسة^(٣) . وكان باتكين هذا محباً للعلم والعلماء غني بتجديد مدارس البصرة وأوقف فيها الكتب وانتشر العلم في زمانه ، وكان العلماء يقصدونه من جميع الآفاق فيرفدهم^(٤) .

٥ - مدرسة أبي المظفر باتكين للطب : قبل ٦٣٠ هـ - ١٢٣٣

ذكر صاحب الكتاب المسمى بالحوادث^(٥) أن أبا المظفر باتكين أنشأ

(١) ابن الصلاح : طبقات الشافعية ، بانتخاب النووي ، الورقة ٥٨

(٢) طبقات الشافعية : ١ / ٢٤٢ .

(٣) الحوادث : ٢٠٩ .

(٤) الذهبي : تاريخ الإسلام . ١٤ / ٣١٥ ، وابن خلكان : وفیات الأعيان ٣ / ٥٠٤ - ٥٠٥ .

(٥) الحوادث : ٢٠٩ .

بالبصرة « مدرسة يُقرأ فيها علم الطب وعمر مارستاناً كان قد خرب وتَعَطَّل » .
وهذه المدرسة هي المدرسة الطبية الوحيدة التي وقفنا عليها في العراق في
العصر العباسي ، ولا نعرف من أخبارها غير إنشائها .

٦ - مدرسة ابن ذؤيرة : قبل ٦٥٢ هـ - ١٢٥٤ م

أنشأها شيخ الحنابلة بالبصرة ورئيسهم ومدرسهم أبو علي الحسن بن أحمد
ابن أبي الحسن بن ذؤيرة البصري المقرئ الزاهد المتوفى سنة ٦٥٢ .
قال ابن رجب : « اشتغل عليه أمم ، وختم عليه القرآن أريد من ألف إنسان ،
وكان صالحاً زاهداً ورعاً ، وحدث « بجامع الترمذي » بإجازته من الحافظ أبي
محمد بن الأخضر ، فسمعه منه الشيخ نور الدين عبد الرحمن بن عمر البصري
(العبدلياني) مدرس المُشْتَنَصِرِيَّة ، وهو أحد تلامذته وعليه ختم القرآن وحفظ
« البخاري » عنده بمدرسته بالبصرة . وتوفي الشيخ أبو علي سنة اثنتين وخمسين
وست مئة بالبصرة ، وولي بعده التدريس بمدرسته تلميذه الشيخ نور الدين
المذكور وخُليع عليه ببغداد في جمادى الآخرة من السنة المذكورة ^(١) ،
وذكر أنه حينما ولي التدريس بهذه المدرسة أُلْبِسَ الطرحة السوداء ، ونُقِلَ عن
ابن السَّاعِي أنه لم يُلْبَسِ الطرحة أَعْمَى بعد أبي طالب ابن الحُبَلِي سوى الشيخ
نور الدين العبدلياني هذا .

(١) ابن رجب الدليل ٢ / ٢٥٥ ، وتُنظَر نَرَحَةُ العبدلياني عنده ٢ / ٣١٤ .

المبحث الثالث

مدارس الكوفة

على الرغم من أن الكوفة كانت في صدر الإسلام من أعظم مراكز دراسة الفقه الإسلامي ، إلا أننا لم نَعثر إلا على مدرسة واحدة لتدريس الفقه الحنفي أُسِّست في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) . فقد ذكر محيي الدين القُرشي في ترجمة عبد الجبار بن علي الحنفي أنه ورد بغداد فتفقه بها على قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني ، ويُنَى أمير الحاج مدرسة عند قبر يونس عليه السلام ورتبه للتدريس بها وأجرى عليه وعلى أصحابه جراءة^(١) ، وقال في ترجمة علي بن عبيد الله الحطّيب المتوفى سنة ٤٦٧ هـ : « وكان صاحبه عبد الجبار بن علي الحواري مدرس مشهود يونس بن متى بالكوفة قد قرأ عليه »^(٢) .

وقد أشارت المصادر إلى وجود دراسات في الكوفة والتَّحْف لكنها كانت في مدارس متَّجدة وليست في مدارس مستقلة .



(١) الجواهر المضيئة ١ / ٢٩٥ .

(٢) المصدر نفسه : ١ / ٣٦٤ .

المبحث الرابع

مدارس واسط^(١)

في الوقت الذي ضعفت فيه الحركة الفكرية في كل من البصرة والكوفة بعد القرن الثالث الهجري فإننا وجدناها تنشط في أماكن أخرى منها مدينة واسط التي أنشأها الحجاج بن يوسف الثقفي في الربع الأخير من القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) .

ويظهر أن عددًا من أهل البصرة قد هاجر إليها إثر حركة الزنج (٢٥٥ -

٢٧٠ هـ) .

ويشير تاريخ واسط الذي ألفه أسلم بن سهل الزراري المعروف بمُخْشَل المتوفى سنة ٢٨٢ هـ إلى نشاط علمي فيها ، ثم وجدنا هذا النشاط يزداد نموًا في القرون التالية ، فشهدت نشاطًا علميًا واسعًا لاسيما في علوم القرآن حيث كانت تُعد من أبرز المراكز الفكرية في العراق في هذه العلوم يقصدها كثير من طلبة العلم لأجل ذلك . وقد ذكرت كُتُب التراجم أعدادًا من العلماء الواسطيين في العصور العباسية المتأخرة ، كما ألف المؤرخ جمال الدين ابن الديلمي الواسطي (٥٥٨ - ٦٣٧ هـ) تاريخًا كبيرًا عن علمائها ، مما يدل على ازدهار الحركة الفكرية فيها ، كما نقل نصير الدين الطوسي إثر الغزو المغولي المُدْمَر الكثير من كُتُبها إلى مراغة .

واليك ما وقفنا عليه من تلك المدارس :

(١) ينظر كتاب أستاذنا العلامة الدكتور ناجي معروف : مدارس واسط ، وكتاب المدارس الشراعية ، له أيضًا .

وكتاب الدكتور عبد القادر المعاضبي : واسط في العصر العباسي .

١ - مدرسة أبي علي الفارقي قبل ٥٢٨ هـ - ١١٣٣ م

وهي أول مدرسة وقمنا عليها بواسطة أنشأها أبو علي الحسن بن إبراهيم الفارقي (٤٣٣ - ٥٢٨ هـ) ، فقد ذكر الإسكافي أنه دفن في مدرسته بواسطة^(١) ، ولعله نقل ذلك من تاريخ ابن السمعاني ، وقد ذكرنا فيما سبق عند كلامنا على التعليم في المساجد أن أبا علي الفارقي كرس بينداد على أبي إسحاق الشيرازي ولازمه إلى حين وفاته سنة ٤٧٦ هـ ، ثم ولي القضاء بواسطة سنة ٤٨٥ هـ ، وبقي قاضياً إلى سنة ٥١٣ هـ ، قال ابن النجار : ولي قضاء واسط سنة خمس وثمانين وعزل سنة ثلاث عشر وخمس مئة ، ولازم الإفاضة بواسطة^(٢) ، فالظاهر أنه أنشأ هذه المدرسة بعد سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م وليس بين أيدينا غير هذه الإشارة لها .

٢ - مدرسة ابن القارئ قبل سنة ٥٣٩ - ١١٤٤ م

أنشأها الشيخ أبو الفضل علي القرشي الواسطي الشافعي المعروف بابن القارئ المتوفى سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م^(٣) .

٣ - مدرسة خطيبوس : قبل سنة ٥٦١ هـ - ١١٦٦ م

ذكرها جمال الدين ابن الديلمي في ترجمة أبي طالب جعفر بن طفر بن يحيى بن محمد بن هبة من تاريخه فقال : « من بيت معروف بالفضل والرياسة والتقدم ... تولى الإشراف بالديوان المغمور بواسطة في سنة ست

(١) طبقات الشافعية : ٢ / ٢٥٧ .

(٢) الذمعي : تاريخ الإسلام : ١١ / ٤٧٣ .

(٣) مختصر أخبار الخلفاء : ١١٣ .

وست مئة وصار إليها ، وفي سنة مئتين وست مئة ولحق النظر بالديوان المذكور وأقام هناك إلى أن توفي يوم الخميس سادس عشر جمادى الأولى سنة عشرين وست مئة ، فدفن بها بمدرسة خططبرس أعلى البلد^(١) . وهذه المدرسة منسوبة إلى خططبرس متولي واسط للمدة من سنة ٥٥٠ هـ إلى سنة ٥٦١ هـ حيث قتل في هذا العام^(٢) .

٤ - مدرسة الغزنوي : قبل سنة ٥٦٣ هـ - ١١٦٨ م

من مدارس الحنفية بواسط وكانت بمحلة الزرقين ، ومنشؤها هو أبو الفضل محمود بن أحمد بن عبد الرحمن الغزنوي الكوفي ، قال محيي الدين القرشي : « ذكره الحافظ ابن النجار وقال : صحب أبا الفتح أحمد ابن محمد الغزالي ، وأخذ عنه علّم الوعظ ، وقدم بغداد في سنة سبع وخمسين وخمس مئة وعقد مجلس الوعظ بجامع القصر ، ثم انتقل إلى واسط فسكنها إلى حين وفاته ، وقرأت في كتاب القاضي أبي الحسين عليّ الواسطي بخطه ، قال : توفي محمود الغزري يوم الجمعة ، ودفن يوم السبت ثامن شعبان سنة ثلاث وستين وخمس مئة في مدرسته بمحلة الزرقين ، وكان يومًا مشهودًا »^(٣) .

٥ - مدرسة ابن ورام : قبل سنة ٥٧٣ هـ - ١١٧٨ م

ورد ذكر هذه المدرسة في طبقة سماع لتاريخ واسط لتخشل ، فقد جاء فيها :

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام ٦٥ / ٣ .

(٢) ينظر تاريخ ابن الأثير : ١١ / ٢١٢ ، ٢٢٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٣) الجواهر المضية : ٢ / ١٥٤ - ١٥٥ .

« سمع جميع هذا الكتاب ، وهو تاريخ واسط لبخشل ... وذلك بواسط في مدرسة شرف الدولة محمد بن وِزَام - نور الله ضريحه - في مجالس آخرها الاثنين رابع عشرين ذي القعدة من سنة ثلاث وسبعين وخمسة مئة »^(١) .

ولعل مؤسس هذه المدرسة هو شرف الدولة محمد بن وِزَام الكردي الجاواني الشافعي ، أخو الأمير سيف الدولة بَكر بن وِزَام ، المتوفى سنة ٤٧٢هـ^(٢) ، فإن صَح ذلك كانت من أقدم المدارس المنشأة بواسط .

وذكر السبكي من المدرسين بها : الحسن بن أحمد بن عبد الله أبا علي الواسطي ، فقال : « دَرَس بواسط بمدرسة ابن وِزَام ، وبها مات في حادي عشر المحرم سنة ست وسبعين وخمسة مئة »^(٣) .

٦ - مدرسة ابن الكيال : قبل سنة ٥٧٥ هـ - ١١٧٩ م

من مدارس الحنفية ، أنشأها القاضي أبو الفتح بصر الله بن علي بن منصور ابن علي بن الحسين الحنفي الواسطي المعروف بابن الكيال المتوفى سنة ٥٨٦ هـ قال محيي الدين القرشي : « قَدِمَ بغداد في سنة ثلاث وعشرين وخمسة مئة وهو شاب يطلب العلم ، وعَلَّقَ مسائل الخلاف عن الحسن بن سلامة القنيجي ، وعن القاضي إبراهيم الهيتي حتى بَرَعَ ، وتكَلَّمَ في مجالس المناظرة ، وقرأ الأدب على أبي منصور الجواليقي ، ثم عادَ إلى واسط ودَرَس في مدرسة

(١) ينظر المطبوع من تاريخ واسط : ٢٩٥ .

(٢) تنظر مقالة شيخنا علامة العراق الدكتور مصطفى جواد في مجلة المجمع العلمي العراقي ١ / ٩٨ - ٩٩ لسنة ١٩٥٦ م .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى : ٧ / ٦٠ .

تُعرف به^(١) . وذكر ابن الدُّيُثي - كما ورد في « طبقات السَّحابة » لابن قاضي شُهبة^(٢) أنه تولى قضاء البصرة في سنة خمس وسبعين وخمسة مئة وصار إليها وأقام بها مديدة يحكم بها ، وعُزل فعادَ إلى واسط ، وتولى القضاء بها في جُمادى الآخرة سنة أربع وثمانين وخمسة مئة فكان على ذلك إلى أن تُوفي^(٣) . وقال الذهبي في « تاريخ الإسلام » : « وتفقه ، وقرأ الخلاف ، وناظر ، ودَّرس ، وتولَّى قضاء البصرة سنة خمس وسبعين ، ثم قَدِمَ بغداد فأقرأ بها وكان عزيز الفضل واسع العلم ، ولي قضاء واسط وعاد إلى وطنه ... »^(٤) فهذه النصوص تشير إلى إنشاء هذه المدرسة قبل سنة ٥٧٥ هـ وهي السنة التي تولَّى بها قضاء واسط ، وقد تولَّى التدريس فيها بعده ولده القاضي الفقيه أبو المحاسن عبد اللطيف بن نصر الله (٥٤٠ - ٦٠٥ هـ) ذكر ذلك ابن الدُّيُثي^(٥) ، والمنذري^(٦) ، وابن الساعي^(٧) ، والذهبي^(٨) ، والتَّميمي^(٩) وغيرهم ، وهو المُدرس بمدرسة مشهد أبي حنيفة أيضا .

(١) الجواهر المضبوطة : ٢ / ١٩٨ .

(٢) الورقة : ٢٥٨ من نسخة الظاهرية .

(٣) وينظر المختصر المحتاج الملحق بالذيل ٥ / ٧٢ - ٧٣ .

(٤) تاريخ الإسلام : ١٢ / ٨٢٧ .

(٥) ديل تاريخ مدينة السلام ٤ / ١٩١ .

(٦) التكملة : ٢ / الترجمة ١٠٦٨ .

(٧) الجامع المختصر : ٩ / ٢٨١ .

(٨) تاريخ الإسلام : ١٣ / ١١٤ .

(٩) الطبقات السنية ٢ / الورقة ٥٥٣ .

٧ - المدرسة الشرايية : ٦٣٢ هـ - ١٢٣٥ م

منسوبة إلى شرف الدين إقبال بن عبد الله الشرايي المتوفى سنة ٦٥٣ هـ مؤسس شرايية بغداد المقدم ذكرها ، ويقال لها الشرفية ، وكان افتتاحها سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م ، قال صاحب الكتاب المسمى بالحوادث في حوادث السنة المذكورة : « في هذه السنة في سابع عشرين شعبان فتحت المدرسة التي أمر بإنشائها شرف الدين أبو الفضائل الشرايي لشفافية بالجانب الشرقي من واسط على دجلة مجاورة لجامع كان دائرا ، فأمر بتجديد عمارته ، ورتب بها مدرسا القدل أحمد بن نجا الواسطي ، ورُتّب بها مُعيدان ، واثنان وعشرون فقيها ، وتُخلّع على الجميع وعلى من تولى عمارتها من الثواب والصّناع والحاشية الذين رُتبوا لخدمتها ، وغُيِّلَ فيها دعوة حسنة حضرها صاحب الديوان ابن الدبهي والتاظر بواسط والقاضي والنقيان والقراء والشعراء ، وكان المتولي لعمارتها والذي جعل النظر إليه وإلى عقبه في وقفها أبو حفص عمر بن أبي بكر بن إسحاق الدورقي ^(١) .

وعمر بن أبي بكر بن إسحاق الدورقي هذا كان ذا مالٍ كثير فأنض وجاه عريض ، بُني بشرقي واسط جامعا كان قد دثر يُعرف بجامع ابن رقاقا ، وعُمِّرَ إلى جانبه رباطا وأُسكنه جماعة من الفقراء ورُتّب فيه من يُلقن القرآن المجيد ويُسمع الحديث ، وأجرى عليهم الجرايات اليومية والشهرية ، وتوفي ببغداد سنة ٦٤٨ هـ ^(٢) .

(١) كتاب الحوادث : ١٠٥ .

(٢) ابن الصوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٢٢٦٤ ، وكتاب الحوادث ٢٩٨ ، و تاريخ الإسلام : ١٤ / ٦٠٦ .

وممن دُرِّس في هذه المدرسة بعد أحمد بن نجا الواسطي : عماد الدين ابن ذي الفقار محمد العلوي الحسني البزنطي الشافعي (٥٩٦ - ٦٨٠ هـ) رتب مدرسا بها سنة ٦٤٨ هـ^(١) ، وعماد الدين أبو يحيى زكريا بن محمد بن محمود الكوفي القزويني (٦٠٠ - ٦٨٢ هـ) صاحب كتاب « آثار البلاد وأخبار العباد » المطبوع المشهور^(٢) .

(١) كتاب الحوادث : ٢٩٧ .

(٢) كتاب الحوادث : ٤٦٩ .

المبحث الخامس

مدارس الموصل

برزت مدينة الموصل منذ القرن الثالث الهجري كمركز متميز من مراكز الحركة الفكرية بحيث ألف أبو زكريا الأزدي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ (تاريخنا لعلمائها .

وفي مطلع القرن الرابع الهجري أنشأ أبو القاسم جعفر بن محمد بن حنّدان التّوّصلي المتوفى سنة ٣٢٣ هـ دار العلم في الموصل جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وفقاً على طلبة العلم لا يُسع أحد من دخولها ، إذا جاءها غريب يطلب العلم وكان مُفسِّراً أعطاه وَزَقاً ومالا ، وكانت تفتح في كل يوم^(١) ، وهو أمر يدل على وجود حركة فكرية نشطة ازدهرت في القرن الخامس الهجري مما دفع نظام الملك إلى إنشاء إحدى نظامياته فيها ، ثم كثرت المدارس ونفقت سوق العلم حيسما اتخذها الأتابكة عاصمة لهم (٥٢٠ - ٦٦٠ هـ) ، فأصبحت التّوّصل في أواخر القصر القُبّاسي من أبرز مراكز الحركة الفكرية في العراق بعد بغداد ، حيث ظهر فيها عددٌ ضخم من العلماء البارزين في شتى أنواع المعرفة ، فقصدتها طلبة العلم من أنحاء العالم الإسلامي واستوطن بعضهم فيها ولاسيما من أهل الشام حيث كانت هذه المدينة تقع في طريقهم إلى بغداد فكان لها أثر محمود في نمو الحركة الفكرية في بلاد الشام فيما بعد .

وحيسما رار الرحالة ابن جبير هذه المدينة سنة ٥٨٠ هـ قال : « وفي المدينة

(١) ياقوت : معجم الأدباء : ٢ / ٤٢٠ .

مدارس للعلم نحو الست أو أكثر على دجلة فتلوح كأنها القصور المشرقة»^(١).
وفيما يأتي ما وقفنا عليه من مدارسها حتى نهاية العصر العباسي^(٢).

١ - المدرسة النظامية : بعد ٤٥٩ هـ - ١٠٦٧ م

أمر بيئاتها الوزير نظام الملك من أجل القاضي أبي بكر محمد بن الحسن ابن أبي خالدة الخالدي المعروف بالسديد ، قال ابن الأثير في «الخالدي» من اللباب : «وبنى له نظام الملك مدرسة بالموصل وهي الآن بالقرب من الجامع الثوري وتعرف بهم» . وممّن دُرّس فيها محيي الدين محمد ابن القاضي كمال الدين الشهرزوري المتوفى سنة ٥٨٦ هـ^(٣) ، وأبو العباس أحمد بن نصر بن الحسين الأنباري المعروف بالشمس الدُّنبلي المتوفى سنة ٥٩٨ هـ^(٤) .

ويرى الأستاذ سعيد الديوه جي أنَّ المدرسة في الوقت الحاضر هي مرقد لابن علي ، وفيها قبر علي يمين النازل إلى المَرقد وعليه كتابة تشير إلى أن بدر الدين ثُلُو عمره بعد أن اتخذ هذه المدرسة مشهدًا لابن علي .

٢ - المدرسة الأتابكية العتيقة : قبل سنة ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م

أنشأها سيف الدين غازي ابن عماد الدين رنكي المتوفى سنة ٥٤٤ هـ قال أبو شامة : «وبنى بالموصل المدرسة الأتابكية العتيقة وهي من أحسن المدارس

(١) رحلة ابن جبير : ٢١٥ .

(٢) ينظر بحث الأستاذ سعيد الديوه جي : مدارس الموصل في العهد الأتابكي (سومر م ١٣ لسنة ١٩٥٧ م وكتاب الدكتور ناجي معروف علماء النظاميات (بعداد ١٩٧٣) .

(٣) السكي : طبقات الشافعية : ٦ / ١٨٦ .

(٤) المصدر نفسه : ٦ / ٦٧ .

وأوسعها ، وجعلها وقفاً على الفقهاء الشافعية والحنفية بصفين ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ^(١) ثم دفن فيها .

وممن درّس فيها : أبو البركات عبد الله بن الحَصِر بن الحسين المَوْصلي المعروف بابن الشيرجي المتوفى سنة ٥٧٤ هـ ^(٢) ، والإمام شرف الدين أبو سَعْد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون التميمي الحلي ثم المَوْصلي الدمشقي المتوفى سنة ٥٨٥ هـ فقد ذكر ابن الدُّبَيْثي أنه درّس الفقه بالمَوْصل سنة ٥٢٣ هـ ^(٣) ، وقال عماد الدين الأصفهاني القرشي في « الخريدة » : « لقيته بالمَوْصل سنة اثنتين وأربعين - يعني وخمس مئة - وهو مدرس بالأنابكية » ^(٤) .

والشيخ ظهير الدين عبد السلام بن محمود الفارسي ، قال ابن باطيش : « قدم الموصل فصادف من صاحبها (نور الدين أرسلان) قبولاً وقَوْضاً إليه تدريس الفريقين الشافعية والحنفية ، وبقي فيها مدة يدرس وافر الحرمة ثم توجه إلى حلب على عريضة العود إلى المَوْصل ثم مات بها سنة ست وتسعين وخمس مئة » ^(٥) ، وقال زكي الدين المنذري في وفيات سنة ٥٩٦ هـ من « التكملة » : « وفي السابع عشر من شعبان توفي الفقيه الإمام أبو المعالي عبد السلام بن محمود بن أحمد الفارسي المنعوت بالظَّهير بمدينة حلب ... وكان قديم مصرَ وسمع بالإسكندرية وأجاز لنا بدمشق في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وخمس مئة جميع ما

(١) الروضتين : ١ / ٦٥ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ١ / ٦٥ .

(٣) ذيل تاريخ مدينة السلام : ٣ / ٤٩٤ .

(٤) خريدة القصر (القسم الشامي) ٢ / ٣٥٢ .

(٥) السبكي : طبقات الشافعية : ٧ / ١٧٠ .

يشت عندنا من مسموعاته ومجازاته ومناولاته في سائر العلوم بعد التحري في استيعاب الشرائط المعتمدة ، وكان مشاراً إليه في الخلاف والأصول والكلام ، له في ذلك تصانيف لم يظهر منها إلا قليلاً ، وولي تدريس الفريقين بالمؤصل في المدرسة الأتابكية العتيقة مدة ^(١) .

٣ - المدرسة المهاجرة : قبل سنة ٥٨٥ هـ - ١١٨٩ م

أنشأها غُلوان بن مُهاجر بن علي بن مهاجر المؤصلي ، والد محمد بن مهاجر المتوفى سنة ٦١٥ هـ . ولم أقف على ترجمة غُلوان ، ولكن يظهر أنها أنشئت في منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وكانت من المدارس المعلقة لأنها كانت فوق دار الحديث المهاجرة التي كانت مشيدة قبل سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ، فقد ذكر ابن أبي أصيبعة أن موفق الدين عبد اللطيف البغدادي قال في ذكر حاله « ولما كان في سنة خمس وثمانين وخمس مئة حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبي ويملا عيني ويحل ما يشكل عليّ ودخلت المؤصل فلم أجد فيها بُغيتي لكن و.نت الكمال ابن يونس جيداً في الرياضيات والفقه متطرفاً من باقي أجزاء الحكمة قد استغرق عقله ووقته حب الكيمياء وعملها حتى صار يستخف بكل ما عداها ، واجتمع إليّ جماعة كثيرة وعُرضت عليّ مناصب فاخترتُ منها مدرسة ابن مُهاجر المعلقة ودار الحديث التي تحتها وأقمْتُ بالمؤصل سنة في اشتغال دائم متواصل ليلاً ونهاراً ^(٢) ، وقال جمال الدين ابن الدُّيشي في ترجمة محمد بن غُلوان بن

(١) النكسة : ١ / الترجمة ٥٤٠ .

(٢) عيون الأنباء : ٢ / ٢٠٤ .

مهاجر من تاريخه : « قَدِمَ بغداد في صباه وأقام بها للتحفة مُدِيْدَةً بالمدرسة النظامية ، والمُنْدَرَسُ بها يومئذ يوسف بن عبد الله الدَّمَشَقِي ، وسمع بها الحديث من جماعةٍ منهم ، وعادَ إلى بلده ولازم أبا البركات عبد الله بن الخَضِرِ ابن الشيرجي الفقيه ودرس عليه حتى حَصَلَ معرفة المذهب والخلاف ، ودرَسَ بمدرسة أنشأها لنفسه بسكة أبي نَجِيح ثم دَرَسَ بمدارس أخرى لغيره ، وقَدِمَ بغداد حاجًا ورأيتُه بها ثم لقيتُه بالموصل وكتبْتُ عنه بها وسألته عن مولده فقال في سنة اثنتين وأربعين وخمسة مئة بالموصل » (١) .

ونص ابن الدُّيُثِي هذا يشير إلى أنَّ أبا المظفر محمد بن عَلُوَان قد أنشأ لنفسه مدرسة بسكة أبي نَجِيح ، لكن المصادر المعاصرة الأخرى لا تشير إلا إلى تلك التي أنشأها والده علوان ، قال زكي الدين المنذري : « ودَرَسَ بالمدرسة التي أنشأها والده عَلُوَان ودَرَسَ أيضًا بمدارس أخرى » (٢) ، وقال مثل ذلك الذهبي (٣) والصفدي (٤) والسُّبُكِي في « الطبقات » (٥) فما أظن ابن الدُّيُثِي إلا واهمًا .

وقد تولى التدريس في هذه المدرسة بعد أبي المظفر محمد بن عَلُوَان ولداه عماد الدين أحمد ومحيي الدين عبد الكريم ، قال ابن القُوطِي : « عماد الدين أبو نصر أحمد بن محمد بن عَلُوَان بن مُهاجر المَوْصِلِي المدرَّس ، ذكره القاضي تاج الدين يحيى بن القاسم بن المفرج التُّكْرِيْتِي في تاريخه ، وقال : هو

(١) ذيل تاريخ مدينة السلام : ١ / ٥٤٠ .

(٢) التكملة : ٢ / الترجمة ١٥٧٤ .

(٣) تاريخ الإسلام : ١٣ / ٤٤٩ .

(٤) الوافي : ٤ / ٩٨ .

(٥) طبقات الشافعية : ٨ / ٨١ .

من بيت العلم والفقہ والتدريس وَبَنَى جده غُلُوَان بن مهاجر بالمُؤصل مدرسةً للمُفهاء في سكة بني (كذا ، والصواب : أبي) نَجِيج ووقف عليها ووقفاً متوفرة الحاصل . وأما عماد الدين فإنه قرأ القرآن الكريم والفقہ والحلاف ، وقَدِمَ بغداد وسكن النظامية وجالس العلماء ، ولما توفي والده في ذي الحجة سنة أربع عشرة وست مئة (كذا) ولي عماد الدين مكان والده وتُخْلِيع عليه ^(١) . وقال : « محيي الدين أبو محمد عبد الكريم بن محمد بن غُلُوَان بن مهاجر المُؤصلي المدرس ، ذكره تاج الدين ، وقال : دُرُس يعد أبيه ورأيت بالمُؤصل وكان ذا مال طائل وجاه وأفضال » ^(٢) .

٤ - المدرسة الزينية : قبل سنة ٥٦٣ هـ - ١١٦٨ م

منسوبة إلى منشئها زين الدين أبي الحسن علي بن بكتكين المتوفى سنة ٥٦٣ هـ ، وهو والد مظفر الدين كوكبري صاحب إزبل ، وتُعرف أيضًا بالكمالية نسبة إلى مدرستها العالم الكبير كمال الدين أبي الفتح موسى بن يونس ابن محمد بن مَنَعَةُ القُفيلي المتوفى سنة ٦٣٩ هـ تُسَمَّى إليه لطول إقامته بها . وكانت هذه المدرسة في الأصل مسجدًا بناه زين الدين علي بن بكتكين المذكور ولا تزال بقايا هذه المدرسة قائمة تُشرف على نهر دجلة تُعرف بمدرسة ابن يونس ، وفيها حُجرة كبيرة مشمة الشكل فوقها قبة تستند إلى مَقَرُونَصَات وهي مبنية بالآجر .

وممن درس في هذه المدرسة أيضًا عماد الدين أبو حامد محمد بن يونس

(١) تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٩٧٤ .

(٢) تلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ٧٩٧ من الميم .

ابن محمد بن مَنَعَة العُقَيْلي الشافعي أخو كمال الدين المقدم ذكره (٥٣٥ - ٦٠٨ هـ) ، قال ابن الفوطي : « ودُرُس بالموصل في خمس مدارس وهي الشورية والعزيرة والزينية والبقيشية والعلائية » (١) .

كما أعاد بها الفقيه الشافعي أبو علي الحسن بن عثمان . بن علي الجزري نزيل الموصل المتوفى سنة ٦٠٦ هـ (٢) .

٥ - المدرسة الكَمَالِيَّة القَضَوِيَّة : قبل سنة ٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م

من مدارس الشافعية أشأها كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرُورِي الشَّيْبَانِي (٤٩٢ - ٥٧٢ هـ) ، قال ابن خَلِّكَان : « وتولى القضاء بالمَوْصِل وبني بها مدرسةً للشافعية » (٣) .

ودرس بها بعده ولده جلال الدين عبد الرحمن المتوفى في حياة والده شاباً سنة ٥٦٦ هـ (٤) . كما دُرُس بها ولده الآخر قاضي القضاة - فيما بعد - محيي الدين محمد المتوفى سنة ٥٨٦ هـ وهو ممن درس بالمطامية كما تقدم (٥) . ومن المدرسين بها أيضاً أبو العباس أحمد بن نُصْر بن المُحْسِن الأَبَارِي المعروف بالدُّبْلِي المتوفى سنة ٥٩٨ هـ وهو من مدرسي النظامية أيضاً كما تقدم ، وبهاء الدين أبو المحاسن يوسُف بن رافع الأسدي المعروف بابن شداد

(١) تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ١٢٦٣ ، ومصادر ترجمته في تعليقنا على تكملة المنثوري ٢ / الترجمة ١١٩٨ .

(٢) ابن الساعي : الجامع المختصر ٩ / ٣٠٩ .

(٣) وفيات الأعيان : ٤ / ٢٤١ .

(٤) الإسنوي : طبقات الشافعية : ٢ / ١٠١ .

(٥) تاريخ الإسلام : ١٢ / ٨٢٣ .

المتوفى سنة ٦٣٢ هـ . ولد ابن شَدَّاد بالمُؤَصِّل سنة ٥٣٩ هـ وحفظ بها القرآن وما يحتاجه من إلمام جيد بالعلوم ، قال ابن خَلِّكان : « ثم احضر إلى بغداد بعد التأهيل التام ونزل بالمدرسة النظامية وترتب فيها مُعَيِّدًا بعد وصوله إليها بقليل وأقام مُعَيِّدًا نحو أربع سنين ، والمدرّس بها يوم ذاك أبو نصر أحمد بن عبد الله بن محمد الشَّاشي ، وكانت ولاية ابن الشَّاشي المذكور التدريس بالنظامية في شهر ربيع الآخر من سنة ست وستين وخمس مئة ثم أَصْعَدَ إلى الموصِل في سنة تسع وستين ، فترتب مدرّسًا في المدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين أبو الفصل محمد ابن الشُّهرزوري ولازمَ الاشتغال ، وانتفع به جماعة » (١) .

٦ - المدرسة المجاهدية بعد سنة ٥٧٦ هـ - ١١٨٠ م

منسوبة إلى مؤسسها مجاهد الدين أبي منصور قايمار بن عبد الله الرُّبَيعي ، وتُعرف بالمدرسة الزينية ، وبمدرسة قايمار أيضًا ، بناها بعد أن فرغ من بناء الجامع المُجاهدي في المُؤَصِّل الذي شرعَ بينائه سنة ٥٧٢ هـ ، وكان قد انتقل من إزبل إلى المُؤَصِّل سنة ٥٧١ هـ وتولَّى أمور قلعتهَا ، قال ابن السَّاعي : « وبَنَى جامعًا بظاهر المُؤَصِّل ، وبَنَى إلى جنبه مدرسةً للشافعية ، ورباطًا للصوفية ، ومارستانًا للمرضى ، إلى غير ذلك من الحانات للشايبة في الطرق والقناطر ، ووقفَ على الكل وقفًا حسنة متوفرة الحاصل » (٢) .

وقد انتهى بناء الجامع سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م فيكون عندئذ بناء المدرسة

(١) وفيات الأعيان : ٧ / ٨٦ - ٨٧ .

(٢) الجامع المختصر : ٨ / ٩ .

بعيد هذا التاريخ^(١) وتوفي مجاهد الدين في شهر ربيع الآخر سنة ٥٩٥ هـ^(٢).

٧ - المدرسة العزية : بين ٥٧٦ و ٥٨٩ هـ - ١١٨٠ و ١١٩٣ م

ابتناها عر الدين مسعود ابن قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكي المتوفى في شعبان سنة ٥٨٩ هـ بباب دار المملكة ، وهي من المدارس الثنائية بين الحنفية والشافعية ؛ قال ابن الاثير : « وهو الذي ابنتى المدرسة العزية بباب دار المملكة ، وهي مدرسة خمسة جعلها للمريقين الحنفية والشافعية ، وقرر للفقهاء ما ليس لمدرسة أخرى من الفواكه والخلوى والدعوات في المواسم والأعياد والتشريع للوقود والفحم وغير ذلك ، وقرر في وقفها من الصدقات كل أسبوع وفي الأيام الشريفة والديالي المباركة شيئاً كثيراً ، كما أنشأ له ثروة فيها ودفن في هذه التربة بعد موته »^(٣).

وقال شمس الدين ابن خلكان في ترجمته : « وكان قد بنى بالموصل مدرسة كبيرة وقفها على الفقهاء الشافعية والحنفية ، فدُفن في هذه المدرسة في ثروة هي بداخلها رحمه الله تعالى ، ورأيت المدرسة والثروة وهي من أحسن المدارس والثروب ، ومدرسة ولده نور الدين أرسلان شاه في قبالتها وبينهما ساحة كبيرة »^(٤).

وذكر الأستاذ سعيد الديوجي رحمه الله أنه لم يبق من هذه المدرسة سوى

(١) وتنظر مجلة سومر ، العدد ١١ / ١٧٠ - ١٧٩ .

(٢) المنذري : التكملة ١ / الترجمة ٤٧٣ وتعليقنا عليها .

(٣) التاريخ الباهر ٣٥٤ ، وينظر الروصتين لأبي شامة ٢ / ٢٢٦ - ٢٢٧ ، و امرأة الزمان للسيط ٨ / ٢٤٥ .

(٤) وفیات الاعيان : ٥ / ٢٠٧ .

حجرة واحدة مربعة الشكل فيها ضريح يقال له ضريح الإمام عبد الرحمن ،
وفوق الحجرة قبة مثمثة الشكل وفيها محراب من المرمر الأزرق مطعم بالمرمر
الأبيض وحوله كتابات كوفية .

وممن دَرَس في المدرسة العزية عماد الدين أبو حامد محمد بن يوسف بن
محمد بن منعة العُقيلي الشافعي المتوفى سنة ٦٠٨ هـ (١) .

٨ - مدرسة أم الملك الصالح : بعد سنة ٥٧٧ هـ - ١١٨١ م

وقفت هذه المدرسة أم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود ابن
عماد الدين زَنْكِي الذي خلف أباه بعد موته سنة ٥٦٩ هـ ثم تزوجها عز الدين
مسعود ونقلها إلى الموصل سنة ٥٧٧ هـ . وقد ورد ذكر هذه المدرسة في
« التاريخ الباهر » (٢) . ويرى الأستاذ سعيد الديوه جي أنَّ موقعها بالقرب من
الإمام عبد الرحمن .

٩ - المدرسة الثورية : بين سنة ٥٨٩ و ٦٠٧ هـ / ١١٩٣ و ١٢١١ م

منسوبة إلى منشئها الملك العادل نور الدين أبي الحارث أرسلان شاه ابن
عز الدين مسعود ابن قطب الدين مودود ابن عماد الدين زَنْكِي . تولى الحكم
من سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م إلى حين وفاته سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١١ م (٣)
قال ابن خَلِّكان : « وَيَنبَغِي مدرسةً للشافعية بالموصل قلُّ أن توجد مدرسة في
محستها » (٤) .

(١) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ١٢٦٣ .

(٢) التاريخ الباهر : ١٣٠ .

(٣) المنذري ، التكملة ٢ / الترجمة ١١٦٢ وتعليقنا عليها .

(٤) وفیات الأعيان : ١ / ١٩٣ .

كانت هذه المدرسة تقابل دور المملكة فهي فيما يظن الأستاذ الديوه جي كانت البناية التي اتحدت فيما بعد مقامًا عُرف بمقام الإمام مُحسن . وقد أوقف نور الدين الأوقاف الدارة على مدرسته ، وجعل فيها ستين فقيهاً شافعيًا^(١) ، وممن كُرس فيها الفقيه عماد الدين أبو حامد ابن معة الغفيلي المتوفى سنة ٦٠٨ هـ^(٢) ، والشيخ ركن الدين حسن بن محمد ابن شرف شاه الحسيني الإسترابادي المتوفى سنة ٧١٥ هـ^(٣) .

١٠ - المدرسة البقشبية : قبل سنة ٦٠٨ هـ - ١٢١١ م

هكذا ذكرها ابن الفوطي بخطه المتقن في ترجمة مدرستها عماد الدين ابن يونس المتوفى سنة ٦٠٨ هـ^(٤) ، وكذلك وردت في ثلاث نسخ من كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان^(٥) وفي « الشُّلُرات » : « البقشبية »^(٦) .

وقد رجح الأستاذ الديوه جي أنها « النفيسية » ، لما عُرف من عدة مقامات في المُؤصل تُعرف بالسِت نفيسة . على أن ما ورد بخط ابن الفوطي له قيمة عظمى عند الترجيح .

(١) التاريخ الباهر : ٣٦٨ ، والروضتين ٢ / ٢٢٧

(٢) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ١٢٦٣

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة . ٩ / ٢٣١ .

(٤) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ١٢٦٣ .

(٥) وفيات الأعيان : ٤ / ٢٥٣ .

(٦) شُلُرات الذهب ٥ / ٣٤ ولاشك أنها نصحيح فالمؤلف إنما ينقل من وفيات الأعيان

١١ - المدرسة العلالية : قبل سنة ٦٠٨ هـ - ١٢١١ م

لا نعرف عنها أكثر مما ذكره ابن القوطي في تلخيصه^(١) من أن عماد الدين أبا حامد ابن يونس قد دُرّس بها ، ثم تولّاها بعده أخوه كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس المتوفى سنة ٦٣٩ هـ^(٢) .

١٢ - المدرسة البدرية : قبل سنة ٦١٥ هـ - ١٢١٨ م

منسوبة إلى بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله صاحب الموصل المتوفى سنة ٦٥٧ هـ ، ابتدأها بالموصل قبل سنة ٦١٥ هـ ، وهي السنة التي توفي فيها مدرستها أبو المظفر محمد بن علوان بن مُهاجر^(٣) .

أنشأ بدر الدين مدرسته على أنقاض مسجد بقلعة الموصل شيّده الحسين ابن سعيد بن حمدان بن حمدون التغلبي في أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) .

وفي سنة ٦٣٧ هـ شيّد بدر الدين مشهّدًا للإمام يحيى بن القاسم في هذه المدرسة ، ثم دُفِنَ هو في المشهد نفسه ، ولانزال قبة المشهد باقية إلى اليوم ، وهي من العمائر النفيسة التي وصلت إلينا ، وهي في شمال الموصل تشرف على نهر دجلة ، ولم يبق منها سوى المشهد الذي دُفِنَ فيه بدر الدين .

وقد كان لهذه المدرسة دور في تنشيط الحركة الفكرية في النصف الأول من القرن السابع الهجري ، دُرّس فيها عدد من كبار العلماء منهم شرف الدين

(١) تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ١٢٦٣ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥ / ٣١٦ .

(٣) المنفري : التكملة ٢ / الترجمة ١٥٧٤ .

محمد بن غُلوان بن مهاجر المذكور ، وكمال الدين ابن يونس العقيلي المتوفى سنة ٦٣٩ هـ .

ومن أعادَ بها لابن يونس العلامة أثير الدين المُفَضَّل بن عمر بن المفضل الأبهري صاحب التصانيف المشهورة المتوفى سنة ٦٦٣ هـ^(١) . وكان من المعيدين بها أيضًا عماد الدين إسماعيل بن هبة الله بن باطيش المتوفى سنة ٦٥٥ هـ ، قال ابن الفوطي : « ذكره شيخنا تاج الدين ، وقال : قدم بغداد وتفقّه بالنظامية ، فبرع في الفقه مذهبنا وخلافًا ، وحصل علم الأدب ، وسمع الحديث ورواه ، وعادَ إلى المُؤصل ورُتّب معيّنًا بالمدرسة البُثرية وخازن كتبها ، وصنف عدة كتب »^(٢) .

١٣ - المدرسة القاهرية : قبل سنة ٦١٥ هـ - ١٢١٨ م

منسوبة إلى مُنشئها القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي المتوفى سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م ودُفن فيها ، ولعل موضعها اليوم قرب كنيسة الظاهرة القُوقانية .

ومن دَرّس في القاهرية عبد افتتاحها العلامة كمال الدين ابن يونس العقيلي المتوفى سنة ٦٣٩ هـ^(٣) ، ثم وليّها ابنه شرف الدين أحمد (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) سنة ٦١٧ هـ ؛ قال ابن خُلُكان - وهو من تلامذته في إزبل - : « وكنتُ أحضر دروسه وأنا صغير وما سمعت أحدًا يلقي الدروس مثله ولم يزل على ذلك إلى أن حج ثم عاد وأقام بها ملازم الاشتغال والإفادة إلى أن توفى يوم الاثنين الرابع

(١) ابن خُلُكان : وفیات الأعيان ٥ / ٣١٣ .

(٢) تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٩٩٩ .

(٣) ابن خُلُكان : وفیات الأعيان ٥ / ٣١٦ .

والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وست مئة^(١) .
وممن ولي التدريس بها محمد بن علي المعروف بالإمام ابن بنت الرضي
يونس بن مَنَّة العُقيلي ، وهو ممن تفقه على خاليه عماد الدين بن يونس
وكمال الدين بن يونس ، ودرَّس بها إلى حين وفاته سنة ٦٢٢ هـ فكأنه وليها
بعد شرف الدين ابن كمال الدين^(٢) .

١٤ - المدرسة الصارمية : قبل سنة ٦٢٣ هـ - ١٢٢٦ م
وُثِرَ بمدرسة ابن بلدجي نسبة إلى مدرستها شهاب الدين أبي الشفاء محمود
ابن مودود بن محمود بن بلدجي المؤصلي الحنفي (٥٤٣ - ٦٢٣ هـ) ولعله هو
الذي أسَّسها^(٣) ، وخلفه فيها وفي مناصبه التدريسية الأخرى ولده عماد الدين
أبو القاسم عبد الرحمن بن محمود (٥٩٧ - ٦٤١ هـ)^(٤) .

١٥ - المدرسة اليوسفية : قبل ٦٥٤ هـ - ١٢٥٦
من مدارس الحنفية بالمؤصل وكانت على نهر دجلة ، ولا نعرف من
أخبارها سوى أن أبا الفتح نصر الله المؤصلي المعروف بابن السمين (٥٨٧ -
٦٥٤ هـ) كان من المدرسين بها^(٥) .

• • •

(١) ابن حلكان : وفيات الأعيان : ١ / ١٠٨ .

(٢) الإسنوي : طبقات الشافعية ٢ / ٥٧٣ - ٥٧٤ .

(٣) السلامي : منتخب المختار : ٧٦ ، والقرشي . الجواهر المضية ٢ / ١٦٢ .

(٤) ابن العوطي : تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ١١٠٥ .

(٥) القرشي : الجواهر المضية ٢ / ١٩٨ - ١٩٩ .

المبحث السادس

مدارس أربيل

لم تكن مدينة إربل (أربيل) من المراكز العلمية في القرون الأولى ، لكنها برزت في القرن السابع الهجري لتكون من المراكز النامية نمواً سريعاً ، فظهر فيها عددٌ من العلماء ، وجذبت عدداً أكبر ، وأنشئ فيها عدد من المعاهد العلمية ، يظهر ذلك من عنوان الكتاب الذي ألفه شرف الدين أبو البركات المبارك بن أحمد اللخمي الإربلي المعروف بابن المستوفي المتوفى سنة ٦٣٧هـ في تاريخها وسماه « نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأمائل » . ولا أدل على ضعف الحركة الفكرية فيها قبل القرن السابع (الثالث عشر الميلادي) ما ذكره مؤرخها ابن المستوفي في ترجمة أبي حفص عمر بن محمد ابن طبرزد المتوفى سنة ٦٠٧هـ من أن أبا سعيد كوكبري بن عليّ « لما بُني دار الحديث لم يكن ياربيل من يُسمع بها ، فمرت على ذلك مدة فأبهرت هذا الحال إليه ، فقال : كيف الطريق إلى ذلك ؟ فقلتُ : إحضار مشايخ من بغداد عندهم حديث يُشتمع عليهم ، ثم عينته وعينت خنبلاً (هو خنبل بن عبد الله الرضاقي) لسماع « المُسند » (يعني مسند الإمام أحمد) فكتب كتاباً إلى الديوان العزيز - أجله الله - يطلبهما وأعدّ لهما نفقة تامة ، فوصلاني سنة اثنتين وست مئة فنزلاً بدار الحديث ياربيل ،^(١) فمن المدارس المستقلة ياربيل :

١ - مدرسة القلعة ٥٣٣ هـ - ١١٣٩ م

أنشأها الأمير أبو منصور سرفتيكين الزينبي نائب صاحب إربل في سنة

(١) تاريخ إربل : ٢ / ١٥٩ .

٥٣٣ هـ لأبي العباس الحَظير بن نصر بن عقيل بن نصر الإربلي (٤٧٨ - ٥٦٧ هـ) ، قال ابن خَلِّكان : كان فقيهاً فاضلاً عارفاً بالمذهب والفرائض والخلاف : اشتغل ببغداد على إلكيا الهَرَّاسي وابن الشَّاشي ، ولقي عدة من مشايخها ، ثم رجع إلى إربل وبقي له بها الأمير أبو منصور سرفتكين بن عبد الله الزُّبيني نائب صاحب إربل مدرسة القلعة ، وتاريخها سنة ثلاث وثلاثين وخمسة مئة ، ودُرس فيها زماناً ، وهو أول من دُرس بإربل ... وكانت وفاته ليلة الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وستين وخمسة مئة بإربل ، ودُفن بها في مدرسته التي بالرَّيَض في قُبَّة مُفردة ، وقبره يزار وزرته كثيراً (١) .

٢ - المدرسة العقيلية : قبل سنة ٥٦٧ هـ - ١١٧٢ م

أنشأها الفقيه أبو العباس الحَظير بن نصر بن عقيل بن نصر الإربلي المتقدم ذكره في الرَّيَض ، عرفنا ذلك مما ذكره زكي الدين المنذري في ترجمة ابن أخيه نصر بن عقيل المتوفى ٦١٩ هـ ، قال في وفيات السنة المذكورة : « وفي الثالث عشر من شهر ربيع الآخر أيضاً تُوفي الفقيه الأجل أبو القاسم وأبو المظفر نصر بن عقيل بن نصر بن عقيل الإربلي بالمؤصل بظاهرهما ، ومولده بإربل سنة أربع وثلاثين وخمسة مئة . تفقه بإربل على عمِّه أبي العباس الحَظير بن نصر بن عقيل ، ثم رحل إلى بغداد وأقام بالنظامية مدة وسمع . ورجع إلى إربل وولِّي التدريس بها بالمدرستين اللتين كان عمه يُدرِّس بهما بالقلعة والرَّيَض وأقام بها يُدرس ويفتي ، ثم

(١) وفيات الأعيان : ٢ / ٢٣٧ - ٢٣٨ .

توجه إلى الموصل فلم يزل بها مُكثراً إلى أن مات^(١). وقال الذهبي في « تاريخ الإسلام » : « تفقه على عمه أبي العباس الخضر ، ثم أتى بغداد وأقام بالأنظامية مدة ، وسمع من أبي الفضل أحمد بن صالح الجيلي وغيره ، ورجع إلى بلده ، ووليّ التدريس بها بالمدرستين اللتين كان عُمّه يُدرّس بهما بالقلعة والربض فدرّس وأفتى مدةً ، ثم قدم الموصل ، وتوفي في ثالث عشر ربيع الآخر^(٢) . وذكر ابن الملقن في « العقد المذهب » أنه ترك إربل إلى الموصل سنة ٦٠٦ هـ^(٣) . فهذه النصوص تشير صراحة إلى وجود مدرستين درّس بهما أبو العباس الخضر وابن أخيه نصر بن عقيل ، وقد تَوَهَّم أستاذنا العلامة الدكتور مصطفى جواد - رحمه الله - فظنهما مدرسة واحدة^(٤) .

وممن درّس بالمدرسة العقلية علم الدين أبو البركات محمد بن عبد السلام ابن محمد بن عبد العزيز بن هبة الله ابن الخطيب السنجاري ، قال ابن الفوطي : « كانت الخطابة بسنجان في آبائه وأجداده ، ودرّس بإربل بالمدرسة العقلية ، ثم اتصل بمظفر الدين كوكيري وصار من المشيرين إليه ، وأنفذ إلى بغداد رسولاً ، وتولى القضاء بملطية ... توفي بملطية سنة تسع عشرة وست مئة^(٥) .

ومن المدرسين بهتين المدرستين أيضاً : القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله ابن أبي بكر المهاني المتوفى سنة ٦٢٧ هـ ، قال ابن المستوفي في « تاريخ

(١) التكملة ٣ / الترجمة ١٨٧١ .

(٢) تاريخ الإسلام : ١٣ / ٥٨٨ .

(٣) العقد المذهب ، الورقة ٢٦٦ (دار الكتب المصرية) .

(٤) يظر تعليقه على تلخيص مجمع الآداب ٤ / ١ / ٦٢٢ .

(٥) تلخيص مجمع الآداب ٤ / الترجمة ٩١٠ .

إربل : « وَلِيَّ الْقَضَاءِ إِرْبِلَ وَأَقَامَ بِهَا مَدَّةً ، وَكَانَتْ وَلَايَتُهُ سَنَةَ سَبْعٍ وَسِتِّ مِائَةٍ وَعِزَّلَ عَنْهَا . وَوَلِيَ تَدْرِيسَ الْمَدْرَسَتَيْنِ بِالْقَلْعَةِ وَالرُّبُضِ ... »^(١) ، وذكر محققه صديقنا الدكتور سامي الصقار بأن مدرسة القلعة هي المدرسة العقيلية ، أما مدرسة الرُبُض فيبدو أنها انتهت خارج القلعة وليس معروفاً من هو بابيها ولعلها هي المدرسة المُجاهدية^(٢) ، وهذا ليس بجيد وهو متابعة في قسمه الأول للدكتور مصطفى جواد - رحمه الله - وقد مر بنا قول ابن خَلِّكان - وهو من أهل إربل - بأن أبا العباس الحَظِير بن عقيل دُفِنَ بمدرسته التي بالرُّبُض .

٣ - المدرسة المُجاهدية : قبل سنة ٥٧١ هـ - ١١٧٥ م

ابتناها مجاهد الدين أبو مصور قايمار قبل انتقاله إلى الموصل سنة ٥٧١ هـ وكان مجاهد الدين مملوكاً اشتراه رينُ الدين والد الملك المعظم مظفر الدين كوكبري صاحب إربل وقَدَّمَهُ في دولته حتى صارَ صاحب الأمر فيها وصار يُعرف بمجاهد الدين الزُتُنِي .

وممن دَرَّس في هذه المدرسة الفقهية نجم الدين أبو حفص عُمر بن إبراهيم ابن أبي بكر بن خَلِّكان الإربلي المتوفى سنة ٦٠٩ هـ وهو عم شمس الدين ابن خَلِّكان صاحب « وفيات الأعيان » ، قال زكي الدين المُنْذَرِي : « تفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه وسمع بإربل من شيخنا أبي حفص عُمر ابن محمد بن طَبْرَرْد .. وجاورَ بالحَرَمِ الشريف سِينَ وحدثَ بِمَكَّةَ شَرَفَهَا اللهُ تعالى وإربل ودَرَّس بالمدرسة المُجاهدية بإربل »^(٣) .

(١) تاريخ إربل : ١٥٨ - ١٥٩ .

(٢) تاريخ إربل ، ص ٢٥٦ من قسم التعليق .

(٣) التكملة : ٢ / الترجمة ١٢٦٠ .

وذكر الشبكي أنه بقي مدرساً بها إلى حين وفاته^(١).

ثم تولى التدريس بها بعده أبو الفوارس المشرف بن عبد اللطيف بن عبد البر القزويني ، قال أبو البركات المستوفي في « تاريخ إربل » : « ورد إزبل في سنة أربع وتسعين ومئة ونُصّب شيخاً لدار الحديث المظفرية بإربل ، وهو أول من أقام بها ، وحضر خطبته لما فُتحت الفقير إلى الله أبو سعيد كوكبوري والعلماء بإربل وجماعة كثيرون ، وكان يعرض لولايتها جماعة من علماء إزبل فما أعطوها ، وحضر معهم وأقام بها يُشجع الحديث على من وردھا ، وأقام بدار الحديث - عَمَرها الله - إلى أن توفي الفقيه عُمر بن إبراهيم ابن أبي بكر الخُلُكاني في ثالث عَشَر رمضان سنة تسع وست مئة فانتقل إلى المدرسة المُجاهدية مدرساً بها إلى أن توفي ... وكان عالماً بأصول الفقه والمذهب »^(٢).

٤ - المدرسة المظفرية : قبل سنة ٦٠٨ هـ - ١٢١١ م

منسوبة إلى منشئها الملك المعظم مظفر الدين أبي سعيد ابن زين الدين كوكبوري صاحب إزبل المتوفى سنة ٦٣٠ هـ أنشأها قبل سنة ٦٠٨ هـ وهي السنة التي ولد فيها شمس الدين ابن خُلُكان صاحب « وفيات الأعيان » ابن مدرستها شهاب الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر المتوفى سنة ٦١٠ هـ ، قال شمس الدين ابن خُلُكان في ترجمة شيخته زينب الشُّغرية : « ولما منها إجازة كتبها في بعض شهور سنة عَشَر وست مئة ، ومولدي يوم الخميس بعد

(١) طبقات الشافعية ٨ / ٣٠٨ .

(٢) تاريخ إربل : ٣٢٨ - ٣٢٩ .

صلاة العصر حادي عشر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وست مئة بمدينة إربل بمدرسة سُلْطَانِهَا الْمَلِكِ الْمُعْظَمِ مَظْهَرِ الدِّينِ ابْنِ زَيْنِ الدِّينِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ^(١) .
وقال زكي الدين المنذري في ترجمة شهاب الدين والد شمس الدين ابن خَلْكَانَ : « وَحَدَّثَ بِإِزْبِلَ ، وَدَرَّسَ بِهَا بِالْمَدْرَسَةِ الْمُظْفَرِيَّةِ »^(٢) . وَدَرَّسَ بِهَا أَيْضًا شَرْفُ الدِّينِ أَبُو الْفَضْلِ أَحْمَدُ ابْنُ كِمَالِ الدِّينِ مُوسَى بْنُ يُونُسَ بْنِ مَنَعَةَ الْعُقَيْلِيِّ الْمَتْرُوفِيِّ سَنَةَ ٦٢٢ هـ^(٣) .

٥ - المدرسة الفقيرة : قبل سنة ٦١٨ هـ - ١٢٢١ م

وَتُعْرَفُ أَيْضًا بِمَدْرَسَةِ الطِّينِ . وَرَدَّ ذِكْرُهَا فِي تَرْجُمَةِ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الْمَهَانِيِّ مِنْ « تَارِيخِ إِرْبِلَ » ، قَالَ ابْنُ الْمُسْتَوْفِيِّ : « وَزَلَّيَ تَدْرِيسَ الْمَدْرَسَتَيْنِ بِالْقَلْعَةِ وَالرَّبْضِ وَتَدْرِيسَ الْمَدْرَسَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْفَقِيرَةِ الْمُطَلَّةِ عَلَى رِبَاطِ الْجَنِينَةِ مِنْ شَرْقِيهِ ، وَتُعْرَفُ أَيْضًا بِمَدْرَسَةِ الطِّينِ ، وَفَقَهَا الْفَقِيرُ أَبُو سَعِيدٍ كُوكَبُورِي عَلَى عَدَدٍ مِنَ الْفُقَهَاءِ الشَّافِعِيَةِ »^(٤) . وَسَافَرَ مَدْرَسَهَا هَذَا إِلَى حَلَبَ سَنَةَ ٦١٨ هـ وَتُوفِيَ سَنَةَ ٦٢٧ هـ^(٥) فَيَكُونُ إِنشَاؤُهَا قَبْلَ سَنَةِ ٦١٨ هـ .

وَقَدْ خَلَطَ مُحَقِّقُ « تَارِيخِ إِرْبِلَ » بَيْنَ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ وَالْمَدْرَسَةِ الْمُظْفَرِيَّةِ وَدَارَ الْحَدِيثِ الْمُظْفَرِيَّةِ ، فَقَالَ فِي تَعْلِيْقِهِ عَلَى الْمَدْرَسَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْمَقِيرَةِ : « يَدُو أَنَّهَا الْمَدْرَسَةُ الْمُظْفَرِيَّةُ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا ابْنُ الْمُسْتَوْفِيِّ (وَرَقَةُ ١٦٢ أ) وَذَكَرَ ابْنَ

(١) وفيات الأعيان : ٢ / ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٢) التكملة : ٢ / الترجمة ١٣١١ .

(٣) التكملة ٣ / الترجمة ٢٠٣٣ .

(٤) تاريخ إربل : ١٥٩ .

(٥) المصدر نفسه .

خلُكَّان بأن له إجازة كُتبت في المدرسة المظفرية بإربل سنة ٦١٦ هـ (كذا) من قبل زينب ابنة أبي القاسم عبد الرحمن الشعري الحُرجاني^(١) وهذا الكلام فيه ما فيه فإن ابن المستوفي ذكر دار الحديث المظفرية في الموضع الذي أشار إليه ، ودار الحديث غير المدرسة ، كما هو معروف ، أما ابن خُلُكَّان فإنه حصل على إجازة زينب بنت الشعري سنة ٦١٠ هـ وليس سنة ٦١٦ هـ لأنها توفيت بإجماع المؤرخين سنة ٦١٥ هـ فكيف تجيزه سنة ٦١٦ هـ^(٢) ثم إن هذه الإجازة لم تكتب في المدرسة المظفرية لكن الشيخة المذكورة أجازته سنة ٦١٠ هـ وذكر أن مولده بالمدرسة المذكورة . ثم إن المدرسة المظفرية معروفة بتكرر ذكرها في المصادر ، أما المدرسة الفقيرة المعروفة بمدرسة الطَّين فهي أقل شأنًا من الأولى وإلا ما كان ليذكر ابن المستوفي كل هذا التعريف بها .

(١) تاريخ إربل : ٢٥٦ (من قسم التعليق) .

(٢) تنظر ترجمتها في النكحلة ٢ / الترجمة ١٦٤٨ .

المبحث السابع

مدارس أخرى

١ - المدرسة المجاهدية : (بسنجار) في حدود سنة ٥٩٤ هـ - ١١٩٧ م

أنشأ هذه المدرسة الأمير مجاهد الدين أبو منصور يَزْنَقَش بن عبد الله الثركي الحنفي ، وكان مملوكاً لعماد الدين زَنْكِي ابن قطب الدين مودود ابن عماد الدين زَنْكِي بن آق شَنْقَر صاحب سنجان ، فلما توفي سيده عماد الدين سنة ٥٩٤ هـ خلف ولدًا صغيرًا هو قطب الدين محمد ، فقام مجاهد الدين بتربيته وأدار أمور بسنجار ، وني أثناء ذلك أنشأ مدرسةً للحنفية وشرطَ فيها للفقهاء طيِّبًا كل يوم^(١) .

ولعل هذه المدرسة الحنفية هي المدرسة العمادية (نسبة إلى عماد الدين المذكور) وهي التي دُرِّسَ فيها عليُّ بنُ الحسين بن علي بن سعيد بن حامد الشُّنْجاري المعروف بابن دُبابة المتوفى سنة ٦٤٢ هـ ، قال عز الدين الحسيني في « صلة التكملة » : « ودُرِّسَ بالمدرسة العمادية بسنجار ، وكان فقيهاً فاضلاً وله معرفة بالأدب »^(٢) .

٢ - المدرسة الهمامية بـتُكْرِيت : قبل سنة ٥٧٨ هـ - ١١٨٢ م

منسوبة إلى همام الدين يَزِيد بن علي أمير تُكْرِيت المتوفى سنة ٥٧٨ هـ . وقد جاء ذكرها في ترجمة ابن العوْطِي لفخر الدين أبي المكارم عيسى بن

(١) التاريخ الناصر : ١٩١ ، ووفيات الأعيان ٢ / ٣٣١ ، وتلخيص مجمع الآداب ٥ / الترجمة ١٥٠ من الميم .

(٢) صلة التكملة ١ / ١١٢ (بتحقيق) ، وعنه نقل القرشي في الجواهر ١ / ٣٦١ .

مودود بن علي بن عبد الملك بن شعيب الثكريتي وصاحب قلعتها وأنه توفي سنة ٥٨٤ هـ ودُفن بالمدرسة الهمامية^(١).



(١) تلخيص مجمع الآداب : ٤ / الترجمة ٢٢٧٨ .

المصادر والمراجع

- ابن الأثير ، عز الدين علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ)
- ١- التاريخ الباهر . تحقيق عبد القادر طليسات ، القاهرة ١٩٦٣ م .
 - ٢- الكامل في التاريخ . دلو صادر ، بيروت ١٩٦٥ م .
- أحمد أمين (ت ١٣٧٣ هـ)
- ٣- ضحى الإسلام . القاهرة
 - أحمد بن حنبل ، الإمام (ت ٢٤١ هـ)
 - ٤- المسند . الطبعة الميمنية ، القاهرة ١٨٩٦ م .
 - الإستوي ، جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن (ت ٧٧٢ هـ)
 - ٥- طبقات الشامية . تحقيق الدكتور عبد الله الجبوري ، بغداد ١٩٧٠ م .
 - ابن أبي أصيبعة ، أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨ هـ)
 - ٦- عيون الأنباء في طبقات الأطباء . بيروت .
 - الأهواني ، أحمد فؤاد (ت ١٣٩٠ هـ)
 - ٧- التعليم في رأي القاسبي . القاهرة .
 - بحشل ، أسلم بن سهل الرزاز (ت ٢٩٢ هـ) .
 - ٨- تاريخ واسط . تحقيق كوركيس عواد ، بغداد ١٣٨٧ هـ
 - البخاري ، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ) .
 - ٩- الصحيح . طبعة الشعب عند الإشارة إلى الجزء والصفحة ، وفتح الباري لابن حجر عند الإشارة إلى الرقم .

البلاذري ، يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ)

١٠- فتوح البلدان . القاهرة ١٩٥٩ م .

اليهقي ، إبراهيم بن محمد (كان حيا قبل ٣٢٠ هـ)

١١- المحاسن والمساوي . القاهرة .

الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى (ت ٢٧٩ هـ)

١٢- الجامع الكبير . تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، ط ٢ ، دار العرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩٧ م

ابن تفرج بردي ، أبو الحسن يوسف الأتابكي (ت ٨٧٤ هـ)

١٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٩٢٩ - ١٩٥٦ م

التميمي ، تقي الدين بن عبد القادر (ت ١٠٠٥ هـ) .

١٤- الطبقات السنية في تراجم الجمعية (مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٢٧٤٤) .

التوحي ، الحسن بن علي (ت ٣٨٤ هـ)

١٥- ثوار المحاضرة وأخبار المذاكرة . تحقيق عبود الشالحي ، بيروت ١٩٧١ م

ابن تيمية ، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم (ت ٧٢٨ هـ)

١٦- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، طبعة العقي ، القاهرة

الجاحظ ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) .

١٧- البيان والتبيين . تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٤٨ م .

١٨- الحيوان . تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٣٨ - ١٩٤٥ م .

١٩- رسالة في المعلمين (ضمن رسائل الجاحظ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- ابن جماعة ، بدر الدين محمد بن إبراهيم الكتاني (ت ٧٣٣ هـ) .
- ٢٠- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العلم والمتعلم . حيدر آباد ١٣٥٣ هـ
- ابن جني ، عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ)
- ٢١- الخصائص . تحقيق محمد علي النجار ، القاهرة ، ١٩٥٢ - ١٩٥٦ م .
- ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ)
- ٢٢- صيد الخاطر ، القاهرة ١٩٢٧ م
- ٢٣- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم . تحقيق سالم الكونكري ، حيدر آباد ١٣٥٧ - ١٣٥٩ هـ .
- ابن أبي حاتم ، عبد الرحمن بن حاتم الرازي (ت ٣٢٧ هـ)
- ٢٤- المرح والتمثيل . تحقيق عبد الرحمن اليماني ، حيدر آباد ١٩٥٢ - ١٩٥٦ م .
- حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله (ت ١٠٦٧ هـ)
- ٢٥- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . إستانبول ١٩٤١
- ابن حزم ، علي بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ)
- ٢٦- المفصل في الملل والأهواء والنحل . القاهرة ١٣١٧ - ١٣٢١ هـ
- الحسيني ، عز الدين أحمد بن محمد بن عبد الرحمن (ت ٦٥٩ هـ)
- ٢٧- صلة التكملة لوفيات النفلة . تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ٢٠٠٧ م .
- الحميدي ، عبد الله بن الزبير (ت ٢١٩ هـ)
- ٢٨- مسند الحميدي . تحقيق شيخنا العلامة حبيب الرحمن الأعظمي ، عالم الكتب بيروت .
- الخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ) .
- ٢٩- تاريخ مدينة السلام . تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ٢٠٠١ م .

ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ)

٣٠. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٢ - ١٩٧٢ .

أبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ)

٣١. السنن . تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد ، دار إحياء السنة النبوية ، القاهرة .

ابن الديلمي ، أبو عبد الله محمد بن سعيد (ت ٦٧٣ هـ)

٣٢. ذيل تاريخ مدينة السلام . تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، دار العرب الإسلامي ، بيروت ٢٠٠٧ م .

الدمياطي ، شهاب الدين أحمد بن أيك الحسامي (ت ٧٤٩ هـ)

٣٣. المستفاد من ذيل تاريخ بغداد (نسخة دار الكتب المصرية ، رقم ٢٩٦) ثم طبع بعد .

الديوه جي ، سعيد

٣٤. مدارس الموصل في العهد الأتابكي . بحث منشور في جملة سومر ١٣ ، بغداد ١٩٥٧ م .

الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨) .

٣٥. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام . تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، دار العرب الإسلامي ، بيروت ٢٠٠٣ م .

٣٦. سير أعلام النبلاء . مجموعة من المحققين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠١ هـ .

٣٧. المختصر المحتاج إليه . تحقيق شيخنا العلامة مصطفى جواد ، بغداد ١٩٥١ - ١٩٧٧ م .

الراهمرمزي ، الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد (ت ٣٦٠ هـ) .

٣٨. المحدث الفاضل بين الراوي والواعي . تحقيق محمد عجاج الخطيب ، ط ٣ ، دار الفكر ، بيروت ١٤٠٤ هـ .

ابن رجب ، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد البغدادي (ت ٧٩٥ هـ) .

٣٩. الدليل على طبقات الحنابلة . القاهرة ١٩٥٢ - ١٩٥٣ م .

رضوان السيد

٤٠. مقدمة كتاب الأسد والغواص . بيروت .

الزبيدي ، السيد محمد مرتضى (ت ١٢٠٥ هـ)

٤١. تاج العروس من جواهر القاموس . طبعة القاهرة .

الزرنوجي ، برهان الإسلام (توفي في النصف الأول من القرن السابع)

٤٢. تعليم المتعلم طريق التعليم . القاهرة

ابن الساعي ، تاج الدين علي بن أنجب (ت ٦٧٤ هـ)

٤٣. طبقات الشافعية الكبرى . تحقيق الدكتور محمود الطناجي والدكتور عبد الفناح انجلو ،

القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٧٦ م .

ابن سعد ، محمد كاتب الواقدي (ت ٢٣٠ هـ)

٤٤. الطبقات الكبرى . دار صادر ، بيروت ١٤٠٥ هـ .

السلامي ، تقي الدين محمد رافع (ت ٧٧٤ هـ)

٤٥. المنتخب المختار المذيل به على تاريخ ابن النجار (انتخاب تقي الدين القفاسي المتوفى سنة

٨٣٢ هـ) . تحقيق عباس المزوي ، بغداد ١٩٢٨ م .

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ) .

٤٦. الزهر في علوم اللغة وأنواعها . القاهرة ١٩٥٨ .

أبو شامة ، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥ هـ) .

٤٧. ذيل الروضتين في أخبار الدولتين . القاهرة ١٣٦٦ هـ .

ابن الشعار ، أبو البركات المبارك بن أبي بكر الموصلي (ت ٦٥٤ هـ) .

٤٨- عقود الجمان في شعراء هذا الزمان (مخطوطة أسعد أفندي باستانبول رقم ٢٣٢٣ - ٢٣٣٠) .

شلبى ، الدكتور أحمد

٤٩- التربة الإسلامية . ط ٧ ، القاهرة ١٩٨٢ م .

ابن أبي شيبة ، أبو بكر عبد الله بن محمد (ت ٢٣٥ هـ) .

٥٠- المصنف . إدارة القرآن والعلوم الإسلامية ، باكستان ١٩٨٧ م .

الشيذري ، عبد الرحمن بن نصر (ت نحو ٥٩٠ هـ) .

٥١- نظرية التربة في طلب الحسبة . القاهرة ١٣٦٥ هـ .

الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أليك (ت ٧٦٤ هـ) .

٥٢- الوافي بالوفيات . تحقيق مجموعة من المحققين ، طبعة جمعية المستشرقين الألمانية .

الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) .

٥٣- تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل أي القرآن (بتهدية)

٥٤- مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٩٤ م .

الطرطوشي ، محمد بن الوليد ، أبو بكر (ت ٥٢٠ هـ) .

٥٥- سراج الملوك . القاهرة .

ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣ هـ) .

٥٦- جامع بيان العلم وفضله . المطبعة المنيرية ، القاهرة .

ابن العماد ، أبو العلاج عبد الحى (ت ١٠٨٩ هـ)

٥٧- شذرات الذهب في أخبار من ذهب . القاهرة ١٣٥٠ هـ .

العماد الأصهباني ، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٩٦ هـ)

٥٨- فريدة القصر وجريدة العصر (القسم الشامي ، دمشق ١٩٥٥ - ١٩٦٤ ، والقسم العراقي ، بغداد ١٩٥٥ - ١٩٦٥ ، ١٩٧٣) .

عماد عبد السلام رؤوف .

٥٩- مدارس بغداد في العصر العباسي . بغداد ١٩٦٦ م .

العيني ، بدر الدين محمد بن أحمد بن موسى (ت ٨٥٥ هـ) .

٦٠- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (مخطوطة دار الكتب المصرية المصورة رقم ١٥٨٤ تاريخ) .

عبد الغافر الفارسي ، عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر (ت ٥٢٩ هـ)

٦١- للسياق في تاريخ ميسايور . نشره ريجارد فراي

الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥ هـ)

٦٢- إحياء علوم الدين . طبعة دار المعرفة ، بيروت .

الغسالي ، الملك الأشرف (ت ٨٠٣ هـ)

٦٣- المسجد المسبوك . تحقيق شاكر محمود عبد النعم ، بيروت ١٩٧٥ م .

ابن الفوطي ، كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد (ت ٧٢٣)

٦٤- تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب . الجزء الرابع ، تحقيق شيخنا العلامة مصطفى جواد ، دمشق ١٩٦٢ - ١٩٦٥ ، والجزء الخامس منشور في مجلة أورينتال كوليج مكرن بالهند بتحقيق الفاسمي .

القيروز آبادي ، معجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ) .

٦٥- القاموس المحيط . طبعة الرسالة ، بيروت .

القرشي ، محيي الدين عبد القادر بن محمد (ت ١٧٧٥ هـ) .

٦٦. الجواهر المضيفة في طبقات الجمعية . حيدر آباد ١٣٣٢ هـ

القفطي ، جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ)

٦٧. إخبار العلماء بأخبار الحكماء . تحقيق ليرت ، لايرك ١٩٠٣ م .

ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١ هـ) .

٦٨. إعانة اللهفان . دار المعرفة ، ط ٢ ، بيروت ١٩٧٥ م .

ابن كثير ، عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ)

٦٩. البداية والنهاية في التاريخ . القاهرة ١٣٥٨ هـ

لسنر

٧٠. مخطوط بغداد ، ترجمة الدكتور صالح العلي ، بغداد .

المزي ، جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن (ت ٧٤٢ هـ)

٧١. تهذيب الكمال في أسماء الرجال . تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة ،

بيروت ١٩٨٠ - ١٩٩٢ م .

ابن المستوفي ، أبو البركات المبارك بن أحمد اللخمي (ت ٦٣٧ هـ)

٧٢. تاريخ إربل (نهضة البلد الخامل ممن ورده من الأمثال) . تحقيق الدكتور سامي الصقار ،

بغداد ١٩٨٠ م .

مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ) .

٧٣. الصحيح . حياة محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة .

مصطفى جواد ، العلامة الدكتور (ت ١٩٦٩ م)

٧٤. أول مدرسة في العراق . المعلم الجديد ، العدد ١ ، بغداد ١٩٤٠ هـ .

ابن الملكن ، سراج الدين عمر بن علي (ت ٨٠٤)

٧٥. العقد المذهب في طبقات حملة المذهب (نسخة دار الكتب المصرية رقم ٥٧٩ تاريخ) .

المنذري ، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥٦ هـ)

٧٦. التكملة لوفيات النقلة . تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة

الرابعة ، بيروت ١٩٨٨ م .

منصور بن سليم الاسكندراني (ت ٧٧٣) .

٧٧. ذيل إكمال الإكمال . تحقيق الدكتور عبد القيوم عبد رب النبي ، مكة المكرمة ١٤١٩ هـ .

ابن منظور ، محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) .

٧٨. لسان العرب . طبعة دار صادر ، بيروت .

ناجي معروف ، العلامة الدكتور (ت ١٩٧٧ م) .

٧٩. تاريخ علماء المستنصرية . ط ٢ ، بغداد ١٩٦٥ م .

٨٠. صوة جديد على أوقاف المستنصرية . الأقلام م ٢ ، بغداد ١٩٦٥ م

٨١. علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي . بعد ١٩٧٣ م .

٨٢. المدارس الشراعية ببغداد وواسط ومكة . بغداد ١٩٦٥ م .

٨٣. نشأة المدارس المستقلة في الإسلام . بغداد ١٩٦٦ م .

ابن ناصر الدين ، محمد بن أبي بكر بن عبد الله (ت ٨٤٢ هـ) .

٨٤. توضيح المشتبه . تحقيق محمد نعيم العرقسوسي ، ط ٢ ، بيروت ١٩٩٣ م .

ابن النجار ، محب الدين محمد بن محمود (ت ٦٤٣ هـ) .

٨٥. التاريخ المجدد لمدينة السلام (مجلد الظاهرية رقم ٤٢ ، ومجلد باريس رقم ٢١٣١

عربي) .

النديم ، محمد بن إسحاق (ت ٣٨٠)

٨٦. الفهرست . تحقيق العلامة أيمن فؤاد السيد ، مؤسسة الفرقان ، لندن ٢٠٠٩ م .

ابن نقطة ، أبو بكر محمد بن عبد الغني البغدادي (ت ٦٢٩ هـ)

٨٧. إكمال الإكمال . تحقيق الدكتور عبد القيوم عبد رب النبي ، مكة المكرمة ١٤١٧ هـ .

وليد الأعظمي

٨٨. ملزمة الإمام أبي حنيفة (المجموعة الكاملة ، م ٣) ، بيروت ٢٠٠٧ م .

ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦) .

٨٩. معجم الأدباء . طبعة مرجليوث ، القاهرة ١٩٢٣ - ١٩٣٠ م .

٩٠. معجم البلدان . طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٥٥ .

مجهول

٩١. كتاب الحوادث . تحقيق الدكتور بشار حواد معروف والدكتور عماد عبد السلام رؤوف ،

دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩٧ م .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٣٨٦٦ / ١٤ - ١٢ - ٢٠١٠ م

I S B N

978- 977- 481- 056- 5

التربية والتعلم في العراق

حتى نهاية العصر العباسي

ISBN



9 789774 810565

